

حيدر حيدر

رواية

# الزمن الموحش

دار أمواج



الى الصداقة في منتهى البلاغة  
مع التحية

bader

- الزمن الموحش (رواية)
- المؤلف: حيدر حيدر
- الطبعة الرابعة شباط ١٩٩٣
- جميع الحقوق محفوظة
- الناشر: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع -  
هاتف 802389 - ص.ب 13/5264 - بيروت - لبنان.
- التوزيع: مكتبة بيسان -  
هاتف 865126 - ص.ب 13/5261 - بيروت - لبنان.

حيدر حيدر

# الزمن الموحش



- مراسمُ دَفْنٍ -

لأنَّ الزمنَ يقهرُ الزوايا الحادة ،  
ويغلقُ الجراحَ  
أريدُ أن أنسى الزمنَ العاريَ والقاتلَ ،  
زمنَ العصورِ الأولى  
زمنَ نتراتِ الفضةِ المتآكلة ،  
ومفتتِ العظامِ  
زمنَ الفصامِ بين السرةِ والتاريخِ  
زمنَ الإبرةِ المرتعشةِ يحنون  
في ساعةِ الصفرِ  
زمنَ الصلواتِ المشتتةِ  
زمنَ الحياةِ الزائفةِ  
زمنَ الخجلِ من التمددِ في نقطةِ البلاهة ؛  
الزمنَ الذي حشِرنا فيه داخلَ الفقرِ  
كما يمتليُّ المرءُ بالغازِ والكهرباءِ ؛  
الزمنَ الذي انعكسَ فيه الخلودُ رأساً على عقبِ  
والذي لم يعدْ فيه صولحانُ الموتِ ينقرُ أدمغتنا .  
الزمنَ الذي كنتُ فيه أسمنُ بوحشيةِ

وأنفخُ تحتَ الشمسِ ؛  
زمنَ الدموعِ والقلقِ  
زمنَ المشيِ خلالِ النومِ ،  
الزمنَ الذي أرغِمنا فيه على اختراعِ أُذنٍ ثالثة  
لكي نصغيَ بها  
إلى ما يقوله قضيبُ الزمنِ  
وهو يدقُّ رؤوسنا  
بقوته الشرسة  
والذي انتدبتهُ الأبديةُ ليكسِرَ ظهورنا .  
ولكن ...

لأن الزمنَ يُشفي تلكَ الجراحَ  
ويسوي الجراحَ ،  
فإنني أرغبُ في تشييدِ دعامةٍ للزمنِ ،  
أنا المنفيَّ عن الزمنِ  
والمطرودُ من العصورِ السالفةِ .  
أريدُ الآنَ أن أُعيدَ إليه الكمالَ ،  
أصيرُ وتينهُ المقدسَ  
لأرى كيفَ تتسعُ أملاكي ،  
وتستيقظُ أرضيَ المليئةُ بالظلالِ  
وتفرغُ نفسها كمخزنٍ بلا حدودِ ،  
ينتظرُ مجيءَ العصورِ ..

«شاعر من أفريقيا»

---

## الفصل الأول

---





ها هم قادمون من الجبال والسهول زحفاً باتجاه المدن . في عيونهم غضب . وعلى  
جباههم غبارٌ ومجدُّ مُتَظَر . في الرياح تخفق راياتهم وأصواتهم الجلييلة تملأ سمع العالم .  
تحتهم ترتعش الأرض ، ونفوسهم مفعمة بالأمان والغبطة .

بخطى واثقة ، كما يتقدم موج غضب نحو شواطئ مجهولة ، يتقدمون . لواء  
فرحهم معقود وأنا حاديبهم ، ومعنا مَسْرَة وبنادق ، كتب وسجلات فقر ، زحفاً  
باتجاه المدن التي سقطت تحت ضربات الطلائع الأولى .

بلهف حار نتقدم ، ومعنا أغنيات واطفال . معنا اشواق كانت محتجزة ، غير  
مُبالين بسياط الرياح والنبوءات العتيقة ، مُعمدين بأشعة شمس جديدة هي ذي  
تشرق من خلف الهضاب الرمادية المنسية ، مباركة الفقراء والرعاة ، المنبوذين  
والحفاة ، الصُّنَّاع والمظلومين وجميع الذين هبوا على صوت التاريخ فيتموا شطره  
فجر ذلك اليوم المدهش .

الآن يبدو العالم صحواً أكثر من أي وقت مضى . صحو يشبه هدوء بحيرة  
غباً إعصاراً أز ثم اقترب ثم هبَّ بكل عنفوانه ووحشيته ، وأخيراً توارى . كل ما  
بقي هو آثار أعصار عَبَّرَ داخل النفس مخلِّفاً الحطام والسكينة وبعض غبار الحزن  
الطللي .

إنني أتذكر الآن بهدوء تام كيف نفخت الريح في تلك الأودية ، كيف  
ضربت بكل شراستها وأنيبها الموجع أبواب الكهوف المتناثرة والمظلمة ، فأيقظت  
السُّبَّاتَ الدهري العميق لآلاف الأحاسيس التي كانت غافية ، ثم فجأة لم يبقَ غيرُ  
الصدى النائح فوق البوابات التي عاودها صمتها القديم .

مثل سراب خادع يلمع فوق سهوب بعيدة. سراب يمتد ويمتد، هكذا يبدو الآن ركام الحكايات، شفافاً، لامعاً، عصبياً على اللمس، عصبياً ربما على الإدراك. حكاياتنا التي أفلت في غروب يوم كئيب مع شمس دمشقية تنوي بلا استئذان خلف قمة قاسيون الأجرد.

سيمضي وقت طويل قبل أن أستطيع ادراك كُنه تلك العلاقة الأئمة والطهرانية التي يخيل إليّ الآن أنها قد جمعتنا. إنني أستعمل كلمة الجمع لا الالتحام، لا لأن ما حدث كان محض صدفة عابرة. إنما لأن الإنسان يبدد عمره باندفاع حار شوقاً إلى حالة دائمة من الاندماج الكامل مع شيء ما، ربما مع نفسه. لكنه يكشف في النهاية أنه قد خاض حرباً خاسرة، أضاع خلالها شيبه ونفسه، وأن العالم ليس أكثر من أصداء تتردد كالنواقيس في كاتدرائية النفس المصدّعة.

الآن. وليس هناك غير صحراء بلا شجر ولا ماء ولا أنس، عليّ أن أكون متماسكا كقديس يستبطن في أعماقه زنديقاً، وأنا أنحدر الهوينا عبر رمال سراية مسكونة بصمت الأصداء ورياح الخماسين الجامحة، الملتهبة.

عندما كانت بقربي في أصياف وشتاءات الأيام التي تصرّمت إلى غير رجعة، كان يخيل إليّ أن حضورها مُتّسِمٌ بخاصية الخلود، ومن أجل هذا الاحساس الخفي كانت المشاحنات تعكر صفاء دقائق الزمن التي حوّمت في سبائنا، دون أن يضع أي منا في نفسه معادلاً سلبياً لذلك الاحساس المتفائل. وهكذا كنا نفرق طويلاً، ثم فجأة على غير موعد نتقابل وجهاً لوجه عبر شارع ما أو بيت، واذ بكل غفران الأرض المُسامح يشع حزناً ولهفة من عيوننا، فنغيب في عناق حار، لذيذ، عاتب.

لقد رحلت. غابت كحلم هاجس النفس في ليلة صافية، ولم يبق غير الطيوف والتهويمات تهتر وتهتر مثل زلزال عميق عميق يرجّ الاغوار السحيقة فترتعش الذرات الباطنية التي فتتها هبوبها السافي الحزين عبر فصول النفس.

هل كانت حقيقة؟ هل كانت وهماً؟ هل كانت ريحاً؟ هل وجدت بأبعاد مادية أم ان الذاكرة هي التي خلقتها ولونتها؟ أم أنها كانت مزيجاً من الحلم والحضور والرمز؟

عندما سألتني: لماذا قلت جدار الزمن؟

قلت: معك دائماً كنت أحس هذا الجدار.

كانت تجلس بقربي على الخوان المزركش ، واذ راحت تحكي عن طفولتها ،  
وحياتها الماضية المتعبة والحزينة ، كنت أشتاف لحمها المحروق بشمس صيف دمشق  
الحار .

مذ عرفتني امتلكتني طفولتها النقية . كان لها شفة سفلى رائعة الوميض ، مومثة ،  
وكان وجهها مسكوناً بالأسى . وهي تحكي لم تكن تسألني ، بدت غير معنية بسماع  
شيء مني . واستمرت تتحدث عن نفسها : الطفولة والمعاشرات اليومية ، والناس  
الذين تخيلوا أنهم عرفوها .

وإذا سألتها فجأة : اسمي . هل أنت حُبلى مني ؟

تابعت تروي حادثة أوشكت على نهايتها كأنما سؤال لم يُلقَ ، وعبوراً قالت  
وهي ترمّ شفيتها : ليكن . سوف أرميه لك ! واستمرت في حديث آخر .

الى ذاكرتي وثبت قصة طفلتها التي رمتها في القاهرة من زوجها الذي مات .  
قلت في نفسي : ربما هي الآن حقيقية أكثر من أي وقت مضى .

قليلة هي الاشياء التي كانت تعرفها عني . وفيما مضى كان هذا الاهمال  
الزجسي يسبب لي أذى خاصاً ، لكن هذا الإحساس بدأ يتبدد بعد أن أدركت  
مركز إصابتها الداخلية . وبعد اكتشاف أن الإنسان يختنق وحيداً في هذا العالم .  
أشياء كثيرة كانت مستورة علمتها دمشق : على الأقل ان ما في رأسي مختلف  
تماماً وان علائق البشر تشبه إلى حد كبير كشيئات الرمل .

شعرت بشيء من السخف وأنا أبدأ الثرثرة عن طفولتي .

كان الحديث قد انتقل إلى المطر ، وبرومانية مبهجة قلت : المطر يخلق  
إحساساً بولادة الحياة بعد موتها في الصيف . لم ثرثرتُ أشياء أخرى عن رنين المطر  
على الأسطح ، والنوافذ في الليالي العميقة ، وإحساس الإنسان الطفل وهو يسمع  
ذلك الرنين .

وقالت : أحب المطر .

وإذ أوغلتُ في الحديث عن أيامي في الأصيف التي مرّت بين قررتي وسهولها  
البحرية ، وأبي الذي مات ، ونخيام الصيف التي كانت تهجع في ذاكرتي ، وتعب  
الفلاحين الفقراء ، شعرت بنوع من الذعر : «ها أنت ذا تتحدث أخيراً عن  
نفسك !»

- تحدثي أنتِ !

كانت تستلقي على الفراش ، رافضة أن تتعري تماماً وأنا متكئ بنصفي فوق جسدها الممدد، أتغلب شهوة لامتناهات جذعي ثديها الصلبين المتقلصين ، الناقرين خارج قبصها الداخلي.

- ثدياك كالطر. قلت ذلك بمجانبة غير مرتقبة. ثم داهمني صمت مفاجئ إثر هذه العبارة غير المقنعة. واستطال الحديث منها.

إنني أذكر الآن كيف كنت أتصباها داخل كهني القديم ، متوهجاً برائححتها التي تشبه رائحة الزيزفون البري ، مدركاً بعد لحظات بأنني مقبل على الانغمار في جحيم جسدها ، مولدين شرارة تشبه الموت الفجائي ، يتصب بعدها حائط الزمن بيننا.

في نفسينا وعبر جميع الأيام ، حاولتُ كسر ذلك الجدار ، أو إحداث فجوة فيه ، نطلّ من خلالها على معنى العالم المناقض للموت والملل ، لكن محاولاتي معها لم تجد. لقد بدا محالاً مستعصياً على الإدراك أن أخرجها من سجنها النفسي ، الشديد الإظلام.

وتابعت حديثاً كانت قد بدأتها عن حياتها. فجأة توقفت ونهضت عن الفراش متكئة بكوعها ، ومن وجهها أطلت شراسة.

قالت : لست أدري لماذا أدخل غرفتك وأنا أعلم أننا سنفترق قريباً.

- هل قلت : نفترق؟

- أجل. قالتها بثقة مطلقة كقرار حاسم بدا أنها اتخذته منذ زمن قريب.

واستطردت : أنت تعلم أنني مطلقة فقط. أليس كذلك؟

- وأعرف أن زوجك مات.

- مات قتلاً يا سيدي. هل تعرف هذا؟ أجل. وأثر ذلك أصابني قرف

لا حدود له من الرجال جميعهم. لهذا كنت أتساءل منذ لقائنا أول مرة لماذا أدخل غرفتك وأنا معك؟

وكما يرّ صنج نحاسي وهو يقرع بعنف ، رنت كلمة القتل في كل بقاع

نفسي. بهدوء سحبت كوعها وأراحت رأسها على المخدة : ولكن كيف حدث ذلك؟

- قتله أخوه بطعنات خنجر من الخلف ليستولي عليّ وعلى ماله.

فوق اللحاف كنا مستلقين الآن. ثلاث مناطق من جسدها عارية، وزندي يحتوي عنقها، ورائحتها تهب متغلغلة عبر مسامي، بينما صدرها المرمرى يجتاحه نذير نشيج.

كانت رائحة الموت الكريهة تنمو على حواف رائحتها المثيرة، وكان واضحاً في تلك اللحظة أن النفس تجاهد لإبعاد رائحة الموت، وان القرف الذي شال وعكّر الصحو الذي كان، قد أخذ على مهل نار جسدها.

راحت عيناى تجوبان بعض مناطق السقف، وصورة القتل تتناوب مع صور أخرى ما عدت أتذكرها بكل تفاصيلها، فقد كانت سريعة الأمحاء فوق سطح السقف الكامد، وكانت تلك الصور تأتي تباعاً وخلالها تظهر «منى» وتختفي، تارة في ثوب العرس وتارة متشحة بالحداد، تتناكبها أكثاف بشر قلقين لا ملامح لهم. ظللت هكذا مسترخياً محدقاً في الصور الغريبة والتي تتوالد بلا أي ضابط، وهي ملتحمة بي تنفس ببطء، حتى غفوت.



- منذ سنوات قررت التلذذ بعذاب نفسي. لم يعد بإمكانى الانتفاء إلى أحد: الحب هيه. قل هل تستطيع أنت أن تحب؟

- قادر أن أحبك طبعاً!

- إسمع لا أريد أن أسبب لك جرحاً. يكفى ما في النفوس من جراح. بالنسبة لي انتهت هذه الحكاية السخيفة.

كنا نجلس الآن متواجهين هي على الخوان وأنا على كرسي، وفي ذلك الوقت كان الرحيل هاجسها الأبدي، ولم يكن يبدو أن موت زوجها هو الذي يقلقها، وتناولت من محفظتها صورة: أنظر. كم هي رائعة!

وحدقت في الصورة. تذكرت أطياف السقف، وأن هذه ربما عبرت وهومت في ذهني. صورة أختي التي ماتت بالربو وهي طفلة وحزن أمي المرير عليها، وتوضح لي أن أختي قد عبرت بين الأطياف: تشبهك. ما اسمها؟

- مسالينا.

- أين هي الآن؟

- في القاهرة.

واستعادتها. ملياً حدثت فيها، ثم ضممتها إلى صدرها: لا أحد في العالم يستحق حيي إلا ميسالينا.

- لماذا لم تأتي بها معك؟

- أخذوها عنوة بعد موت أبيها.

بعد صمت قليل سألتها: هل تشعرين الآن أنك ما عدت مني الماضية؟

وتنهدت. لفت ساقاً فوق أخرى: بل صرت أشعر بلا جدوى أي شيء.

في ساعات الصحو أتساءل: ما نفع الإنسان من كل حياته ومن كل

الإخلاص الذي يُقني عمره فيه. لقد عشت حياة صاخبة عرفت خلالها أنماطاً

مختلفة من البشر. عاشت الجميع في مخادعهم السرية، معهم سرت في الشوارع

وتألمت لآلامهم عندما جاعوا وطُوردوا وسُجِنوا وضُربوا، فإذا كانت النتيجة؟ حياة

طويلة بدت ككذبة. كنت مخدوعة ومُهانة. هل تصدق لو قلت لك: أتمنى أحياناً

لو أنني ولدت خارج هذا الوطن؟!!

بهدوء كنت أستمع إليها، وقد ارتدت فستاناً معرقاً ربيعياً يجبك كلية

جسدها، كانت وهي تحكي تداعب ذوائب حزامه.

قلت مازحاً: فستانك رائع. لكن جسدك أكثر بهاء. هل سمعت هذا في

الماضي؟

في عيني ثبتت نظراتها. وبطفولة مزدهرة، مفعمة بالسخرية، ابتسمت ولم

تُجِب.

كان الناس يعبرون فوق الأرصفة، وكنا نراهم من النافذة، والريح الصيفية

الجافة تحرك أعالي الأشجار.

بهدوء تقدمت نحوها. بين راحتي رفعت وجهها المنكب على الأرض: لماذا

تبكين؟

بين أناملي انسابت قطرات ساخنة. مسحت عينيها بظاهر كني، وبحركة عذبة

خفيفة دغدغت شفثتها: هيا ابتسمي مني. ابتسمي. لست وحدك الجريحة في هذا

العالم.

دمشق لا أروع ولا أحزن. كنبيلوب تبدو في هذه الأيام الحبلى بالتوقع.  
وحيداً أعبّر الشوارع. متفرجاً على القامات وراصداً الضمير التحتي لهذه المدينة  
العجائبية. المدينة الشبيهة بصندوق الدنيا.

ها قد مضى زمن لا بأس به بعد أن طوّحت بقدميك فوق أرض الشام،  
وعبرت تحت الأقواس العارية من الباب الشرقي للمدينة. لقد تمّ الدخول بلا أية  
مراسيم إلى الوطن الذي توهّج زمناً في مسرح الذاكرة.

التحدث عن القهر الداخلي والدروب المتتوية، يحتاج كثيراً من الشجاعة،  
ولأن الأمور ما عادت تسير على النحو الذي تريد، صار الخيط الفاصل بين  
الشجاعة والقبول معرضاً للاحتراق في أية لحظة.

- «المهم أن تحتفظ إلى أكبر مدى بالتماسك واستمرار الرصد بسرية  
خاصة».

بلا أي تخطيط مسبق كنت أضغط بعنف زر الجرس. فجأني وجه مسرور

التابوتي وقامته الحورية: أهذا أنت؟

- ملعون دينك مضى أسبوعان ولم نرك!

وإذ أنهى احتفاله المبالغ، علقت له ابتسامة نبتت على شفتي وأنا أنحدر على

الدرج نحو قبوه.

- مرحباً. ودخلت.

الغرفة رومانية، في جدارها مكتبة، محاطة بأرائك وطنافس. وعلى الجدران

لوحات كلاسيكية، وفوق النوافذ ستائر من طيلسان برتقالي.

- أين كنت؟ سأني.

- في دمشق.

ونهنه ضحكة عفوية لا تعرف الخبث. ثم انفتل خارجاً من الغرفة. ودخلت زوجته.

- هاه... مرحباً. عاش من شافك. كيفك؟  
وسلمت.

ابتسمت. رفعت إصبعي محياً: وسط.

هدلت شفها السفلى الرقيقة وهي تجمع تنورتها الضيقة، وجلست. أمدت يدي ومن جيبي أنتش لفافة. أتذكر أن علي أن أقدم لها سيكارة: خذي من هنا. نشعل لفافتين ويرتفع خيط من دخان.

تعبرني حالة ركود. نسيان خاص. توقع جديد لأشياء جديدة. ويقبل مسرور.

ملياً نتحدث. قليلاً جداً عن الأدب، وكثيراً عن الوطن والثورة والناس. ثم نصمت.

خلال ذلك تتحرك زوجة مسرور قاطعة صحراء الصمت.

رويداً يثقل الجو فيزحف صمت مفاجئ، فيستلقي مسرور بطريقته البدوية ممدداً فوق كنبه عريضة.

- لماذا تتصرف هكذا؟

تقول ذلك بحق امرأة تحب أاثها.

ويرنو إليها هازاً رأسه، ويتسم.

- النساء هن النساء. أقول ذلك بطريقة مازحة.

وهي تتميز غيظاً تقول: أي نعم. النساء هن النساء!

أتبجح هازئاً: لهذا أقول دائماً أنا عدو النساء الحميم. وتقفه فترج ضحكتها العفوية البلهاء في سماء الغرفة: معلوم. كلكم يقول ذلك. وأي منكم يشتي حتى طقات كعوب النساء على الأرصفة.

من البعيد عبر الليالي الدمشقية الساحرة، يوقع رنين خاص. ضربات موزونة: واحد. اثنان. واحد. اثنان. وأنت وحيد تعبر في سحر المدينة وسكونها الجليل على إيقاع الرنين يستيقظ توحدك وحنينك لسرير دافئ فيه امرأة سخية كالطر. حلم. مجرد حلم.



إذ تعود ديانا حاملة القهوة تمّحي الصور التي عبرت. أقول: هو زوجك الذي يشتهي، أما أنا فأترفع عن هذه الكبائر.

وترمقني وهي تقدم القهوة: أنت طبعاً لا. ني مرسل.

وأنده: ليتني ني مرسل. كان للأنبياء أكثر من أربعة نساء و... ينهض

مسرور من ضجعته وهو يقهقه قبل أن أتم الأعداد العشرية: ملعون دينك. لا تكفر يا أخي في هذه الأيام العصيبة.

أقول وأنا أمجّ سيكارتني: مسرور. هل نسيت أنك ثوري؟

فيسأل: وهل الثوري كافر؟

- الثوري علمي.

وترتفع الضحكات.

منذ أشهر تعارفنا. حدث ذلك إثر زواجه من ديانا، وبعد أن تحولت دمشق

إلى محطة ثابتة للذين هاجروا من حيفا وانطاكية، والذين قدموا من الصحاري

والجبال فجر ذلك اليوم.

أقسى الساعات صيفاً في هذه المدينة، من الثانية ظهراً حتى الخامسة.  
ساعات الزمن الميت. خلالها تحس بارتخائك العضوي والنفسي، تكاد تخرق نقي  
عظامك حرارة هذا الصيف الجاف، وأنت تنسحب فوق الأرصفة مثل جثة أنتها  
العرق والضجر.

كل شيء مكروه ومُعاد: الناس والأبنية، أصوات السيارات وواجهات  
المخازن. وأنت.

وحدمن النساء يشعرنك بالطراوة، يخفّفن من وطأة هذا الجحيم الخارج من  
الأسفلت والجدران وضوضاء السيارات.

رائحة مني تلفحني عبر الهواء الساخن، أشم رائحة جلدها من اندياح عرق  
ابطيها. متجاوران في الباص وساقانا متلاحمتان، وحوار خفيف سرّي، غامض  
ولذيذ، تحدّثه الساقان مع حركة الباص الرتيبة.

- فرحٌ لأننا معاً. أهمس لمني. وبتساؤل عينين طفليتين تنظرُ إليّ، وتبتسم.  
أشعر بأنها لم تلتقط ما قصدتُ إليه. أوضحُ لها باقتضاب أن الحب في بلادنا لصّ  
يتوقع المداهمة.

وتضحك ثم تعقب: ولكني الامسك بلا خوف. هل تريد أن أقبلك داخل  
الباص من أجل التحرر والتقدم؟

أرفع حاجبي كرد فعل مباده. أتذكر حركتي فأعود لأرسم مشروع ابتسامه.  
إذ ذاك تمتد أصابعي وأقرصها من فخذها فتنهه بداية ضحكة تقطعها قبل أن  
تتكمّل. تهمس: سأنده. يا عباد الله يا غيره الدين. هذا الفاسق يقرصني!

- إياكٍ وحق شجر السبكي والكهف لو سمعوك لرجموني.

ومن أعماق صدرها تخرج ضحكة حقيقية . يطفى الفرح على وجهها فيورده .  
تباعد ساقتها اليمنى : إياك أن تلامسني هاه . نحن شريقيون والبنت قيمتها بشرفها .  
أسألها مازحاً : هل باستطاعتك أن تشرحي لي أين يتمركز السيد الشرف؟  
مواربا أحرق في حضنها كأنما بسمة على وشك الانفجار . بعينين خجلتين  
افتعلت ملامحها تنظر نحوي : أنت إنسان إباحي . أخلاقك مشبوه فيها ولهذا هددوك  
بالطرد من وظيفتك .

- وأنتِ يا مجدلية العصر؟

بحرارة تتحرك في المقعد ، تكاد تثب عنه ، تمس كأنما طعنت . تدافع بحمية  
امرأة شرقية تقمصتها فجأة : أنحداك . العربية الحرة تموت جوعاً ولا تأكل بثديها .  
- إسمعي لا جوع ولا عطش ولا بطيخ . الجنس ألح من الظمأ والجوع ،  
والتي تتحدثين عنها خرافة صحراوية انقرضت . في هذا العصر وجبة وستان بروكار  
وعلى الشرف السلام .

وفي جيب أسل أصابعي فتصدم مفتاح البيت . ألوح به أمام وجهها . تستبشر  
عينها : هذا لي . هاه؟

- مرحباً يا عربية حرة . وتنفجر ضحكتانا . وإذ تخطف المفتاح ، تكون غيمة  
المزاح قد ولت .

عبر زجاج الباص يلوح حي السبكي الضيق . عربات الفواكه والخضار ،  
حوانيت البيع المتلاصقة ، وبائع العرقسوس ، وبيتنا القديم .  
- وأنا أعبر هذا الشارع في غيابك يغمري حنين دافي .

بين أصابعها تفتل مفتاح البيت الجديد ، ثم تدسه في حقيبتها : لم يبقَ منه  
غير الذكريات .

- لو نعود!

ويجتاز الباص الحي الهاجع في قرارة الذاكرة .

[ ]

الماضي . ذلك التوق المغمم لم يبقَ منه سوى الروائح . تهب الآن خارجة من أعماق  
بحيرة الزمن ، راسمة تموجات أثرية فوق سطح النفس . أي ألم خاص يحتاجك  
وأنت لا تستطيع خلقه من جديد بعد أن تصدع!

غير أن الأسئلة تبدو غير مجدية، ولا الحشرات. لقد انكسرت فقرة من فقرات العمر. تمّ رسم ذلك في فصول متعاقبة.

الفصول التي تلتهب فيها الأزهار لم تذبّل ثم تسقط، ولا شيء آخر. الغرفة باردة وصغيرة تحتوي سريراً وخواناً وطاولة حديد عليها بعض الكتب. بعد أن تناولت شيئاً من الخمر ارتيمت على السرير وفتحت الراديو منتظراً قدومها.

ولا أخفق للقلب أو أرهف من انتظار امرأة في غرفة ضيقة. الزمن يشبه قنصاً متزويماً في مكان ما، ربما في الحركة أو الصمت أو في وقع حذائها على البلاط، وربما في جيب من جيوب الرأس. وأنت مرهف كحدّ الموسى تسمع دوي اللحظات، تكاد تلتقط ديبب نملة تعبر في الخارج أو الداخل، وحول نفسه بعد أن اختزل العالم وتقلّص إلى غرفة معزولة كالبحر، يدور الوقت. هنيهات تومض، تحسّ أنك تعبر أرضاً ملغومة والانفجار متوقع في أية ثانية. وفجأة يدوي، ينفجر ممدداً من رأس المفتاح الذي صدم القفل الآن إلى رأسك.

إذ ذاك ينجلي كابوس الزمن.

معها يدخل فرح العالم. تبدأ الجدران والأرض والسرير مزهوة بوجودها.

- إنهض لا تغاف. الوقت قصير.

وبعنف تهزني من كني، رامية اللحاف نحو الحائط. أتململ فأراها واقفة على أرض الغرفة. بحبوية تتحرك. تقلب الكتب. تدير إبرة الراديو. تشعل لفاقة. وأخيراً ترتمي قربي: أرسلتك أمك من الضيعة إلى الشام لتنام؟

أطوقها فيقع ظهرها فوق صدري، أطوي رأسي وأغمرها بقبلة: متى تنتهي هذه المطاردة الزمنية؟

- هيا. هيا. لا وقت لدينا. تتخلص من ذراعي وتبدأ طقوس التعرية.

[]

- حلمت يوماً أن نلتقي ليلة بكاملها مني!

- لماذا؟

- في الليل أنت مسرة عذبة. جسديك ضوء. والليل في غيابك بارد مخيف.

- أخاف الغروب!

- بل تخافيني. أشعر بك تتزلقين مني كسمكة في بحر.

وتصمت.

- هكذا أنت لا تبدلين.

- ماذا تعني؟

- عندما نحاذي حافة جروحنا الداخلية نهرين. يخيل إليّ أحياناً أن العالم في رأسك مشدوخ يشبه أرضاً شققها صيفٌ قاس.

وتضحك.

- لماذا تضحكين؟

- لولعك بالتحليل السخيف.

- كيف نفهم الآخر؟

- ولماذا تريد أن تفهمه؟

- كي أعرف طريقتي إليه.

- لا تتعب نفسك. حلق كطائر في أية سماء واسقط فوق الشجرة أو الأرض التي تختارها. إزرع العالم بجناحيك لأن الزمن يتقدم لاختطافنا.

كانت تهرب عندما نوشك على الدخول من بوابة المدار المفقود بيننا، خائفة أن يرى أحد ما دخيلة نفسها ويطل على جراحها.

نزلنا من الباص. طوقتها بذراعي ونحن نعبّر شارع أبي رمانة. كأرنين كنا نذب، أصابعي تتزلق تحت ثوبها وتدغدغ ظهرها الأملس، والناس يعبرون.

لم تقل شيئاً. واجترينا الشارع. صرنا في في الصفصاف المدلى فوق بردى. وفجأة قبلتها خطفاً. كان الظل الذي تغلغلنا فيه قد أثار رغائبي. ضغطت خصرها النحيل، وتجاوزتنا سيارة مرق نورها على وجهها. انعطفنا في الشوارع الشحيحة الضوء، وبين حين وآخر كان عابرون يمتازوننا، ولم أفك الطوق عن جسدها الملتحم بي، وبدا ذلك لذيداً وعذباً، يعطي إحساساً بالملكية رغم التوجس من كلمة: دعني.

فتاتان أجنبيتان مرتا. قلت: هما فرحتان لا شك!

- من؟

--الفتاتان وهما ترياننا مطوقين. هكذا العشاق في بلادهم. حب في وضوح النهار والليل.

زفرت ضيقاً: لا تقسر نفسك بشئ من أجلي. وحاولت التملص.  
في التو سقطت ذراعي، كأنما أصيبت بطلقة.  
دهمني حس الانخفاف والعودة، فكابرت. كنا نسير بعيدين قليلاً.  
- منى...! وتوقفت.

في الظلال كانت تسير، وحيدة، لا مبالية. لخطواتها إيقاع بطيء مكسور.  
وددت أن أمزق الظلال والحزن بصوت يرج المدينة: لماذا أنت هكذا؟  
لكني قطفت ورقة خضراء، فركتها بعنف حتى صارت كذرات الرمل.  
فردتها على سطح كني وقذفتها في الفراغ المظلم.  
استندت على ظهر جدار، فأحسست شيئاً في نفسي يتهاوى، فتهاويت ببطء  
على الرصيف.

- «التكوين الإنساني لماذا هو معطوب؟ أين يكمن الخلل في تلك الخلايا  
البشرية التي تبدو محصنة ومستورة؟ ثم أنا لماذا أسقط هنا بالذات أمام مخلوقة  
اشتيت قبل لحظات الانفراد بها تحت سلم عمارة مظلمة؟»  
كانت الآن بعيدة. وراحت تتباطأ. فجأة اتكأت على جدار بعيد في ظل  
غبيضة باسمين.

ضممت إحساسي، وسرت منكفى الرأس أعدّ مربعات الرصيف، مصغياً  
لخطواتي وهي تدق إيقاعها المتعب. حاذيتها. تحللت مقاومتي، وفي جسدي سرى  
وجع شهوي غفور. وكبرق، اجتاحني احساس اقتيادها والغياب في ظل ممر قريب.  
فجاني صدرها الذي كان يجهش فانطقاً البرق.

تلوح دمشق وجعاً متشعاً بالأسى يغطي سهول النفس ، ينعكس على وجوه الناس وعلى الأيام التي مضت . يخرج من العلائق الثابتة بين الآخرين وفوق هذا الوطن المخضب .

أي جيل موسوم هذا الذي ارتدى هنا ، فوق أرض تمخض قبل أوانها : بالثورة ، والفكر ، والعشق المراقب ؟

تُرى كم هي المسافة النفسية بينه وبين ما يريد ، في وطن ما يزال منشداً نحو تراثه وارتكاساته القبلية والدينية ؟

سمه ما شئت . هذا الطالع من كهوف العالم القديم ، تحت شمس العصر الجامع الذي سبقه ، مطلوب منه أن يستشهد أو ينسحب .

في الحالة النواسية بين الشهادة والانسحاب ، كنت أقع . وفي هذه النقطة الحرجة كنت أبحث مع منى عن شيء آخر في دمشق . وقط لم أكن أبتغي مجدداً .

وفي دمشق كنا نحيا معاً في ذلك الزمن . كنا عاشقين من نوع خاص . وقبل أن نستيقظ من رومانسية الصلة التي توهمناها راسخة ، فامتدت شعيراتها الماصة إلى أعماق تراب النفس ، كانت دمشق ما تزال تحت ملاءة الكشف . نظرياً كنت أتصور أشياء غامضة عن المدن المركزية ، حيث العالم يجيش بالعظمة والمعاناة والفهم الخلاق . وعملياً كان الريفي المقيم فيّ ، يبدو في وفوده على دمشق مذعوراً ، صغيراً ، لا يعرف بعدُ كيف يعوم .

بين هذين التصورين كانت أرجوحتي تتحرك ، محاولاً أن أعرف ما أجهل . أن أصل إلى التوازن والسكينة الداخلية التي أنشدها من خلال ازدحام نوايا العالم في رأسي .

وإذ جلسنا إلى طاولة الخمر في النادي الصيفي، شعرت بقربي من تلك  
النوايا.

كانت خمرتنا العرق. ووجهانا متقابلين، وبيننا كانت الحرية. ولما رشف قليلاً  
من الخمر قال: عيناك نفاذتان.

وقلت: لكن وجهي كما ترى يحمل نعشاً.

وإذا كبا وجهه فوق الطاولة ليقطع الرغبة همهم: كلنا محمولون. وانقض على  
الطعام كنمر مجوع.

- غريب!

رفع وجهه سائلاً.

- إنك تأكل مجوع من يرى الطعام لأول مرة في حياته. من يراك الآن  
لا يصدق أنك أديب.

غصّ باللقمة وهو ينفجر بضحكة مفاجئة وسعل: الأديب لا يأكل؟

- بهذه الطريقة؟ غير معقول!

- على أية حال أنا لدي جوع دهري يعود إلى الطفولة. قل لي يا غاندي  
العرب كيف تنظر إلى الأكل؟

أقول: مهمة قسرية ينبغي إنجازها بسرعة.

يردف بشوشاً: بكفي تصوفك بمنى. هل وصلت صوفيتك حدود الأطعمة  
أيضاً. الأكل كالمرأة ينبغي الإقبال عليه بالشهية ذاتها يا قدوس. ألم تقرأ كيف كان  
أبطال هنجواي يقبلون على الطعام؟

وامتعضت من هذا التشبيه السمج. لكنه استمر يناكد: الطعام. الطعام.  
مذكور في القرآن والإنجيل والتوراة من الأسماء الحسنى. صلوات الله عليه، وعليه  
السلام، وكرم الله وجهه، كانوا يقبلون على المائدة كما يقبلون على الصلاة والنساء.  
أشعلت لفافة وناولته فرفض: مع الخمر والطعام السبكارة تستر الشهية.  
وتذكرت مزاجه الحاد.



تلك الليلة الغريبة. كم تبدو الآن بعيدة لا بالزمن الموضوعي الذي مرّ إنما بقسوة الأحداث التي انشروحت في رأسينا. شظايا من الزجاج تتراكم جارحة مسننة على طول درب الزمن بين دمشق التي كانت، ودمشق الآن. انهار في وضوح النهار نمّ بلا استئذان.

كان وجهي ينضج بالبشرى وأنا أواجهه، وكان هو شبيه طفل سُرح من بيت حُوصِر فيه منذ وقت طويل، فانطلق عبر مرج من الأعشاب والزنابق والفراش. بجوية لعب وضحك واحتسى محمراً، وإذا اكتفى سرحنا في تلك الليلة. ذلك السريان الليلي الخدير يحتاج الخاطر الآن، يختلج كقصيدة دندن المقاطع الأولى منها على أنغام شبابه التي شجّت وانتحبت عبر غربة طولها بطول العمر كله.

لم يكن القمر قد سطع من خلف التلال القائمة من الشرق، لكن النجوم راحت تتوهج بكل طفولتها. كانت القرية قد هجعت كقتيل متدثرة في تابوت الصمت خلفنا. ونحن ندبّ على الدرب المقفر نحو البراري؛ لم يكن يسمع غير صوت الخطوات والصرير المتواتر لجنادب الحقول، وذلك الندب الرائي للناي.

كنت أعتقد أنه مسحور بالعالم الغامض الذي أحاطنا بالأشجار الكثيفة وعم الوديان، وبين آن وآخر كنت أتوقع كلمة ما تحرق صمتنا الذي امتد طويلاً وسط هذا الظلام الأصم.

كسهل أسطوري ونحن نرتقي هضبة مظلة، فجأنا البحر. أماننا استوى، متوجاً بكل المهابة والاسرار كإله لا نهائي واثق متفرد، وخلفه أفق مسدود.

في الظلام شبه المضاء لمحت عينيه منفرستين في ذلك السهل المرتاح هناك. حرفاً واحداً عن ذلك العالم الطقسي، لم ينبس. وإذا شعر بأننا قد صرنا وحيدين التفت الي: هنا لن يسمعنا أحد طبعاً؟ وابتسمت: إلا البحر وهذه السكينة. وأفضى بالسر.

كل ما أذكره في تلك الليلة أنّ الدهشة امتزجت بعدم التصديق. كان بودي أن اصرخ وأبكي وأسأل. لقد ولد في داخلي شيء خيل الي انه مات منذ عهد قديم. اليعازر من جديد يبعث: الثورة على الابواب إذن!

- الشمس تشرق من جديد كما يقول بابا همنجواي. هاه. احفظ لسانك وصنهُ حتى يأتي ذلك اليوم. هكذا تقول تعليقات الحزب. بإمكانك أن تسرّ للبعض. أنا متأكد انك فرح.

- من كان يصدق أن محترفا للحزن مثلك يأتي بكل هذه الغبطة القائلة ويقذفها هكذا فجأة. اجل انني فرح يا عزيزي. فرح ومسحور كهذا البحر ولكن...

- اعرف. اعرف. كنّ متأكداً واحتفظ بالسِر. هذا يكلف غالبا.

بعد أن سرنا في طريق العودة انحلت عقدة المفاجأة والدهشة. سألته كيف صمت كل هذا الوقت. كان قد اكتسى حالة مريحة بعد انكسار طوق الصمت، فبدأ منشراحاً وأفهمني بأنه كان سينفرد بي في نهاية السهرة بعد أن تكون صبايا القرية وشبابها قد ناموا مع الدجاج. واذا سألته: لماذا أضفت شبابها؟ قال ضاحكاً: تمويهاً يا كاشف الأستار. العياذ بالشيطان من نواياك الإبلسية.

في البيت كان الاصدقاء ينتظرون عودتنا. لم يبال بهم. سألوه بعض الاسئلة فأجاب بشكل فظ وأردف: معذرة أنا نعس ومتعب. على عجل ارتدى منامته واستلقى على السرير. شبك كفيه تحت رأسه وراح يحدق في السقف. بعد حين تناول الناي. توحد معه ورمى بالآخرين في قاع النسيان. لقد تصرف في تلك الليلة كممثل يُتقن دوره تماماً.

كان النادي محتشداً، وفي عبّ الأشجار المنتشرة على حوافه علقت مصابيح كهربائية صغيرة بألوان مختلفة راحت الريح تهزها، وفوق الأشجار انفسحت سماء مضاءة.

أفصحت له عن رغبتني في التعرف على المثقفين، فأنا أسمع عنهم وأقرأ لهم فقط. فقال وهو يلكز الزاوية اليسرى من فمه: سريعاً ما تملّهم. أنايون وعدوانيون ومنقسمون. دعك منهم.

قلت: أنا لا أعرفهم. وابتده غامزاً: لكنك تعرفني.

في الايام الاولى من تعارفنا توجست منه. كان لا يُجارى في المباحكة والقدرة الخارقة على اصطفاء الكلمات، وكان يمتلك طاقة خاصة للنفاد نحو الداخل. منذ الدقائق الاولى للقاء كان يجهد في استقطاب قراءاته وتجاربه ويبدأ لعبة التحليل.

وسواء أكان مصيباً أم مخبطاً فسوف تسمح له وتنكش أمام طغيان أحكامه المتميزة.  
كان في صوته وطريقة حديثه رنين مقنع يرغم على الاستجابة له.  
بعد أن انتهى من الطعام مسح أصابعه بقطعة خبز. تجشأ وهو يتناول لفافة  
وطلب ان أشعل له. سأله لماذا يتيم المثقفين على هذا النحو وهو منهم ، فهز رأسه  
قائلاً بأنه لا يتيم أحداً وان المثقفين في البلدان المتخلفة يعيشون عالة على المجتمع :  
حفنة ثرثرة تتحدث في النظري بعيداً عن واقع وآلام الناس. القراءات الضحلة  
حولتهم الى ممثلين كاريكاتوريين وأدعياء يرون العالم من أعلى. أنا لا أدينهم ابداً  
فقط أشرح حالتهم النفسية وانا أهوى علم النفس التحليلي ، هذا كل ما في الامر.  
قلت : وماذا عنك ؟

واخترقني بعينين فيها بريق غريب ، ثم انخطفت عيناه مغطياً ارتياحه بضحكة  
تحمل ايقاعاً مؤسياً : نخبك . ورفع كأسه . بعد امتصاص الخمر امتعض : أبة خمرة  
ردية وسامة هذه !

- العرق أقل المشروبات مضايقة في النهار القادم.
- منذ متى تشرب الخمر؟
- بالتحديد لا أذكر.
- تبدو سكيراً أصيلاً.
- بالوراثة ربما.
- هل كان يشرب الخمر؟
- بالخمر مات. ظل يحتسي الخمر طوال أربعين عاما حتى تسمم الدم.
- كان خائباً في حياته لا بد!
- اذكر له كلمة لا تنسى : حياتي ليل طويل لا فجر له . سأمت ولن أرى  
يوماً أبيض قالها منذ زمان طويل في خيمة قرب البحر. يومها كنت صغيراً لكنها  
انحرفت في ذاكرتي كموته.
- يبدو أنك ورثت ذلك الليل. وأردف : حياة الانسان في العالم - كما يقول  
ماكث - حكاية يرويها أبه مليئة بالصخب والعنف.
- كانت الجلبة في باحة الحديقة تزيد ثقل الجو المحيط الذي طوقنا ، واقترحت  
أن نخرج الى الشوارع هرباً من هذا الضيق.

في شوارع دمشق المضاءة والمعتمة، ترنحنا قليلاً نحدث، وكثيراً بدت الجهمامة والاسى في روابي وجهه المحروق. وبشبابته توجع بأحزان دمشقية سكنته منذ أيام الجامعة.

كان يسير قربي، لكنه كان وحيداً كفصن مقطوع من شجرة ماتت. ولكنه كان عاشقاً.

- عندما تصبح المرأة وطناً ورواية وأماً. بكآبة رمى جملته في الفراغ. وهو ثمل بأحزانه، ووجع خيياته الماضية التي ركمها الزمن داخل كهوفه.

- وعندما لا تطال ذلك الوطن!

كان السكون يوشع دمشق. وانعطفنا عبر الازقة الضيقة.

مذ نال شهادته الثانوية فقد بيته وهاجر. حتى الاصدقاء والمدن ظلوا غرباء. وقليل من الامان نما في نفسه، وقليل من صحابه ركن، واحتوته المدن الغريبة، لكن دمشق ظلت عشيقته السرية التي لا يطاقها. كانت موئل حكاياته القديمة، والمدار الذي يصحبه بعيداً عن وطن طفولته بعد أن ماتت أمه وانطوى أبوه في تراب الذاكرة.

- مذ ماتت وانا أعشق جميع النساء بحثاً عنها. نادراً ما أرى أحلاماً، لكن جميع أحلامي كوايس.

- هل تراها في أحلامك؟

- دائماً أرى نفسي معها.

- وامتد صمت. قطعته: لماذا يحدث ذلك؟ أنا أيضاً ما أزال أرى أبي الذي مات منذ أربعة عشر عاماً في أحلامي. وقال: أرى نفسي داخلاً فيها.

- وأنا أراه ينهض حياً ويعود إلينا. نادراً ما أرى أمي.

- ربما كانت أمك سيئة. أما أمي فكانت ملائكة.

- وابوك؟

- كان اصماً.

ليالي دمشق مرايا وأشواق ومكمن أسرار. بعد الثانية عشرة يهني صيفها  
الباسميني العليل، فيورق الجسد بالحوية والحركة، تتظلل النفس بالاسى وبعشق  
وهي منتظر، يشيل في النفس شوقاً لامرأة وحيدة في غرفة يانعة بالضوء الباهت  
ومسرات الجسد. حلم. مجرد حلم.

ها هم يعبرون. يترنمون فوق الارصفة وفي عرض الشوارع. مخمورون. عشاق.  
مقامرون. وحزاني، يضرمون النار في هشيم الزمن فيتألق ظلام دمشق بالذكرى  
والوجع السري.

- دمشق مدينة الوجع.

- دمشق مدينة الف ليلة وليلة.

وانفتل نحو بيت اخيه.

سمعت خطواته تدق الدرج بايقاعات موجعة، بينما كنت أنكفي وحيداً نحو  
غرفة «امينة».

ثلاث نقرات على خشب الباب الموصد. أن السرير ثم خمد، ووهنت  
خطواتها الفرعة. صرّ الباب بوجل، وزمقت في العتم. عانقتها والخمرة في رأسي  
وهج ودوار.

ضممتها بقوة فانطوى لحمها مضغوطاً تحت وطأة جسدي. تحت ثوبها الليموني  
الناعم، بحركة غريزية، أدخلت ساق اليمنى، تخلصت من وحشيتي الشهوية،  
وابتعدت قليلاً وهي تهمس: لم ينم بعد. على مهلك.

- ما زال ساهرا يشرب؟

وأومات برأسها، ثم قادتني نحو الخوان الملتصق بالجدار. جلسنا متلاصقين.  
لحمها الطري تحت يدي، وفي الظلمة انطلقت كلماتنا الجحونية: كالمعتاد أنت مخمور  
أبداً.

وقلت: أحترق شوقاً اليك.

- دائماً في جسدك حريق.

- ما ذنبي إذا ما كنت شهية كفطر البراري يا أميرتي الجميلة.

وقرصتني مبتسمة بعدوبة من تتلقى عشيقاً في أواخر الليل، لن يلبث أن  
يلهب جسدها الغافي الحزين.

- انت شهواني .

- وأنت مثيرة .

- تلتذ معي ؟

- احس بالموت .

- وبماذا تشعر ايضا؟

- بدوران الارض واهتزازها .

- وبعد الدوران؟

وضغطتُ ما بين ساقيها مبدداً الجواب . رفعتها ومددتها على الخوان . همست  
مُخرجةً وهي تلتفت نحو السرير : انتظر ما تزال مستيقظة؟

كانت ابنتها مستلقية على طرف السرير وقد دفعت اللحاف وطوته تحت  
قدميها ، مستديرة نحو الجدار كأنما تفسح لنا عن غير ما قصد .  
- خائفة .

- متى يرحل خوفك؟

- اخاف حتى الموت . عندما نتزوج تصبح حلالي وأماني .

بعيداً أوغل اصابعي . أدعها تسوح عبر مروج حريرية عذراء ، ويدي  
الآخري اجمعها صوبي ثم أغور فيها . كلها ملكي . كذلك الليل والعالم . في جميع  
ذرات جسدي يرتقي شوق طبيعي يطلب التلاشي . كنت مسحوراً معمداً بالبهجة .  
مركزاً في هذه اللحظة التي تشبه الغياب المطلق .

وما كانت تملك مشيئة .

منذ عامين سقطت ارادتها في بيت آخر قائم في الضواحي بين الاشجار  
والنهر ، عندما ودعتني الى الباب .

في تلك الليلة قبلتها فقط ، بحمي متوحشة على فمها وعنقها ووجهها وخلف  
أذنيها وبين ثديها . وفي ذلك المساء عرفت أول ذهول جسدي كما عبرت فيما بعد ؛  
بقيت اسبوعاً مدهوشة لا تصدق ما حدث ، وفي نهاية الاسبوع استفاقت عارية بعد  
ان اعطت جسدها ونفسها بجمرة امرأة لها زوج مخمور مسن ، هجرَ مخدعها منذ  
اكثر من عشرين عاماً .

على الارض مارسنا الجنس الانساني العذب ، وكامرأة مهجورة ، جسدها  
لم يتفتح بعد ، كانت حارة وحيوية .

في الغرفة المقابلة كان زوجها يسكر ويسعل. نور غرفته يرمي رشاشاً من ضوء  
نعس نحو غرفتنا.

□

وغبّ جميع الليالي التي جمعتنا، كنت اشعر بالذنب. لا لأنني اعطي  
جسدها المهجور الغبطة والحياة، انما لانطفاء حبي لها بعد موت الحيوان الناغل تحت  
جلدي.

وفي القرارة ما كان هناك أي اثم ديني رادع؛ كنت أبقى كحجر بعد أن  
نتهي، احدثق في فضاء الغرفة والظلام، والطفلة النائمة، ثم أنعطف الى نفسي،  
كأبجاً رغبة لعينة تهب بي أن اهرب عارياً في شوارع المدينة، بعيداً عن هذا  
الاسترخاء وعن هذا الزمن الذي تمجّر بيننا.

واذ اعجز، يصرخ بي وجع غاف: لو نعود الى الثواني الاولى، الى لحظات  
ما قبل الموت. ونظل هناك!

في صمتي وبعد ان تمحي اللغة على تخوم الجسد، تحضر مني، فيطل ذلك  
الانهدام القائم بين عالمين متنائين عطبها الكوني عصي على الرأب. تتحول الاسئلة  
والحوارات الداخلية الى نوع من صكوك الغفران والتأنيب.

هي ذني رم العالم القديم، والشموس الجديدة، وروائح القيم المضادة  
للرغبات، تحاول ان تطل من مداراتها، فتتحول النفس الى ساحة حرب.

أنت تمدعها اذ تقول لها: أحبك؟ وأنت تود أن تقول: أنت ثأري  
الخاص. وبطفولة امرأة سحقها الزمن، تحكي لك انها هجست بك منذ اعوام  
طويلة. منذ دخل البرد والوحدة وهجما في سريرها. وانها كانت غريقة تفوص نحو  
القاع يوما اثر يوم كحجر منسي، وفي الاحلام كانت تراك مقبلاً عليها فاتحاً  
ذراعيك لتضمها الى صدرك العاري وتسحبها نحو سطح الحياة، الى الدنيا المضاءة  
بكل افراح الانسان.

- كنت احس انك مسافر ولا يدّ أن تعود.

- أنا؟

- أجل انت بلحمك ودمك. عيناك نفسها وشفتك وصوتك الدافي.

وتمسح وجهك بأصابعها الرقيقة، تغلغلها في الشعر والصدر، ثم تمسح

وجنتيك وتمس: حبيبي متى نتزوج؟

كالصفحة يهوي السؤال. اسأل مني السؤال نفسه فتصمت تدير ظهرها وتمضي.

لحظات وأتخلص من طوق ذراعها، ومن اصابعها الهرمة. أتجه بهدوء نحو الباب وهي تودعني. خطواتنا واهنة والليل داخل جسدنا خرابة مهجورة: قبلني. مع الجسد كان الحوار. حدث ذلك تعثراً. حرف واحد لم يكن له معنى بعد طقوس الخرق. ولو قلت لها الاصحاء وحدهم المؤهلون للزواج ونحن عارض مرضي، لاعتقدت اني اخاتل هرباً منها.

من اجل ذلك استمر احساس الخيانة وتعمق الاثم. وعلى مدى الزمن ظلت مني وريثة الله في أعماق نفسي وظلت أمينة الجرح.

□

وفي زمن ما كانت أمينة صبا مشرقا كشمس تولد في صباح شتوي. كانت تموج برغبات تنزع لتسرح تحت الشمس: تخرج مني شاءت. ترتاد السينما والبراري المعشبة. تحب من تتقيه في الامامي والنهارات في الشارع والمقهى، في غرفته الخاصة وفي بيتها. واذ تعب منه وتضجر، تهجره وتبحث عن مسرة اخرى. لكن أمينة كانت تعيش في عالم يراقب بصيص عينها، ووقع قدمها، وتسلسل خصلة من شعرها خارج حجابها الكالحو. طفلة سقطت خطأ في بيت متعصب يوما، في وطن متعصب، وكان الرعب الذي ساح مع دمها منذ الطفولة، هو الرجل الذي صوروه لها. الرجل الذي يفترس الطفلات على دروب المدرسة وفي البراري والسينما. لذا كان عليها ان تتوارى داخل بيت ثقوب نوافذه كخرم الابر، توصوص منها في ساعات الغفلة بانتظار بعلمها الشهم.

وقالت: عندما نموت وأفعمت الرغبات الصغيرة جسدي ونفسي، اختارت لي أمي زوجا يزيدني عشرين عاماً. رجل تافه، غبي يعاشر العاهرات، ولا يعود الى البيت إلا ثملاً.

وتضيف: لم أعرف اللذة الا معك. ثم تردف عبارتها بضحكة ماجنة تخرق طبقة الحياء.

وأقول: في البدء مانعت

- حياتي حبل من خوف.

- لكنك امرأة بديعة التكوين.



- زوجي حمار.
- لماذا لم تفصحي مذ غرفتي؟
- المرأة لا ترتني في حوض رجل ولو عبدته من الوهلة الاولى.
- ولكن لماذا لا يتخطى الانسان خوفه اذ يرغب؟
- المرأة هنا لا تستطيع وانت تعرف هذا.
- أليس الحرمان أقسى من جحيم الخوف؟
- دائماً كنت أرى عين والدي والني تراقبني.
- وقلت : ما الذي كانت تقوله؟
- الحرام.
- اليس حراماً أن تموت حياة انسان مثلك في مغارة مظلمة ليس فيها غير الاصطبارات والالم؟
- الدين يقول ذلك.
- والانسان ماذا يقول؟
- الله يقول : اياكم والغواية انها من عمل الشيطان. امي علمتني ان اقرأ آية الكرسي عندما يوسوس لي الشيطان.
- وهل كنت تنامين بعد ان تلعني ذلك التعس السيء الحظ؟
- تضحك. واذ أسأها ان كانت تعرف من هو الشيطان؟ ترفع كتفها نفيًا : لا أدري !
- انا ادري. من سجنوك وقوسوا حياتك وحرفوها عن مجراها الطبيعي هؤلاء هم الشيطان. اعني اسرتك المحترمة ورعب النبي.
- انت شيوعي كافر. وتضحك بخوف باطني.
- أهمّ بها حاضناً جذعها العلوي. أضغظه بعنف. وانا ألتحم بها أودّ لو أقول لها شيئاً عن سوية الصلوات البشرية والحرية التي تنبع من الداخل وتعطي الوجود معناه. لكنني ادرك أن مفردات اللغة بيننا هي محض حركات عضوية موقوتة.
- انا ارغبك وهذا كل ما في الامر. وأهجع جوارها.
- في غرفته انطفأ النور فانتبهنا. وعلى غرفتنا الموسومة بالحرام، خيم عثم له رائحة الخيانة. في الظلمة بدونا شبحين. توقع خوفها ان يطرق باب غرفتها، وخيل الي انني اسمع خفق خوفها الراعش. على الباب وقفت منصتة لصدى الخطوات. كنا مصلوبين على خشبة الصمت في حركة الزمن القلق.

مضت لحظات كحّ خلالها بصوت مسموع. ثم خمدت الأشياء وغاب الخارج.

في الظلام التام، داخل ليل دمشق الرخّي، عامّ البيت. كالحجارة كنا نفوس في بحر الليل، فجأة دقت ارض الشارع خطوات قرب النافذة. تنصتنا. راح صوت الخطوات ينأى.

وبحذر شقت النافذة المظلة على الشارع ثم أغلقتها: الحارس الليلي. قالت الكلمة بهمس.

فوق رشاش الضوء الشحيح المرتمي من المصباح الاحمر، وقفت. وبحركة أمان وشوق جديد ازهرا فيها، رمت ثوبها. كانت تقف الآن في رشقة الضوء. جسد ثلجي مرشوم بالظل والوهج. كان الجسد ينادي الآن.

وبحيوانية دافئة، تمددت على مسار الضوء، فوق سجادة الغرفة، وراحت تتلوى وتتن.

قالت النفس وهي تقبل: «هي ذي المرأة الشرقية المزدهرة في ليل عبق عندما يسكن خوفها التاريخي وتشتعل.»

قد يكون هذا حلماً أو حقيقة، لا يهم. زمن العربي يمضي بينهما. لكن السؤال الابدئي الملح: لماذا نولد ناقصين؟ واذا لا نجد جواباً، نمضي عبر دروب ملتوية، حافلة بالانكسارات، والشكاوى، وايقاعات الائم.

خلال ازمة متعاقبة، نبنى جسوراً. أحد ما لا يود أن يكون الضحية عن قناعة، وأبداً نصطدم، نشئت نحو جميع الاتجاهات، صوب كل الرغبات ونقول: لعله الدرب الذي ينجينا فنصل!

ونخسر. يربح الزمن ونخسر. تظل الدروب كما كانت، وبتيه ذلك الذي من فرط ما حُرْم، يستمر باحثاً عن النجاة واليقين مفتشاً عبر جميع للنعطفات عن نفسه التي عطبها التاريخ والوراثة والتأمل المثالي الأخرق.

عندما كنت اعتقد انني اتخطى، كان يخيل الي انني اخسر عمري في كل خطوة، شبيه كرة تضرب جداراً صلباً وفي كل ضربة تنقص المقاومة، يتشم جزء من الكرة بينما يظل الجدار قائماً لا يتزعزع.

ورغم التساؤلات عن امكانية خرق هذا الحائط الناهض داخل النفوس منذ آلاف الاعوام، كان الاستمرار في محاولات التخطي يعطي تبريراً لاستمرارية الحياة نفسها ضد الخدع وضد هاجس الانتحار.

وفي تاريخ الوطن والتاريخ الشخصي لن يسألك احد: ماذا تريد؟ واذا ما سأل فليتحدى. ناشراً في وجهك زنج فرديته التي ألفها وألهاها خلال الاعوام الطويلة العريقة، خافياً في ظلها كل عجزه وكل سقوط قومه: ما تريد ليس ما يجب ان يكون. ما يجب ان يكون هو ما أراه أنا.

وفي ذلك الصباح والفرح قمر ساطع ينير كل سهول النفس ومنحدراتها، سألت

تلك الام الوحيدة : الى اين تركنا وترحل؟ وفي ذلك الصباح أجابها فرحي : الى الشام.

وقالت عجة : الشام ! وماذا لنا في الشام؟

قلت وانا اودعها : طلعت عليها شمس الفقراء التي لن تغيب بعد اليوم .  
وتمتت وهي تدمع : ليكن الله معكم . يا بني لا تنس نفسك في تلك البلاد . تذكر يا بني أن الغربة غدارة !

وقبل ثلاث سنوات أذكر كيف كان العالم في رأسي نقياً ، مفعماً بآمال بلا حدود ، وكيف كنت احلم بمنى : حريتي ووطني وزوجتي وطعامي وشوقي للمسرات النهارية والليلية .

آه . كم اشعر الآن بالمرارة . وكم يؤرقني الجرح وانا أرى الشمس وهي تميل مكسوفة وقد لوثها غبار الاعوام ، لطّخها الزمن حتى كدت انكرها ، وانا ارقبها في حجرتي المغلقة عاجزاً عن مسح ركام الغبار عنها ، قاصراً عن ردها الى طفولتها الاولى التي أسرتني فاستوطنت أشعتها اعصابي .

ولكن ما فائدة كل هذا الأسى . كل هذا الانتحاب الذي تحول الى نوع من الممارسة السادية لأجيال تسير مقهورة محنية يسوطها ماضيها وارثها البالي . الاجيال التي وسمتها منى بانها ملوثة بلا استثناء؟

التصدع حدث وكفى .

ولكن هل كان ذلك في أعماق النفوس؟ ام أن التجربة هي التي مخضتة بحكم النقص؟ ام انه محض تشوش ذهني نتج عن استطالة المثال الكبير في الرأس؟ ام هو العجز التاريخي؟

زفيف الريح في الخارج . كل الابواب تلوح موصدة . ودمشق كعبة المثقفين والانقلابات المفاجئة وقطب العالم ، صامته تحت ضربات الريح ، بعد ان هاجرت منى من النفوس وانطوت تحت غبار الذاكرة .

وتحت الريح وطن ما عاد كما كان ، كما لونه الاحاسيس ووشته بألوان الحربة والخبز والمجد والأفراح الدائمة . مقيم هناك في أماكن غريبة ، سرية ، متربصة ، يخفي تحت ابطه مدية ورضاصة . في عينيه ضجيج إداة وتوجس ، وعلى وجهه سيماء ذعر وإرهاب .

توقع انفجار سيحدث اليوم أو غداً .

[ ]

على شرفة بيت أخيه كنا نسهر. تحتنا الشارع وفي مواجهتنا عمارات متلاصقة.  
وفي الطابق المقابل راحت حركة دائبة لصبية وأختها الصغرى، تستهدف انتباهنا.  
وفوق المدينة تقوست سماء مبهجة.

صامت. وهو في أم حيوته يتحرك بين الشرفة وداخل البيت.

- راقب نازك.

ورفعت رأسي. كانت عيناه مفعمتين بوميض خاص.

قلت: كم تقدر عمرها؟

- أحد عشر عاماً.

- والأخت؟

- تجاوزت الثامنة عشرة.

- من تشني؟

- الأختين.

- في سرير واحد؟

وشالت قهقهة: كل نساء العالم لا تكفي الجياع.

وناولني لفاقة ثم أشعل لي ولهُ. كانت اللفاقة مغروسة في زاوية فه اليسرى.

نترها ونفخ الدخان فاتحاً فه كعصفور جائع: اللفاقة تعويض عن الثدي.

كغمامة عبرت مني. صبوة حادة ارتسمت على محيط العمر فوشمته. عصية على

الأخذ، عصية على الهجر، وأنا من الداخل وحيد كذئب في صحراء.

- أنت حزين.

واختفت الغمامة. كان يقرر جملة بثقة.

قلت: المثقفون هنا كطحالب البحر.

غرغر ضحكة مبتسرة: بالتأكيد لم تكن تفكر بالمثقفين.

وقلت: ليس ذلك مهماً. المهم ماذا نقدم نحن. خمر. ثرثرة. تحليلات

اندفاعية. حفر مضمّن عن الحرية والمرأة وأشياء أخرى لا تبال. آه. أي سخف!

- نقدم الحزن المختمر أليس هذا كافياً؟

في الفراغ قذف اللفاقة. وهي تهوي وتقع محدثة بعض الشرر فوق

الاسفلت. ظل يراقبها حتى خمدت. واذ حدق في الأفق الشاحب رأيت كآبته : نحن مقذوفون في فراغ.

وفي ذلك الغروب ندخل في أول نقاش حاد حول الفرد والحرية ، حول الثورة والمجتمع ، وحول التنازلات الخاصة والعزلة وبداية الانهيارات .

يبدو «راني» ممحكاً كعادته . من خلال وعيه الشخصي يفسر الثورة رافضاً التنازلات التي تؤدي إلى الإصلاح تحت غشاء من الواقعية المناقضة للثورة ، محتجاً على هذه المقايضات اليومية الموسومة بالخوف من التغيير الجذري : الثوري يحرق كل الهشيم الكاذب ولو أدى ذلك الى إحتراقه في النهاية . إذا لم تتغير العلاقات القديمة فنحن نبحر في سفينة مصدعة تتخللها المياه يوماً بعد يوم والنتيجة هي الفرق .

- نظرياً هذا صحيح . ولكن هل نستطيع ؟

- لا نتحدث عن الظروف الموضوعية . هذه مقولة الجبناء . هناك خريطة رُسمت عبر الماضي بشكل خاطئ وأنا أملك القلم والتصوير الذي ينبغي أن يكون . ما الذي يمنعني من رسم هذه الخريطة على النحو الصحيح ؟

- الناس ليسوا خطوطاً . والمجتمع ليس تعبيراً في مرسمات الحبر !

- إسمع حتى الآن لا أعتقد أنك إنسان تبريري . أنا أخاف مثل هذه الزمرة إن لم أقل أنني أرفضها وأحترقها . قد تحتاج العملية تضحية ومخاطرة وأنا أرى الثوري فدائياً ونبياً . أنا أرفض السياسي المناور .

يهمد راني . يبدو عليه أنه بذل جهداً طارئاً استقاه من عالمه التجريدي ، ومن باطنه النفسي وحققه على تراكمات الكتب ، والكذب المحشو به تاريخ العرب فأصابه منه رذاذ . نحو نازك يرنو بعينين ترميان سترها الخارجي . يتناول شبابته وتنامي موجعات الحزن .

ليس سهلاً أن تعمّر صلة ، ومع راني يبدو ذلك رهيفاً كحرف الشفرة ، وكما تبرق وتتداخل ألوان قوس قزح ، كذلك كان يبدو طقس نفسه .

بعد أن تعب من العزف ، تناول سيكارة واستدار بعيداً عن مرمى الصغيرة .

عن روايته التي يكتبها ، حكى أشياء مثيرة وحميمة إليه . تحدث عن الإبحار العميق نحو داخل الأشياء ، عن الهواجس والكوابيس وكشوفات اللاشعور ، والمعاني المستنبطة من خلال الضعف البشري والعلائق السرية .

وإذ علقت أنها على ما تبدو رواية سوداوية. احتجّ غاضباً: بل هي رواية قومية بطريقة الإلتزام النفسي عبر الخلل الإنساني.

واستطرد: الوحدة العربية لن تقوم إذا لم يستطع اثنان ابتناء وحدة بينهما. بيننا لم تكن مسافة. كنا ندخن باستمرار وبحيوية، والجو مترع برائحة صميمية.

كانت العلاقة معه ذات نكهة خاصة. نحس من خلالها أن العالم خصب، واسع لا يحدّ. ورويداً تبدأ حواجز التوجس والإحباط بالانهيار. وفي مكان سري من الداخل تحاول تلك الصلة أن ترغف كما ينمو الفجر.

- «حياة الإنسان متاهة والنفس فصول». قلت ذلك كأنما أهمس لنفسي. وبدا ذلك احتمالياً يخص من اختاروا الابحار إلى ما وراء الظواهر، الذين أسماهم رامبو «الملعونون»، والذين يدمرون أحاسيسهم للوصول إلى العالم الحي المقفر. كذلك حياة مني، كانت تبدو لي حالة زئبقية عصية على الركون والسكينة. جيشان دائم.

[ ]

لعبة الكلمات والنفس، والرصد المرهف الشبيه بحافة مديّة للناس والعلائق والأحاسيس الخاصة، والهجرة الدائمة تحت جلد الأشياء، لعبة مسلية ورائعة، تخلق إحساساً متجدداً برؤية العالم، معمداً بالدهشة والامتياز. تعطي العمر طعماً خصوصياً يشبه دينامو يولد باستمرار شحنات ما أسماه لوركا «الروح المبدع».

معاً كنا نحس نبض الحياة المتدفق في عروق النفس؛ كنا كلونين في قوس قزح.

نزلنا الدرج وفوق اسفلت شوارع المدينة، سحناً.

دمشق مدينة ككثير من مدن العالم: عمارات من حجر، وشوارع يعبرها الناس والسيارات. أماكن خاصة وعمومية، بيع وشراء، لكن الوجه الآخر يغفو تحت الجلد الظاهر. يشفّ ذلك الجلد إذ يغيب الإنسان عن سطوح أشيائها ويهم في ليل صامت شفاف.

من خمارة قريبة تناولنا خمره. وإذ ابتعدنا عن أبراج المراقبة قال راني: إفتح يا عزيزي الشبل.

بأسناني فتحت السدادة وقذفت بها ، وناولته . شرب فامتعض . تناول شيئاً  
يؤكل من كيس ورق .

شارع وشارع ، ثم آخر وآخر . نسوح ونشرب ونثرثر .  
- جيل خرع نحن . قال .

- لماذا لا تقول محروم ، لم يرتو من حليب الثدي .

- والعصر إن العربي لفي خسر .

- ألسنا احتجاج العصر؟ قلتها بدراماتيكية ساخرة .

- ضد من؟

- ضد أنفسنا .

- أنا أرفض الإدانة . الإنسان مسوِّغ أمام نفسه .

- أنا لا أدين . لكن الإنسان حرية .

- إنساننا صفر .

- والوطن؟

وقال بتزق : يا أخي مصاب أنت بعقدة الإثم؟ لوثك السياسة .

- أبدأ . فقط أود لو أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل وطني . وكنا قد انتقلنا

إلى ساحة الجد .

وقال غضباً : كيف تفعل وأنت معزول . وأنت لا شيء في حساب الزمن

والوطن والتاريخ؟

وقلت جاداً : ينبغي أن نغتصب الحرية .

قهقه وهو يدفق الخمر في جوفه : الوطن امرأة ورواية وصبوات تتحقق .

وقلت : وهو أيضاً انخراط في عمل قاتل . (كنت جاداً أكثر . الداخلة تحرك

وانخرقت طبقة اللاشعور) .

ونخر : موت مغامر من أجل لا شيء . نحن منفيون يا سيدي الثوري . خريف

عابر في فصول الزمن العربي !

غمزني حزن وشعرت بحصار . كان رأسي موشكاً على الانفجار .

عن سياج حديقة المزرعة وثب وصاح : هيا أيها الفدائي !



على المرج الندي استلقينا . كان القمر فوقنا قطعة من نارنج ، والحديقة مضاءة  
والشجر ساكناً .

- نخب الأجابة !

وغباً طويلاً . نرت الزجاجة من فه : تريد أن تقتل نفسك بطريقة  
سخيفة !

- ماذا بقي لنا غير الخمر؟

أشعلنا لفافتين : أحلم أن نتشرد سوية ونجوس كل مدن العالم . تصور أن  
يمضي عمرنا هنا في هذا الكهف النتن !  
- هنا مكاننا .

- ما الذي فعله؟

- الحفر في جدار الكهف حتى الإدماء لفتح كوة صغيرة للشمس . (كنت  
أرد على سلبيته ولوني الخاص في قوس قزح) وصاح وهو يقهقه : الوطن : ها . ها .  
يا للوطن المسكين الموطأ . قال ذلك بحزن فاجعي ، فداهمني رغبة نجيب .

بشبابته أمطر لحناً ريفياً شديد الكآبة سامراً الصمت وأوقد الحزن . كنا ندخل  
الآن نسيج الليل والوحدة النفسية . تذكرت طفولتي النائية ، وأصدقاء الطفولة الذين  
تاهوا . قلت : غنّ لنا هيات يا بو الزلف .

غبّ الكلمة أهمت دمة حارة . سألت حتى شارفت في . ذقت طعم وطني  
الخاص . على غير توقع أبقظنا ظل الحارس الليلي مرتسماً على العشب .

[

منى . مدينة السلام المبنية في الذهن بعد أن انفجرت مدن الواقع فصارت  
شظايا . بواباتها المخلعة ممرات للريح .

ومنى سلام مفقود . سراب ألث وراءه قبل هبوطي دمشق .

عرفتها قبل أن أراها ، وفقدتها قبل أن أكتشفها . لكأنها علاقة مجتثة ومتصلة  
في آن . ابتدأنا من نهاية الأشياء وانتهينا في لحظة البدء .

عندما كان علينا أن نعيد تركيب صلتنا على ضوء حالتنا الجديدة ، بعد أن  
بدأنا نفهم الحدّ الفاجعي الشبيه بشفرة الموسيقى ، كانت منى قد استأصلت من نفسها  
كل أمل بإصلاح الأمور ، وهكذا بدت عاجزة عن إعادة أي تركيب آخر . كانت

تقول لي في ذلك الوقت : لا بد أن الإنسان يتشظى كلوح زجاج يهوي من الطابق العاشر. هذا ما يحدث في النهاية.

لشد ما أشعر بالمرارة الآن وأنا أحاول استحضار الصورتين على شاشة ذاكرتي : مني الحلم ومني المبددة.

المرأة التي كنت أتصورها مفترسة من أدران قومها ، بعد أن تمرست بكل صنوف العذاب والآلام التي طهرتها فكونتها من جديد. كنت أعتقد أنها أقوى وأكثر تماسكاً أمام الصدمة ، بل كنت أذهب إلى أبعد من ذلك متخيلاً أن هذا الانتهاك هو الوسيلة الناجعة لشفائها وإعادة خلقها على نحو إرادي ، تلعب فيه علاقتنا وحواراتنا الصريحة دوراً أساسياً.

لم يكن باستطاعتي أن أعتقد أنني سأخسرهما يوماً رغم إلحاحها الدائم على هاجس الرحيل ، وإذ كنت أقول لها أنك تهربين من شيء هو محمول في المسام والدم ، وأن هذا الشيء سيعود إلى الظهور في أي مكان آخر ، وهذا الهاجس ليس أكثر من وهم في لعبة قديمة حاولها الآخرون وخسروا فيها ، كانت تردّ بأنني أريدها لنفسي ، وأن الرجل هنا مهما بالغ في محاولة انعتاقه من قيود قومه ، هو في النهاية يريد المرأة له . يرغب أن يكون ماضيها نقياً وأن تطيعه كعبد. إنها عقدة الآباء والأجداد القدامى الذين ورثوا أولادهم وأحفادهم فكرة الطغيان . وأضافت وهي تدبر إبرة المدياع : أنا أعتقد أن أبي رجل في شرقنا إذا لم يكن طاغية لا بد أن يحمل في دمه بعض صفات الأنوثة. وهكذا ترى أن الذنب ليس ذنبنا. أعني لسنا أحراراً كما ينبغي. لست أدري لماذا كنت معها وضدها في الوقت نفسه. ولكي يتوضح هذا الإبهام المختلط علي ، كنت أحلم بالخروج معاً من هذه المدينة التي بدت لي وكأنها قد ضربتنا بلا شفقة في مركز من مراكز الإحساس فأفقدتنا بعض صوابنا .

كانت فكرة الرحيل معاً ذات حدين : الفوز بها لأنني أصبحت أحبها على نحو شبه مرضي تاخّم حدود الهوس . وثانياً لتحقيق ذلك الوهم الملح وهو أنني ومني نستطيع إعادة بناء كوننا بشكل جديد خلاق .

كان التصور الثاني شبيه حلم أسطوري . يحمل الكثير من الرومانسية في جانب من جوانبه ، وفي الجانب الآخر منه - وهذا ما كان يورقني - كان يبدو لي أصيلاً وحقيقياً . كنت مأخوذاً دائماً بهذه الفكرة : كل ما هو غير متحقق ، يظل حلمًا

رومانسياً حتى يتحقق ، لا فرق في ذلك بين تناول فنجان قهوة أو الصعود إلى القمر .

في هذه الحالة الخاصة والصعبة ، كانت منى هي الضمير الثاني الراقد تحت طبقات الثلج خلال الأعوام الممضّة من النسيان وممارسة الألعاب الشخصية .

كان الوقت غروباً ونحن في الغرفة التي لا تعرف الضوء . منى تدخن بجيويتها العصبية وأنا أحتسي بعض البيرة المزوجة بالعرق . طلبت منها أن تشرب قليلاً فرفضت . قالت : سأعدّ بعض القهوة . وخرجت إلى المطبخ .

مع الزمن تحولت هذه الغرفة المعزولة عن العالم والشمس إلى ما يشبه المعبد لنا نحن الإثنين فقط . وفي أصائل عديدة كانت تأتي إلى هنا في غيابي . تقرأ أو تكتب شعراً أو تستلقي ، وإذا لا أعود تترك بعض العبارات القصيرة أو زهرة ياسمين في صفحة كتاب ، وأحياناً تكتني ببعثرة الكتب على الطاولة أو السرير .

عندما عادت حاملة القهوة ، رنوت إليها . بدا وجهها في لون الشفق وعيناها ترسلان بريقاً كانت أشعته تضيء الغرفة وتضيئني . وهزني فرح غامر : أنها هنا ما تزال !

وهي تصب القهوة حاذي وجهها وجهي فطوقني وهجها ورائحتها . على خدها الأيسر لثمتها فلم تبدر منها أية حركة . وبهدوء استمرت تصب القهوة .

وضعت لي فنجاناً قرب كأس الخمر ثم تناولت أخرى لها وراحت ترشف : سيكارة . أشعلت لفافتين وناولتني واحدة .

كانت الغرفة ترسو في محيط من الهدوء ، تقطعه رشقات خافتة ، وإذا استطال الصمت سألت : أيه . لماذا لا تتحدث . أتظل مبحراً ؟ ولكزت خاصرتي بطرف سبابتها : عندما تكتئب يبدو وجهك مماثلاً لوجه رجل يساق إلى ساحة إعدام . - بدأت أحس بالنبي .

بدت الجملة وكأنها سقطت سهواً . كأنما شيء فائض هوى فلم يترك أثراً . تناولت منى الراديو الصغير وفتحته . كانت الموسيقى هي الرد اللاشعوري على جملي . أحزنتني برودها . هذه اللامبالاة التي تتقمصها في لحظات الشدة . قلت : أعتقدين أنني أبالغ ؟ واكسى وجهها بغلالة ألم . ضغطت بطرف أسنانها شفتها السفلى ثم تنهدت : لا بد أننا نعذب أنفسنا دونما جدوى .

أوضحتُ لها أننا لم نقرر شيئاً منذ التقينا. فقط نلهو بعواطفنا ونبدد الزمن بهذه اللقاءات التي تشبه المخدر. لو قررنا فقط أن نكون معاً، أن نظل معاً، لكان من الممكن تخفيف وطأة المنفى: هذا ما أشعر به على الأقل.

ضحكت بمرارة: أعتقد جداً ذلك؟

خيل إلي أنها تهزأ من فكري، فسألتها عن وجه الغرابة في الموضوع بعد أن تصدعت الآمال وابتدأ الترع داخل النفوس. رمقتني بتركيز. أغلقت الراديو: إسمع أنت أما حالم أو مجنون! هل سمعت في تاريخ حياتك أن باستطاعة اثنين أن يبنيا العالم من جديد؟ ثم أنا وأنت من الذي قال أننا نملك كامل حريتنا؟

كانت تتحدث بصوت طبقاته وصلت أوجها وهي تسأل سؤالها الأخير.

في ذلك الغروب الذي أذكره الآن جيداً، اجتاحتنا حوار عقلي حاد ومرير حول الحرية والهجرة واللوثات الداخلية التي راكمتها سنوات الطفولة والاضطهاد والارث. وكانت وجهة نظرها مركزة حول ما سمته البقع السوداء التي تلتطخ النفس. البقع التي استعصت على المحو.

لقد أوضحت لي يومذاك بأن تلك الندوب العميقة تتحول مع الأيام إلى أصفاد زمنية تأسر الإنسان وتؤطره داخل قواقع لا يقوى على الخروج منها، وهذه القواقع تتحول بفعل الاعتياد إلى قوانين نفسية معترضة، قوانين مستترة تتمرد على المادي والرياضي في الحياة أحياناً. هذه القوانين قد تعطب الوجود البشري وتخلخله.

وأذكر أن فكري في الرد عليها يومذاك كانت تلخص بأن الإنسان اليقظ الذي يحتاج ذاكرة وقادة لا تنطفئ، هو الذي يبقى في مواضع الخطر حفاظاً على حيوية التغيير. ليس المغامر بل الثوري، ولا بد من التفريق بينهما. ومن أجل أن نكون هكذا لا بد من خرق اليومي والتاريخي بلا خوف. لا بد من عبور النار الداخلية في محاولة تطهيرية، بذلك تتألق النفس وتظلّ في مركز الوهج. وعلى هذا النحو يمكن أن نتخلص من العكر القديم.

كانت مني تبسم على نحو طفولي. قالت: إنك تتحدث كشاعر. هذا إذا لم أقل أنك تنسى الوضع الفردي والظروف التي تحكم حركة كل إنسان. وسألتها إن

كانت تعتقد أن القوانين النفسية التي أشارت إليها، هي التي نحكمنا فقط. وكان ردّها يدور حول ردود الأفعال الآنية والزمن المستغرق في تفريغ الرغبات الذاتية. ثم

ختمت فكرتها بأن الزمن الذي نحيا فيه ربما كان حلقة بين الانحطاط والتألق الذي أشرت أنا إليه، وقالت بأن التعثر قد يستغرق أكثر من جيل.

كنت أشرب بهدوء، وكانت الخمرة تتلاشى عبر هذا الحوار العقلي الذي اشتبكنا فيه، وقد نسي كل منا أن الزمن الحقيقي بين رجل وامرأة في غرفة سرية يُدد في أمور أخرى ربما كانت أكثر جدوى.

لكن منى كانت قربي. بيننا بضعة سنتيمترات وقد لفت ساقاً فوق أخرى شابكة أصابع يديها الناعمتين تحت ركبتيها، فبدت بوجهها وشفتيها الكرزيتين، وهذا الإنفساح العالي من صدرها وساقها، امرأة يشتهي أي رجل ولو كان قديساً أن يركع أمامها مبتهلاً لهذا البريق الخاطف، الخارج من كل جسدها أشعة وروائح. آه. الجنس الطاغى ليس إلا. لكن منى الأخرى كانت هناك. تنأى كقطار ينشر عبوره في المحطات دخاناً يمتصه الفضاء، مخلّفاً صفيراً داوياً حزيناً، تردد صداه الأودية والسفوح. قطار بعد أن يغيب خلف المنعطفات لا يظل منه في قرارة الذاكرة غير ذلك الرجح الحزين المصدي.

[ ]

هوذا الزمن بيننا. سيف من صوان مسنون، لا هو يفرينا ولا ينكسر. كنا نبدو منفيين داخل قلعة، شبيه حشرتين متناثيتين في نسيج عنكبوت، وأية حركة لمحاولة الخروج كانت في النهاية التفاف مزيد من الخيوط حول عنقينا.

كان بودي أن أشرح لها هذه الفكرة. أن أقول أن العنكبوت يقترب وعلينا أن نفعل شيئاً ما ولو أدى هذا إلى الموت، غير أن الفكرة بدت غير مقنعة، ومن خلال حس المنفى والصدوع الداخلية، شعرت بأننا أصغر من الحياة التي قُذفنا فيها، أو أن قدرنا لعيناً، كنت دائماً أرفضه، بطوقنا، وبني بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين، ذرات هذا الحائط الوهمي الصلب الذي يقوم على أنقاض عمرينا.

وفي زحمة طغيان هذا الشعور القاهر تتساءل: كيف تنجو من هذا الجحيم؟ امرأة لم تقل يوماً أنها تحبك وعبر كل ثانية تمر تشتهي أن تنحلّ فيها وتنحلّ فيك. تفتتها إلى جواهرها الأساسية الأولى، ثم تعيد تركيبها من جديد صانعاً الصورة التي تريد.

ولكن من الذي يملك القدرة على الخلق وبث الروح في الشيء الذي ولد بطريقة خاطئة، من نطفة حملت كل ذلك العطب المُشرب به الدم؟  
لشد ما يبدو ذلك طوباوياً رغم أنه يبدو وكأنه الحركة الأساسية لتمزيق شبكة العنكبوت والخروج!

ليل دمشق مسرة خصوصية. داخله تسوح. تحلم. تتذكر وتخزن. ترسم في فراغه الحميم ما تشاء من الصور مشيداً جمهوريات من فرح وعدل، وعلى مدى كتابان الأمانى ترتفع عبر هذه الليالي في صحارك وصحاري الآخرين.

إنه الزمن يلف ويدور. تارة كالحبل حول الرقاب، وتارة كالأعصار. كلمات. كلمات عما ينبغي أن يكون ولا يكون، وسباق حار من خلال التصورات. لهفأ صوب أشياء لا تجيء. ارتسمت في الذهن يوماً اثر يوم، تخرج من الداخل فتصطدم بالفراغ والجدران ووجوه الآخرين، لكنها لا تلبث أن تنكش مع بداية أول ضوء لنهار ساطع آخر، منتظرة هبوط ليل جديد لتقذف مرة أخرى.

هل هو زلزال فردي وجماعي هذا الذي ترتعش به تلك الأراضي البور بعد أن انتظرت طويلاً موسم الأمطار وليس غير الشمس والظما؟

[ ]

وفي ذلك العصر الملحمي، كانت تلك الإرتسامات والإشارات المهمة، تبدو وكأنها نوع من هتك الستر، في حين أن رموزها الخفية وسرها المغلق، كانا يلوحان كبقعة زيت أخذت تتشر فوق جميع السطوح مشيرة إلى الخطر، نازعة في الوقت نفسه إلى بلوغ نوع من السكينة والخلوص اللذين طُعنا قبل سن البلوغ. في أعماقي كنت أحس ذلك البطء في النمو. كان ذلك الشعور الكسيح يحتاجني بعد لقاءاتي مع مني، كذلك عندما كنت أنتهي أنا وأمينة من الفعل الجنسي متمددين كجريحين في مستطيل الصمت داخل فراغ العالم الموحش.

عندما كنت أتجه إلى غرفتها في سحر الليالي الدمشقية الساكنة، كان رأسي الدائخ المتموج يهجم لي أنني ربما اكتشفت نقطة ارتكاز على خريطة جسدها. وأنا أمضي، تنحل في ريح وسكينة المدينة غلالة من أمل حان، فأغفل عن لمعان الضوء فوق الشوارع، وحفيف الشجر، وهذا الصمت السحري، ثم لهفتي وتلك المرثية الصامتة لفجيعة نفسينا أثر انتهاء لعبة الجسد.

ها هي ذي . تقف في الحجرة ، وقد ارتدت غلالة شفافة . مجد صباها الغارب قر على حافة الغياب ، تسبح في نهر من الضوء البرتقالي ، هو جسري إليها ، مادة ذراعين بيضاويين مزغبين في ملمس الحرير والعشب . تتلقاني وتقودني إلى سرير أخضر ، لوقع جسدينا عليه صوت أخضر ، ولحركة جسدها ورائحتها إيقاع أخضر ، ونغيب . تهمني منى بالولوع الجنسي . فأدافع عن نفسي : لا ليس بهذه الدرجة . أنا أحس في أعماقي عرقاً من الصوفية . منى ، ألم تشعر يوماً بذلك ؟

تقول : لكن الصوفي لا يشتهي الجسد . وتبدأ مشروع ابتسامه . وأقول جاداً : أبدأ . صوفي عصرنا يشتهي الجسد والنفس معاً . أنا عنيت بالصوفي الاخلاص حتى التلاشي .

- ها . متصوف مودرن . وتبتسم . أتمم جملتي : ولكن وأسفاه ما أنا بطائل أيها . أفكر أحياناً أنك كالماء عسوية على المسك . تنهض وعلى وجهها سماء كآبة . عارية تماماً على حافة السرير . تتزلق قليلاً . قدماها تتأرجحان . تتوقف الحركة ثم تمد طرف سبابتها تخط خطوطاً فوق بشرة فخذهما . أراقبها مستنداً بظهري على الجدار : تكتبين شعراً أم تحصين من اضطجعتِ معهم ؟

انزلت نهائياً عن السرير فلاح كفلها يهتز . اشتيتها مرة أخرى . عندما هممت أصبح بها : عودي . كانت قد تناولت ثيابها وبدأت ترتديها بانفعال بادٍ .

قبل أن يموت أبي بالتسمم الخمري في الدم ، كان يسمي النساء بالعلق : هؤلاء اللواني يمتصن دم الرجل من ظهره !

أتراه كان يدرك أن زمناً غريباً بلا لون ولا طعم ولا رائحة ، سيقبل . زمن له كل الألوان وكل الروائح وكل الطعوم وقد اختلطت بكوكتيل غريب . فقط كان يتنبأ بالحرب لأن الكتب السرية كانت تقول ذلك . ولكنه كان يشف ويصفو كينابيع القمم عندما تخترقه الخمرة .

[ ]

هذه الغرفة الجانبية التي تطل على الشارع فيها امرأة بعمر أُمي . وجهها قريب من وجه أُمي . دائماً أرى ذلك بعد أن تنتهي ، وفي هذه الغرفة أيضاً طفلة في الثانية عشرة . عالمها المدرسة والعابها . إنها تصنع ألعاباً ودمى ولوحات ولا أبراً منها . تقول : انظر إلى هذه اللوحة ! ثم تربني الأصل : قطعة تتوسد حضن طفلة تطعمها . تحدثني سمة عن قطها الصغير . تناديه فير وهو يهرول واثباً إلى حضنها . تمسد شعره

الأسود فيموء : فريد ينام معي لكن أُمي تتزعج منه . صنعت له فراشاً هناك في الزاوية . ثم تسألني بغتة : عمّو . إننا لا نراك إلا لماماً لماذا؟

- العمل سمية .

- نتمنى لو نراك دائماً . لو تسكن معنا . ثم ترنو خجلة نحو أمها .

- وأنا أيضاً حبيبي أرغب ذلك من كل قلبي .

- تعال إلينا . ماما تريد ذلك . أليس كذلك ماما؟

أمينة تشهد . تخاتل بكلمات مبهمّة مع سمية . أقول لأمينة أن سمية طفلة رائعة فتقول : لكنها بلا أب .

هو هناك بين الحيطان العالية . ذئب جريح في قفص ضيق . الخمرة وحدها تبدو المفتاح الوحيد إلى الصحارى والواحات . افاق بلا مدى تمتد ، وفوق العشب غلمان وحواريات وأصداء الزمن المنقرض .

وكان لأيوب عصر وفورات تشبه غضب البحر . مزارع وخدم وأحصنة وأسفار . الأرض بطوها وعرضها كانت في ركاب أيوب السرحان . من أجله تشرق الشمس ويتلأأ القمر وتغني فانتات (الأوريان بالاس) وهو يدفع ويدفع ويدفع . يشرب ويصرخ ، ومن فندق إلى آخر . من مدينة إلى أخرى مع الشلة التي اختارها واختارته . كان أيوب سيد الزمن القديم .

كذبت على أمينة : أنا مريض . الطبيب قال : لو تزوجت فستموت . أنت مصاب بروماتيزم القلب .

وكما تحنو أم التصقت بي وطوقني . قبلتني على خدي وصدغي وشعري . تناولت رأسي وأراحتته على صدرها ، وراحت تمسد شعري . كنت أحس وجيب قلبها تحت رأسي . سألتني : إذن لماذا تفعل الجنس بهذه الغزارة؟

وسألتها ان كنت أفعله أكثر مما ينبغي ، فرفعت أصابع ثلاثة وهي تنهه ضحكة : كما يفعل الفحل .

- ثلاث مرات في الليلة الواحدة . آخ لو رآك الطبيب ! واندغمنا في ضحكة خافتة مشتركة .



طوقتها بحبيرة ضاغطاً بلاطة ظهرها. ورحت أمرغ أنبي تحت ذقنها وفوق جلد رقبته وبنشوة قلت :

أنتِ أعظم امرأة في العالم.

فجأة ردت : عندما أكون عارية. هاه!

أجبت : إذا كان سيدك عفيفاً أنا ما علاقتي؟

- وإذا كنت يا مهذب شهوانياً أنا ما ذنبي؟

هكذا كنا نكتشف اللعبة. كل منا بطريقته الخاصة لحظات السكينة والهبوط.

اللحظات التي تبدو لامعة وهادئة كسطح بحيرة اصطناعية.

أنت شهواني ليس للجنس فقط ، إنما لكل الأشياء التي تضجّ في أعماقك .  
تلك التي ضُغِطت بمكبس الزمن والتي ترتسم الآن كسراب عبر طرقاتك فلا تصل  
إليها .

آه . هؤلاء القوم . انك تفكر بهم كثيرا وهم متخلّون عنك منذ زمن . لقد  
بدأت تهتز وتقطع علاقتك الجدلية معهم . انها علاقة من طرف واحد . ولكن لماذا  
دفنوا حياتهم الخلاقة على هذا النحو المفجع واستعاضوا عنها بما يشبه الحياة ؟  
ولم يكتفوا بذلك . ها هم يتحولون الى قضاة وجلادين . ولكنك تُتقدم .  
يخيل اليك انك تتقدم . تقول : ليكن . سأحيا كما أريد فحياتي تعني وحدي .  
تريد أن تسليخ اذن منسجماً الى طرف قصي . ولكن أين يقع ذلك الطرف  
المضيء ؟

ومن غيابة الذاكرة تحضرها . تحاول ان تشرح لها لماذا العربي في المنفى .  
كانت تسمع في الوقت الذي تبدو فيه غير مهتمة . بين حين وآخر تعلق على  
الحديث بنكته او ابتسامة قائلة : انك تعقد الامور وتبالغ اكثر مما ينبغي . العربي  
مصاب بعقدة استحلاب الالم .

لكنني اقول : بل انت منفية اكثر منهم جميعاً وترفضين الخروج من منفاك .  
رحيلك هذا الهاجس اللعين يسد كل أبواب التفاهم بيننا . كوني معي مرة واحدة .  
منذ سنوات وكل منا يحكي بلغة مختلفة . لغة منفصلة . لكنها كانت نصمت . فقط  
تتحرك . تنقل شيئاً من مكانه . تفتح كتاباً او تقوم بحركة رقص مبتورة او تمشط  
شعرها القمحي القصير باصابعها الوردية متلعة رأسها الى الاعلى والخلف . لم تكن  
تستطيع التوقف عن الحركة لكانها مسكونة بألف جني . كان ذلك يعوّض قليلاً عن

الجيشان الباطني الذي لا ترغب في الافصاح عنه، بعد ان بدأت تدرك شكى بعلاقتها المسترة مع الآخرين.

كانت بجانبتي لهذا الموضوع تسبب العذاب والراحة معا لكلينا. فحتى ذلك الوقت وبعد أن خرجت شكوكي الى دائرة الضوء، لم أكن مقتنعا بجدوى مصارحتها. وفي لحظات وحدتي بعيدا عنها كنت افكر: من أين اوتيت تلك القوة لخلق هذا التوازن بيني وبينهم؟ ولماذا ترضي ان تكون لنا جميعا دونما حس بالإثم؟

كنت أهرب من الحاح كلمة: بغي، لا لأنها لم تكن كذلك، انما لانني كنت ارفض لها أن توطأ على هذا النحو الخسيس باجساد الكذبة والشهوانيين والحمقى والمراهقين، هؤلاء الذين عشقوا رغباتهم العابرة في طفولة جسدها البراق. لقد زرعوا في ارضها الخصبة بذور الشوك والصبار ثم خانوها بلا ندم. عندما كنت أصل الى هذه المنطقة من حالتها، أتذكر وضعها المشطر، لحظة تزحف رائحة الجنس الى أنفينا متسربة من احتكاك مباغت لليدين أو الفخذين. اذ ذاك تنطلق شرارة من مكان، فتوهج العيون ويبدأ القلب ضرباته المتسارعة. كتيار تجتاز الجسد رعشة تلوها رعشات، وتتحول الغرفة الى غابة والسرير الى عشب، ويبدأ هطول المطر والروائح، فالنار.

في ذلك الوقت الفاصل بين الموت والخلود، بين الحلول بكل ما هو حي وجامد على سطح الارض، والغياب داخل طيف ملون هلامي وصاعق، تنقسم منى متحولة الى شهيد في حالة نزع كأنما يستل روحها ملاك معذب بينما يغتصب جسدها شيطان.

[ ]

من أطرف الامور ان هذه الافكار السيئة والمحزنة، كانت تتنامى وانا أغادر حجرة امينة في اماسي دمشق الأسيية، عابراً شارع الصالحية وحي المزرعة المظلل باشجار السنسرخت وغياض الياسمين، والمهجور من الناس بعد ان يخمد وجيب الجسد. اثر ذلك كنت اتساءل: هل كانت افكاري نوعا من التبيكيت؟ وهل انا سيء في علاقتي مع امينة؟ والذي بيننا هل هو حرام ام شظية ثار؟ كانت احساسات الخلق حادة. ان تصنع شيئا وتعلق به بعنف قائلاً: هذا خلقته انا. انه لي.

وان لا تنفذ فقط وتطؤك الاوامر وانت منحن كغصن تحت ريح ، رافضاً  
الذين طفوا على سطح التيار وانجرفوا .

ثم . مسراتك ، حريتك ، أرضك الصلبة ، أين هي في ريح الضجيج  
الأعمى ؟

وكرّد فعل ربما ، كنا نبدد حياتنا بالخمير والكلمات ، في محاولة يائسة للتعبير  
عن الحرية ، ومع تساقق الزمن تشتت طاقاتنا ، ويمسّخ جنين الخلق والفعل ؛  
تلاشيه وتهرسه قطارات الايام السريعة .

في «الاليزيه» التقينا صدفة . عرفه راني علي . وانا أصافحه تمليت قامته  
المديدة ، وصدره العريض ، ووجهه الناضج صحة وشهوة : الشاعر العذري سامر  
البدوي .

وضحك راني : شبلي عبد الله .

فجأة أطلق سامر شتيمة . تناول كأسه ورفع : نخبك ايها الريبي الخجول .  
وغب .

باقتضاب ابتسمت . وانطلق يتحدث بعفوية وفضائح . كنت صامتاً وسط  
مجموعة من المثقفين ، بينهم شعراء وروائيون ومسرحيون ، شبيه دودة انكشت امام  
خطر حدسته . مذ قدم الى طاولتنا ، هيمن على الجو بالسخرية والسياسة  
والضحكات المشرعة ، وبدا حوار راني معه مباحاً وهجومياً . قلت لنفسي : أذو  
الجنة هذا شاعر؟

كحيوان صحراوي مضى عليه دهر بلا طعام ، هجم على المائدة . كان  
يشرب ويأكل ويتحدث بثقة لها طابع الاجتياح ، كأنما العالم ملكه والحاضرون  
حاشية .

وسأله راني : أراك وحيداً على غير العادة ، أين حريمك سامر؟

وبهق وجهه امتعاضاً : اسمعوا . اخونا يريد ان ينكت . يا اخي انت تصلح  
لكتابه قصة وتشبية ناي وبس .

ورد راني : وأنت لا بد انك تصلح لجمع اسماء عشيقاتك في دفاترك  
الشعرية .

ابتلعها : اضحكوا يا اخوان ولو كانت سخيفة .

وقال آخر: سامر استعاض عن الاسماء بارقام الهواتف.

وعقب آخر: رأس سامر مقسم.

قال رابع: مهلا يا جماعة. سامر تحول الى عاشق رومانسي. عشيقاته في هذه الايام دون الخمسين.

وشالت ضحكة مثقفة. نشق بأنفه ثم نهد ثم بصق على الارض: لا بد ان السيدة والدتك المحترمة قد باحت بالسر اخيراً.

واذ شعر انه مركز الهجوم، فتل الحديث باتجاهي: راني. السيد. شبلي صديقك الزميت لماذا يبدو صامتا على طريقة همنجواي في باريس؟

وقال راني: يستمتع بطلاوة احاديثك الشعرية.

أشعل لفافة «كنت» بقداحة «دوبون» أنيقة، ثم زفر الدخان وتوجه بعينه الشهوتين نحوي: أخي لا تفتعل البراءة ولا تحتم بها. أيام قليلة وتفرض دمشق بكارتك. تلوثك ولو كنت المسيح. هذه مدينة الخمر والسياسة والموت والنساء. طبعاً النساء بتحفظ.

وابتده راني: منك!

- يا أخي ما قصتك انت. محام عنه؟ لسانه بطول لسان الكلب ويستطيع أن يجيب.

ضحك ثم استطرد: عفواً اذا كان التعبير فجاً. أنا لا اعتذر من أحد ولكن باعتبارك ما تزال بغواً لا بأس. أنا هكذا.

وعقب راني: افضل من ان يكون بغياً!

جو الكهف اسباني، ذو طعم حار، يبيض عذوبة ووجداً في ساحة الرقص امرأة تتلوى برقصة ايقاعية لها سريان شهوي مؤلم في اجساد الرجال. سامر البدوي منتش بالحديث والشرب وتحلق زمرة المثقفين حوله، وانا افكر: «كيف قذفت في هذا العالم الغريب؟»

أية وحشة واي ضيق لا يمكن الافصاح عنهما. أحسست اني ضئيل، مرمي في متاهة. عبرتني فكرة المغادرة بعيداً عن العيون والناس والوجوه المخيفة: «لماذا بي ذعر من البشر الشديدي الملامسة حتى لاأكاد أشعر بهم يهبطون بثقلهم علي؟»

تملكتني رغبة الجري في الشوارع والخروج الى البراري الموحشة ، وانا أهدق في المرأة التي تتلوى كأفعوان .

كانت الرغبة في كل مكان ، وكانت لها رائحة تُشم في العيون والاجساد ، في جدران الكهف وفي الخمر ، وفي وجهها المتأجج . كانت تلبس فستانا مشمشيا محسوراً فوق الركبتين ، يظهر بلاطة ظهرها الباقوتي المحروق ، ويبيدي قليلا من أرومة ثديها الموقعين بارتجافها علاقة تمتد منها الى أعماق الرجال .

وهي ترقص حافية ، بدت تواصل لعبة نرجسية ، فيها مهارة ، وبين فينة واخرى كانت تغطي عينيها بأصابعها بذلك الخفر الأنثوي المفتعل .

كان الضوء شحيحاً . ثمة غلالة صقيع تلفح الوجوه والجلد العاري .

وهذه الموسيقى التي تنشر الروائح أكثر . النقاش مستمر في عالم صاحب ملفع بضباب خمري بينا سامر البدوي سيد هذا العالم ، مستمر في تأكيد وجوده الاعظم .

عن الشعر والصدقات والنساء والخمر ، حكى . كان يتسم بعذوبة حيناً وحيانا بمرارة ، وهاجموه ، واثنوا عليه .

وقالت النفس : «ماذا يحكي انسان خائف مثلي في محيط يتقن بحاروه العوم وهو لا يتقن السباحة بعد؟»

وانضم الى الحلبة نساء ورجال . وهمس لي راني : رقصة التانغو الحاملة !

كانت الموسيقى حنونة ، وداهمني حزن خاص . حزن رجل وحيد . كم كانت منى بعيدة الآن . مذ عرفتها حلمت ان نلتقي في كهف ليبي هادئ ، وحيدين داخل زاوية مظلمة وصامتة ، احدثها وتهمس لي ، اضمها بحنان بعيد عن الشهوة ، نبوح وتعلمني رقص ناس مدينتها ، ثم نبحر عبر الليالي الدمشقية المفعمة برائحة الياسمين ورائحتها . نخرج الى الضواحي ونتمرغ فوق العشب ثم نتيه على غير هدى نحو لا مكان محدد في هذا العالم .

وحضر رجل مثقف ومعه امرأة عرفنا بهما سامر البدوي . سلمت وجلست قربه . ناو لها كأسه فاحتست بأناقة ، وبوداعة مفتعلة راحت تتحدث .

كف سامر البدوي عن الثرثرة ، فبدت الارض وكأنها قد توقفت عن الدوران في رأسه ، وراح يتملى المرأة باحتفال متعبد . طلب لها خمرأً وقدم سجائره وأشعل لها . وضمير الحضور .

لكزني راني هامساً: ما رأيك؟

- امرأة اساسية. قلتها بعفوية.

وغنم ضحكة لكلمة اساسية: آه يا كاهن اللغة. يا فاسق!  
أولوها جميعاً اهتماماً مركزياً. وسألوها عن كتبها وماذا تكتب الآن ورأيها في  
القصة العربية المعاصرة ومدارس الادب، وردت باقتضاب وهي توزع ابتساماتها على  
الحاضرين. تحدثت عن الادب الفرنسي بشكل خاص، وعن حياتها في باريس  
وانها تكتب الآن رواية باللغة الفرنسية. كانت تتحدث بعذوبة امرأة تعرف ضعف  
الرجال وتهالكهم، وتعرف نفسها جيداً. واحتدم جدل حول مدارس الادب وحول  
الالتزام، وأفصحت عن رأيها بانها ترى في الالتزام فخاً وهي ترفضه إن كان يعني  
القسر.

وسألها سامر: ماذا تعنين بالقسر؟

- التعسف الايديولوجي.

وقال مثقف يبجاجة فوقية: الحرية مفقودة. فرد سامر بتزق: نحن نفكر بعقل

اوروبي.

ردّ راني: عندما نمتلك قدرة التحليل نمتلك قدرة الكشف. الاديب مغامر  
يرود مجاهل النفس. انساننا العربي يقيم تحت ركام من الدهور المتخلفة الناقصة،  
والمأساة تكمن في انعدام الرضى. في النقص الكوني لأن نطال الاشياء الطبيعية وهذا  
يبدو مستحيلاً. الامور الصغيرة مستحيلة. ثمة سدود وموانع ممتدة من سماء آلاف  
السنوات متغلغلة حتى الاشعار الماصة في نفوسنا فكيف نكون اسوياء ازاء هذا  
الحجر الوجودي؟

قالت المرأة: هذا صحيح. لسنا اصحاء.

واذ اشعل سامر لفافة ونفث دخانها، تلملم يريد ان يقول شيئاً.

خلت الحلبة بينما استمرت موسيقى كلاسيكية مريحة، واذ قال احدهم:  
معظم المثقفين معزولون عن الشعب ونحن لا نفهم الشقاء الحقيقي. شقاء ابطالنا  
شقاء ميتافيزيقي.

نهد سامر: ليست عزلة بقدر ما هي عجز. انا اوافق راني الى حد ما،

ولكنني انظر الى الموضوع من وجهة نظر الخيانة احيانا. لماذا انتحر ماياكوفسكي  
ابان الثورة مثلا؟

قال راني : لأنه خاب. تحطم مثال ماياكوفسكي بالثورة فلم يعد لوجوده في  
عصره اي مسوغ.

لقد قال يسين قبل الانتحار: « يبدو ان شعري ليس ضروريا هنا ويبدو  
انني لست ضروريا انا الآخر ايضا». هذا ما اراد ان يقوله ماياكوفسكي قبل لحظة  
انتحاره.

انهر زمن الكمد، بانت على وجه سامر كآبة وملل. شعر بأن عليه أن  
يتحرك. كان محاصراً بضيق ظهر في حركاته. جرع ما تبقى في كأسه. شكرتنا المرأة  
ومضت. وفي اثرها مضى سامر دون ان يقول كلمة.

[]

عندما خرجنا الى الشوارع كانت دمشق تغتسل بصحوها التام. مفعمة  
بالصمت العذب، لرائحة جسدها العجري طعم رطب.

قال راني : يا لدمشق الرائعة!

تحت ظلال الصفصاف الباكي سرنا محاذين لأحد فروع بردي الراكد. دندن  
راني حزناً شفافاً وشى برائحة انسان يكدح بحثاً عن الطمأنينة. في الغسق الدمشقي  
الموحش رن نداؤه المبحوح، طالبا أنساً لا يجيء.

وانداح صوت نايه مغمّساً بالأسى والمرارة القديمة.

خلال برهة صمت سألته : راني هل انت كئيب؟

اجاب ملوحاً برأسه وتابع اناشيده الجنائزية الخاصة.

كنت أتملى النجوم والشجر والشوارع الممتدة المرشوقة بالاضواء. تمنيت ان  
تكون مني معنا.

قال : الم تعجبك المرأة؟

- قليلاً.

- الم تتراهتمامك؟

قلت : ليس كثيراً.



لكنها امرأة مدهشة سميتها أساسية. هل نسيت؟  
وثبت نحو شجرة سنسخت. شممت رائحة الورق الذي قطفته. عبرتني  
رائحة الطفولة ورائحة أوراق خضراء قرب ساحل بحر مهجور.  
قال أبي: من يحيا في البراري تصفو نفسه كهذا الفضاء. ومن يحيا في البراري  
يرتاح من ضغائن الناس.

وعلى شاشة الخمر والتذكر عبر وجه أمي الشبيه بوجه أمينة.  
قال راني: لها زوج في باريس هجرته وتحب شاعرا في بيروت.  
وارتمى ظل أمينة على ساحلي. في حجرتها الآن ترتقب يقظتها قدومي الطارق.  
انا المخمور الناقد نساء العالم في حضنها المبهج.

- «الى متى يستمر ذلك النشدان».

وقال: أنا اشتبهها.

وبدا أسانا لعنة وقعت علينا منذ اعوام طويلة، ربما لا يعرف بدؤها. لست  
أدري كيف خطر لي أن العربي يستلقي في تابوت محكم الاقفال، ومن داخله يحلم  
بالشمس والنساء ونفض الغبار وخيوط العنكبوت التي نسجت حوله. بعنف أتخيله  
يدق الجدران للطلوع من العتم. تدمى قبضته وهو يقرع لكن سمعه يظل موقراً بالقهر  
والصلوات والقوانين التي استنت لجزره عن الحرام. القوانين التي وضعت من  
خارجه.

ويرج صوت راني سمع الشوارع: لتسقط أخلاق السائمة. الموت للشرائع وليعش  
المارقون.

واقول: لو سمعونا؟ انتبه!

وصاح: السجن أشرف من الحياة الموسومة. أنا من انصار باكونين والموت للدولة.

قلت لنفسي: اصرخ يا عزيزي راني وتوجع فالعالم أصم كأبيك.

في الشوارع والازقة طوفنا. غنى راني بشبابته ومرّ صمت وكلمات محزنة.  
تبعثرت الحشرات الصحراوية في فضاء مدينة تضم اكثر من نصف مليون

بشري يعيشون اكثر من مليون فاجعة ؛ يسكرون ويتزوجون وينامون ليهددهوها.  
- « نام يا حبيبي نام تادبجلك فرخ الحمام » .  
فجأة داهمنا فجر دمشق البنفسجي ، خجولا فتيا كطفلة تفتح ، فهرم المساء  
فينا . رفع راني اصبعه مودعا ، وانكفاً .

دمشق وليالها ، حزني والوطن الجريح . ثم منى .

- من كل الذكريات التي احملها ، انتِ ومواطن طفولتي . هذا ما تبقى .  
قلت ذلك وانا اقدم لها حفنة ياسمين حوشتها من غبضة وانا اعبر ارصفا المدينة .  
شمّت رائحتها ووضعتها على كرسي مجاور . كنا نجلس يومذاك في ساحة بيتنا ،  
والقمر يتسلل من الشرق فardاً ضوءه على جزء من الساحة والجدار ، ولم يكن في  
البيت سواها .

من داخل غرفة نومها كانت تأتينا موسيقى خفيفة ، وبين لحظة واخرى كانت  
تدخل الى البيت ثم تعود ومعها منفضة او تربيزة ، وكان يبدو عليها انها قصّت  
شعرها منذ أيام ، وطلّت قسماً منه بطلاء مذهب راح يلمع تحت ضوء القمر .  
كانت هي المرة الاولى التي تقدم فيها على تغيير من هذا النوع ، وتوجست ان اراها  
في مرات قادمة تطلي وجهها وشفتيها .

خلال غدوها كنت صامتا ادخن منكثا بكرسي على الجدار ، محديقاً في  
الفضاء المنار وشجر الشارع . عندما جلست ربتت يدها على ركبتني : هيه . الى أين  
وصلت ؟

وانتهيت . كان معها دفترها الصغير ، فتحت وراحت تقلب صفحاته : كتبت  
قصيدة وداع . هل تسمعها ؟

وأومأت موافقا فبدأت تقرأ بصوت حار ما لبث ان خفت وراح يرتعش .  
وهي تقرأ توزع بصري على وجهها المنور الاسيان ، وعلى اناملها وهي تقلب  
الصفحة بين اصابعها المرتجفة .

في ذلك المساء احسست بالحزن يكاد يرشح من شقوق الجدران ، ومن الضوء

المهمر فوق بلاط الفناء ، كانت القصيدة لميسالينا ولد دمشق ولجميع الذين عشقوها وتاجروا بطفولتها ، وللذين لم يدركوا لماذا سترحل .

بعد ان انتهت تناولت لفافة واشعلت لها . عن التريزة تناولت الدفتر . أعدت قراءة القصيدة واذ وصلت الى عبارة «متعبة تبدو الشمس فوق مدينتي . إنها تسير بترهل يشي بالموت . قلبي مرهف وعيناي تبخثان عن عينيك في صحارى مجهولة المدى بلا ماء» ، تصورت مدى فجيعتها بنا هذه التي انسكبت يوماً فوقنا كمطر شتائي خصب فبللتنا ، ثم مضينا عنها ، فمضت وهي تديننا جميعاً .

في تلك الليلة فاجأتني بانها سترحل بعد ايام ، تاركة دمشق نحو مكان اعتبرته احد اسرارها الخاصة ، ولكنها وصفته بانه مريح وعذب ولن يكون مملاً على اية حال . وسألتها : أهو الملل أم الانتهاك؟ فابتسمت بهزء : ربما كلاهما معا . ومرة اخرى دارت الاسطوانة القديمة بيننا ، عن عبث الهجرة والزواج ومحطات الحلم المفقود ، واذكر اني شعرت بالرعدة وبشيء من العار وهي تقول : انك تنسى اني ارملة واسمع يوماً الاصوات القذرة وهي تنالني . عالم دمشق ما عاد يتسع لي . في كل ليلة أشم في مخدتي وثيابي رائحة الاقدار . لقد تلوث وتسمم كل شيء هنا .

كان شعور الوحدة في غيابها يطفى علي وانا مستلق في كهفي المقفر ، فأتحيل مرارة هذه العزلة ، وضعني في هذا الزمن الخائن . لم تكن الكوابيس تغادرني في تلك الليالي . كوابيس طاغية خانقة أرى فيها اني محاصر في شعاب ضيقة وحفر لا قرار لها . واقف على حافة منحدرات عميقة مزروعة بالصخور ، وخلي مطاردون وانا لا استطيع ان اجري ، ثم ارى ابي بوجهه الاصفر المحروث باثلام الموت يناديني كي اعود الى سهول الطفولة وخيمة البحر وانا عاجز عن العودة ، أمضي عنه عبر بحار مظلمة مليئة بهوام البحر ، احاول ان اصطاد اسماكاً بشصوص هلامية ، فأهوي في البحر وأوغل في الاعماق وورائي حيتان واقراش جائعة ، وفي تجاويف الصخور اعلق . فينتقل الكابوس الى صحارى وبرار لا عشب فيها . حيوانات ميتة ، وعول وغزلان وأرانب وطيور سود تخلق في سماء حادة . تطاردني الطيور فأسمع انفجارات واتعثر بقتلى فأسقط . عبر الصحراء اشعر بجثتي تنجرّ وانا منكب على وجهي وخطوط دم تمتد كالافاعي ثم تتحرك . تطير الافاعي في آفاق رمادية وصفراء . فأتذكر في الحلم بان هذا الافق المغبر يذكر بيوم من ايام الحرب . مذعوراً اصيح : منى . منى . أين أنت؟ بضيق صدى صوتي في الغبار . وتستمر المطاردة . واصحو .

بعذوبة شهوية كنت أتمنى الزغب النابت تحت سالفها المرشوق بالضوء. واذ حاولت أن أزرع صخرة الحزن الملقاة فوقنا بكلمة: سيفتقدك القمر! نظرتُ الي ثم الي القمر الذي بدأ ينحدر خلف احدى العمارات: تحلمون اكثر مما ينبغي.

- ستبعدين لكننا لن ننساك!

باستخفاف تهز رأسها وتقول: لا شيء في هذا العالم لا ينسى. الناس هنا يغوصون في آبارهم بما فيه الكفاية.

أقول: نحن ناقصون. لا بد لك ان تفهمي ذلك. وبعيني وعله مقهورة، أصيب قلبها بيم مبكر، تنهد. لا تجيب. بهدوء أمد يدي. أنيم نصفها الاعلى فوق حضني بينا النصف الآخر يتمدد على الكرسي. يتصالب وجهانا. تتسلل أصابعي لتمسح خديها وصدغها ونحرها. وأنا أفرد خصلات شعرها القمحي، افغمتني رائحة انفاسها وقد عكرتها رائحة الصباغ: لم يكن شعرك يمثل هذه الخشونة فيما مضى.

مسدت حاجبيها وأنفها الصغير: وستفتقدك دمشق. منى! في الضوء التمع بريق راح يتفرق تحت الجفنين، تمرّد لحظة، ولما رقتها انحدر خط متعرج احسست بدفته يعبر رؤوس اناملي.

لقد عاد الحزن يشعل المكان بينا انطفأ ضوء القمر وغاب. وانا اخرج، كنت ما أزال مبللاً بالكآبة. وثباً اجتاز الشارع. وجهي مغروس في الارض والناس يعبرون. نحو جميع الدروب التي عبرنا: «الي أين؟» ودمشق تبه. كذلك منى. صحراء من العطش والجوع واللهفة، تضيق فيها ولا أحد يسأل: من أنت؟ كيف ولماذا جئت دمشق في هذا الزمن الضيق؟ منذ قامت هذه الحجارة، وشمخت، كانت ممراً فقط.

مقبرة للذين حكموا، والذين عشقوا، والذين جاؤوا من الاقاصي. خطر ذلك في الذاكرة شبيه ومض قاتل.

هي ذي حديقة السبكي مزدهرة بالضوء والهجران البشري. هنا لم يبق الا المكان والروائح وهبوب الزمن القديم. وفي كل غروب كانت تأتي ومعها مفتاح، وانت مستلق على فراشك تصلي لقدمها الاصيلي، صلاة المغرب. هوذا صوت حذائها يضرب بلاط المرمر. ويثن الباب.

- منى!

بها كان يمتلئ المكان. نمر الحجرة بالفاتنة الدمشقية الموردة كالشفق.  
فتزدهر الاحاسيس وتتلون. تهب بقدمها كل أفراح الحياة مشتعلة في النفس  
والحجارة.

وتهزني. تقذف اللحاف: أيها الكسول المتغافي.  
في غرفة معزولة عن ضجيج العالم يورق نشيد الفرح والتملك. أتأمل نافضاً  
غبار النوم الكاذب، ثم أثب مسحوراً لأتلقاها داخل هذا الحجر الصغير الذي  
يؤويننا. تتحرك. تقلب الكتب ثم تتناول زجاجة بيرة، وتفتح الراديو.  
- انا جائعة.

تحضر الطعام وتبدأ المسرة.  
تقرأ شعراً بدائياً. تسألني: ما رأيك؟  
ابتسم اغماضاً. ندخن. أقول: لديك امكانية.  
- سأكون شاعرة هاه؛ احلم بوطن من الشعر.  
- بل بوطن من الانس. أنت مستوحشة.

بمحايدة ظاهرية تضحك. أتملئ بشرتها المعجونة بالثلج والنار، ثم شفتيها وهما  
تمصان اللقافة بعصبية وتوق.

اقبلها بعبودية خاصة، ويبقى وجهها الساكن بلا تعبير، فأطوق خصرها  
واضغط بعذوبة: نخب... نخب ماذا مني؟

- نخبنا.

- ومن نحن؟

ونرفع كأسينا. بضيع السؤال. تتحرك حركة مقصودة مفلتة خصرها من يدي.  
وتدير بحري الحديث نحو عالم آخر.

- «لماذا يحدث ذلك»؟

أتساءل في سري، رانياً الى تعابير وجهها بحسرة خائبة.

هذه المرأة قائمة قربي، تلامسني، داخل اربعة جدران، تحت سقف، فوق  
فراش فيه رائحتنا الآن وقبل. أشم رائحتها في الحجر، وفي هلام الغرفة، في  
الكتب والاولاني، وعلى الحصير والمخدة. ألمسها، أمسد شعرها كما الام للطفل  
وأحتسي الرائحة من النحر والثديين والابط، ومن مرج ظهرها اللامع الفسيح  
المهد.

مرة ايضاً، وايضاً، لا الجسد يجيب، ولا النفس.  
تتنفس فقط كمن يُحتضر. بحشرجات قسرية تتلعلل كأنما تستشهد.  
دونكيشوت السهول الياقوتية، المبحر عبر جحيم الجسد، والموت اللذيذ، ينكسر  
طعيناً في ساحة حرب.

- الم تعرفي الجنس مني؟

- .....

- قولي ما الذي تحببينه؟

باشمتراز: هيا... يجب أن ننتهي من هذا القرف!

وتتملص كمن يختق بجبل مسموم.

وهي ترتدي تنورتها على عجل، تبسم هزئة من كل قيم العالم. نصمت ثم

تقول: لماذا تسأل؟

- لماذا تخافين الجنس؟

- هل ينبغي أن أقول أنكم مغتصبون؟

- هذه الأنتم القدرة. كم هي مؤذية!!

- بيننا مليون سنة ضوئية. أنت لا تفهم أحياناً كما ينبغي..

- بل بيننا اللطخ الداخلية.

محزن وجه مني المظلم اذ يتعثر بالجنس. أقتل مع نفسي كي يُضاء. ومع

الايام كانت كالاثلام تنحفر في ذاكرتي، واشمة ممرات النفس بعلامات لا تنسى.

في دمشق تبدو الاشياء حادة كحرف السكين. ثم نذير توقعه يحدث في اية لحظة. وفي جميع النهارات والليالي نبتلع تلك السكين الواقفة في الحلق. السكين التي لا تسقط وتنهينا.

ودمشق ليست كما اشتيت وتصورت : اوقيانوساً مزدهراً بالغبطة والكشوفات النبوية.

أصوات البيع والشراء. النساء الشهيات يتصبن امام عينيك ورغباتك المكبوتة بقامات كالقصب ثم يختفين كحلم. الخمارات، والمقاهي، والسيارات المجنونة، والناس غير المهمومين ما بقي البيع والشراء. ثم هذه التي دُعيت زوراً: الثورة. الحياة تجري باسم الله مجراها ومرساها.

ووحدهك تعتقد انك حامل هموم العالم، تبحث في المداخل والمخارج، في الزوايا والتكئات، وفي الكلمات والوجوه، عن شيء محباً ترومه امانك الخاص.

محطات. محطات. ولا امان. والغبطة الروحية تبدو وهماً خادعاً. مدينة بحجارة وبشر، وأينا وُجد البشر تنوخ الاحزان. وتعبر. تتوقف قليلاً ثم تمضي. القطار يمضي، ومن النوافذ ترى الزمن. الناس والاشياء تمحوهم سرعة القطار، ويمضون. والريح تحمل الروائح فقط. وتتساءل: «ما معنى هذا الجسد ان كنت لا تصل»؟

وينفجر الشوق لامتلاك العالم. يتبدد داخل حوافي الجسد. بضوعٍ وتشم الروائح فقط. وسامر البدوي وحده يتمرد خارجاً من منطقة الروائح.

زمن قاس بيده سوط. يسوقك من بوابة البيت الى مستنقع الوظيفة، ثم الى الشوارع والامكنة الاخرى. مهرولاً تحت غمامة كثيفة توشك ان تمطر كذباً وخدائع.



يكاد صوت رعدھا يدوي فيك ، فيه ، فيهم : احد ما ليس في مكانه الطبيعي .  
أحد ما لا يستطيع ان يكون ما يود أن يكون !

وفي سري احببت سامر البدوي . وفيما بعد حزنت من أجله ثم اكتأبت اكثر  
لأنني لم أستطيع ان أحبه كما أريد .

لم يكن صعباً اكتشاف فسحة بؤرته المركزية التي تمتد لتطال الآخرين ،  
ولا حماسه لخلق إشعاعات مغناطيسية ، تقول ساحة الانا فيها : مني تصدر قيم  
الأشياء والي تعود .

لكن هذا التدرن الأعلى لا يمزق علاقتك به بعد أن تفهمه جيداً . سيتم  
ذلك بعيداً حتى لا تصبح شاشة يعرض عليها مغامراته ومهرجانات ألعابه الصغيرة .  
في بيته سقانا ويسكي ناشفاً بلا أي مزج ، وأسمعنا موسيقى ، وشعراً له .

قبيل الفجر انسحب راني ، هارباً من الجوّ الجاف الثقيل . واذ عرفت ذلك  
متأخراً ، أحسست بالغربة والحنق . حتى انبلج الصبح ، وأنا أدور في شوارع الطرف  
الشمالي من المدينة . في رأسي المصدوع طنين لا يتوقف ، وفي عظامي استوطن كل  
برد الفجر . ألف الشوارع ولا أعرف كيف أعود إلى البيت . وفي دمي شهوة مخمورة  
لامرأة تنتظر وحيدة في حجرتها .

- متى تكتب الشعر؟

- عندما يتعني السكر . آنذاك يصير العالم طيفاً ورؤى فأدخل هلام الألوان  
والصور المتراثة .

- لعل هذا يفسر ضباية شعرك .

- ليست ضباية . أنا أكتب بالرائحة واللون والوجع .

- الوجع الخاص !

- ومتى كان الشعر غير وجع رؤيوي شديد الخصوصية؟

- لدى معظم الشعراء العرب القدامى على ما أعتقد .

- أبدأ . في شعر طرفة إحساس أبدي بالموت ، وصبوة ذاتية للخروج  
والرفض لعصره . أمرؤ القيس كان صوت الفرد الذي يرغب امتلاك العالم من  
خلال رغباته . النواصي أيضاً . الشنفرى وعروة ، ذؤبان العرب ماذا كانوا غير ذلك  
الصوت الخاص الذي ينمو في النفس وبعد حين يصدي بوجعه .

- كانوا استثناء!

- هؤلاء هم شعراء الأصل. لقد تخلصوا من سرطان المديح والهجاء والوصف السخيف المتمثل في مدرسة البحري وجريز والفرزدق إلى آخر القافلة المعروفة.

- لكنك تبدو مغرقاً في الذاتية. يخيل لقارئك أحياناً أنك تهلوس.

- ربما. الشعر رائحة وطعم وموسيقى. تماماً كما تنتشي بموسيقى موزارت لأول مرة دون أن تعرف عنه شيئاً. الشعر لغة سرية. نوع من الغيبوبة الصوفية تبحر على منها دون أن تسأل إلى أين.

كان الآن على تخوم حالة كتابة الشعر. وجه دام يتألق بجمرة خاصة، وعيناه تلمعان كعيني قط بري متأهب. وراح صوته بقرع كصنج من نحاس بينا يدها تتحركان في الفراغ حركة افتراسية، وفي ربي وجهه امتزجت القسوة بالامتلاك. كان منفعلاً بضعف بادٍ.

واذ سألته: في شعرك لا يبدو أي أثر للثورة، رجّ ضحكة واثقة. غبّ شيئاً من الويسكي واشعل لفاقة «لوكي» ثم نشق: ماذا تعني بالثورة؟

- الالتزام بالجماهير. ألسنت منخرطاً في الحزب؟

- أحياناً تبدو خبيثاً رغم ان هذا لا يبدو عليك. يا عزيزي المثقف المتغابي من الذي قال لك ان الشعر صدى للجماهير؟

- وهل هو صدى نفسك؟ أنا ماذا تعني حياتك الشخصية المبجلة؟ ثار. رفع صوته. ضرب يده المنضدة. اتهم. قدم تقارير مشوشة عن رامبو وبودلير وأبو لينير وبيرون. لكنه ظل متهماً فغادرته.

حياة مفعمة، مرتعشة غريبة. ارتدى في جحيمها يوماً، ومع الزمن صارت طقسه الأبدي. قفصه المحكوم بالعيش فيه.

ومن راني إلى سامر البدوي تمتد مسافة من العلائق البشرية. راني مسحها واستطال فوقها، بينما كان سامر يرعاها بثوانيه لتصله بعالمه الفردي، وتراثه الجنسي.

بحياته فقط أقنعني. بهذا الاخلاص اللانهائي لما يرغب جسده الفاشي الذي استعبده.

أمسكتني يد. بصعوبة فتحت عيني. نشب الصداع، وجرتني أمينة إلى  
الحجرة.

- أمكذا تفعل بنفسك؟ سمعت الحملة كطين. تمتت كلمات ناشفة.  
وارتميت على الديوان: كم الساعة الآن؟

- الخامسة. أين كنت؟

- في الشوارع.

- أنت ثمل.

- متعب وأود أن انام. متى يستيقظ؟

- منذ ساعة نام.

وباستسلام تمددت، غير عاين بما قد يحدث.

بين النوم واليقظة سمعت سقطة الباب تسحج، وأحسست لحافاً ناعماً  
يغطيني. ثم لا شيء.

بعظمة الموت وكراهيته، قام من قبره. خطا نحو بيتنا القديم، خطوات وثيدة  
كمن يمشي في الهواء. كنت أراه وما كان باستطاعتي أن ألمسه. كان ميتاً وحياً في  
مكانين مختلفين. رأته يطوف حولي ويرفرف بأجنحة شفاقة. يقترب ثم يبتعد كأنما  
في وجهه كلام يود الإفصاح عنه لكنه لا يقوى. وسألته لماذا مات هكذا بغتة  
وتركني وحيداً، فأشار إليّ بأنه لم يتركني، وفهمت انه يراني أبداً ويشاهد حياتي.  
وبدا لي هناك على حافة الضوء والظلمة أسياً غير راض. وسألته ان كان راضياً عن  
حياتي وهل حياتي رديئة. وماذا تقول عني أوراق الباطن والظاهر التي ابتلعها  
فارتسمت الواحاً أبدية على جدار جمجمته.

وقلت: ألا يكفيك أنني ورثت عنك الخمر وحب النساء، وأن عصور  
الرداءة الدونكيشوتية لا تنتج فرساناً كالذين حلمت بهم وأنت تصب شهوتك فيها،  
وأني وقعت في المغريات وفي حبال نفسي التي وصفتها بالأمانة بالسوء. وأنا  
لا أرغب أطفالاً من امرأة، وما عاد باستطاعتي أن أعود إلى البيت.

ورأيته يشير نحو امرأة قريبة تشبه أمي ونهاني أن أبتعد عنها. وهلوست بأنها  
امرأة وحيدة تهدم بيتها، وأنا أحاول أن أعيد لها بناءه من أجلها وأجلي. ودخلنا في  
حوار مشوش غير مفهوم حول الحلال والحرام، والخير والشر. وبدأت هالته

النورانية تشحب وتنسحب. كان متشحاً الآن بألم عميق وبجراحه، وبدأ يغيب.  
وصرخت: لا تركني. خذني معك. وهزى مني، ودنا نحوي فغطتني نظراته باحتقار  
شاحب، ثم استدار وراح يخطو في الفراغ. وقلت: امض. أنا أكرهك وأكره أُمي  
وأكره بيتي القديم. عد إلى قبرك. عد. وفي غمرة من ضباب اختفى وحضر وجه  
أُمينة متعباً، ضارعاً، ثم حضر وجه مني، ألقاً، حزيناً. وامترج الوجهان داخل  
عالم غريب مسحور. ورأيت مرجاً من عشب أخضر قرب ساحل بحر بعيد.  
استلقينا متعانقين بين الأعشاب. كانت الأعشاب رطبة والمياه تجري قربنا. وكنت  
ظامناً كأنني ابتلعتُ صحراء. عندما أيقظتني أُمينة كانت تمد لي كوباً من العصير،  
واذ استفهمت بعيني منها قالت: كنت تصيح: الماء.. الماء..

ذات مساء داهمتني فكرة صياغة نظرية عن الانسان العربي ، سميتها بيني وبين نفسي : التعويضية . واذ قرأت قليلاً من علم النفس التحليلي وآدلر ، انكفأت وقلت : لا جديد تحت الشمس .

كانت الحياة في دمشق قد انحرفت عن مجراها الطبيعي ، بعد أن تاهت مني وابتعدت . وتعثرت بأمنية .

لقد حدث انحراف فردي تعويضي ، نحو جداول فرعية اسمها : الخمر والجدل السري والبحث عن النساء والأرصدة وميتافيزياء الأحاسيس المنفية وسائر الثثرات الأخرى .

بدا ذلك رداً فاشلاً ضد التبريرات الواقعية الملونة بالكذب ، وضد القصور . وفي الوطن الذي تغلغل في مجرى الدم ، كانت الأنماط تحترق بهدوء وسكينة في عربة العطالة .

لقد تلوث الزمن .

وفي ذلك الزمن كنت أشعر بأنني متوحد ومنني كشجرة في قفر ، في مهبّ ريح سموم .

ولأنني صممت أن أكون نفسي ، رفضتُ وثنائق التبرير ، فكرة الضحية للأجيال المتقدمة على انقاضي .

في لحظات الصحو كنت أتأمل كمن سرى فيه سمّ ، سائلاً اللاشيء : كيف حدث ذلك ؟

في النادي التقينا . عاتبته لأنه تركني في بيت سامر وحيداً . وفسر هروبه بملل الجوى ، وكان حزيناً في تلك الليلة .

- ضاجعت أمينة صباح ذلك المساء.

وزعق فرحاً: معلوم. عوضت أيها الشبل اللعين عن غيابي. اشهد أنك قت بعمل ثوري عظيم.

وقلت: حدث ذلك صدفة.

نهه: في علم النفس لا يوجد شيء اسمه صدفة.

- إلى متى ستظل تطاردني بالرفيق فرويد؟

فهقه لكلمة رفيق: علم النفس التحليلي يقول ذلك: أنت كذاب. ما سيحدث جاهز في اللاوعي. ايه. احك لنا كيف كانت أمينة؟

- لماذا لم تقل الرفيقة أمينة؟

وأشرعنا ضحكتين تناسلتا في لحظة واحدة، ثم قرعنا كأسينا.

يصح جسدي عندما أضطجع مع تلك المرأة. أشعر وكأنني خارج من حمام بارد في نهار قائف. في أزمته الرداءة تختفي الأشياء الجميلة. حدثت بذلك وأنا أسوح في بحار جسدها المجهول: كيف لم يكتشف زوجها الغبي هذا الجسد الفائض بالنعم والخيرات الالهية؟

- أليس حراماً أن يهجر ذلك الجسد من أجل الخمر؟

قال راني: يا سبحان الله. يا أخي خُلقَ الانسان ملولاً!

[ ]

راني بوجهه المحروق، بعينه العميقتين، وكلماته المنبوشة من أعماق الفهم النفسي للانسان، يعيد بعض الطمأنينة. يعطيك مسرة خاصة في عالم مقلوب يمشي على رأسه.

- حياتنا الطبيعية تحولت اسراراً بفعل التعامل مع المحرمات والتوق النابع من حاجة الجسد والنفس.

- يحيا التعويض في العالم الثالث.

وفي ذلك المساء يفيض شجناً عن التي يحبها. بولّه حكى بعد أن شرب كأسه الثالثة. كنت صامتاً أكثر الوقت لهذا الذي تلوح فيه بشائر الضعف البشري المقدس.

كانت المرأة تنسكب نحو اغواره فتحيبي أحزانه النائمة في أرض مقفرة ، واذ يفور حزنه بصير حيويًا شفافاً كالدمعة ، آنذاك يلمع الانسان فيه منبثقاً من خلال كل ذلك الوشل والركام الطافي فوق سطح حياته .

قرأ لي رسالتين في تلك الليلة ، احدهما منها والأخرى منه . وتحدث عن أزمة الرضى والاكتفاء . عن الطفولة المحرومة وحنان الأم ، وعن الفشل صديقه الحميم ، «ولينا» الخائفة الا ترضيه .

على وجهه لمحت الرعب يمشي . قانع وخائف ، لأنه اعتاد فقدان واختار الغضب النفسي ، حتى أزمى النقص فيه ، بدا موجعاً ومذعوراً من قناعاته الموبوءة بالشك .

ولست أدري كيف تحلل راني في تلك اللحظة الخاطفة ، وامتد تحت سهاواتي الملعونة بالرصد حتى صار جيلاً موسوماً بلعنة دهرية تسحقه صخور الاحباط ، يسقط ألف مرة ويقوم ، وفي كل سقطة يخسر شيئاً من جسده ونفسه .

عبرنا جميع الشوارع التي نحبّ خباءها العتمى . غنينا أحزاناً لدمشق الغلسة . جلسنا على الأرصفة . بكينا . صرخنا .

قال راني دامعاً : لو ان لنا معنا الآن !

صمت .

- أحلم بحياة مفعمة نعيشها سوية .

رنوت إلى النجوم الذهبية اللامعة .

- ستكون لك غرفة خاصة في بيتنا ، تنام فيها مع أمينة ومنى . ما رأيك ؟

تحركت الريح بشجن مسائي ، تغفل في حشا أيامي التعتات . أرسلت صغيراً غامقاً امتزج مع أنين الريح . كنت منقطراً من الحزن .

وهاجس راني الليل بشبابته : «هيات يا أم الزلف . لينا يا عينيا» .

قطفت زهرة ياسمين . ناولتها له : هذه للينا .

في الفراغ قفز بطفولة غنائية وقبلني : يا أعذب من في دمشق .

وسرحنا في الليل . صبيين فقدا الهناء . رانين إلى الطمانينة الهاجعة في الغرف

النائسة الضوء .

فجأة سأله : هلا حدثني عن المرأة الأخرى ؟

وحكى بشجوة: متروجة ولها أطفال. فاجأتها يوماً وكنت مغلفاً بشوق حقيقي إلى امرأة: أريدك يا أنجليك. كان ذلك في ليل معتم وهي في ثوب نومها الشفاف، أصابها مس من دخولي المفاجئ. ودت أن تصرخ فكمت فيها. سحبتها إلى غرفتها الخاصة. كان هناك سرير وأرض مفروشة وكنت ميللاً بالمطر. بعد صمت أشعل لفافة وتابع:

تعرينا. أنا عريتها بيدي هاتين. كانت ما تزال في بحر ذهبها عندما انتهينا.  
- ألم تخف؟

حرك رقبتة يمناً وشمالاً. توقف فجأة: لم أخف؟ سمعت الخوف يخرج من حلمتي ثديها ومن أظافري. كان يختلج في الثواني وفي الأنفاس وعلى سجادة الغرفة حيث تمددنا، صار للخوف أرجل وعيون وآذان. تصوّر أن تقتحم بيت امرأة ضابط في غيابه: لقد تقمصني الموت لكن الجنس كان أقوى.

- كانت رائعة؟

انجاب حزنه لحظة فصله كمهر فوق مرج أخضر. مد ذراعيه في الفضاء وجرى مسافة، ثم توقف: أتسأل أيها الزنديق عن امرأة دمشقية ان كانت رائعة؟ كانت ذهبولاً جسدياً يُشَمّ ولا يلمس. أم... أم...

حمم واثباً في الهواء، بكل انشاء الانسان، وفجأة سكن. ومن سماوات خفية، انهمر الحزن. شطر لحظة الفرحة المباحة، وولدت اليقظة لماذا الفرحة ناقص فوق هذه الأرض الملعونة؟

إزاء حديقة «المدفع»، رحت أسير ببطء، مُكبّاً نحو الأرض أعد مربعات الرصيف تحت الضوء. تحرك نسيم صيني رخاء هز سكينه الورق الأخضر فوق أشجار الحديقة.

- راني. أنت نادم؟

لم يجب. انكبّ هو الآخر فوق سياج الحديقة. فبدا مطرباً كجنين في رحم أمه.

وأنا أسير تذكرت حديثه عن الأحلام العارية مع أمه، والندم الذي يطارده مذ ماتت، وندوبه الداخلية.

- أنت تتحب!



ونهبض. مشى نحوى مترنجاً ثم تخطاني، وراح يدق بابقاع وجيع أرض الرصيف.

[]

بتهمة العطب ألقى القبض عليك. دمشق قالت لي ذلك وتاريخك الوراثة. ثم الحب المفقود.

- «أين يوجد المثال؟».

- في براري المنفيين الذين اختاروا مناطق الخطر.

ويوما وددت أن تجري الأحداث كما يجري النهر، بعيداً عن ردود الفعل والثرات.

كما الإبرة المغناطيسية تتجه نحو الشمال، اتجه نحو غرفتها. الخمر، أم الرغبة، أم شوق حنان الأمومة، أم صوفية الليل، توجهني مأخوذاً متوماً نحو المرأة التي جرثمت جسدي؟

ضوء الغرفة يتشر من خصاص الشباك، والمطر ينهمر، كذلك ضوء غرفته هو الآخر.

لما تم. هو أيضاً يكرع الخمر، وحيداً مقرفصاً فوق جلد خروف متسخ، قرب مدفأة حطب موشكة على الخمود.

تحت المطر أتوقف. ثم باسم العطب والتوق، ادخل.

الطفلة سهري. تحية محترمة. سؤال رصين يحمل أقصى النبل الظاهري.

- كيف المدرسة سمية؟

ثم جلسة متماسكة فخورة بالشرف والحياء الفج.

- نحن لا نراك إلا لماماً. قالت الطفلة.

- العمل حبيبي. أسافر في إجازات ومهمات باستمرار.

- لكن نحن نود أن نراك دائماً.

أبتسم.

وفجأة تسأل أيضاً: لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

بعينين حائرتين أدور في سقف الغرفة. أسأل نسيج العنكبوت المتدلي من زاوية

السقف أن يسعني بجواب. أقول كاذباً: أسكن مع أصدقاء في بيت واحد وأحياناً تأتي أمي.

- لماذا لا تأتي أمك وتزورنا؟

أمينة يكاد يغمى عليها. تود أن تصبح بالبنت: أن اصمتي. تتجهم: سمية. آتني بالسماور من المطبخ.

وإذ تطبق سمية باب الغرفة، تثب أمينة كغزالة عطشى. تشرق ابتسامتها مغموسة بشهوة مستورة. تفتح حولي قليلاً، ثم ترتني في حضني وتغرس شفيتها البارئين في شفتي. تطوقني بقسوة جنسية مفعمة بالأمومة. ثم تدور بردفيا في حضني. وإذ اعتصرها تموء ثم تزقو بدلال دمشقي: أووه. أنت قاس علي. تعذبني بغيابك الطويل. قبلني. وأمتص شفيتها بشهوة ولدت الآن.

إذ يقبل خوفها، تنهض. وجهها مورد، وعيناها تلمعان ببريق مستسلم. تنفتل بعيداً عني وتغمز نحو غرفته، رافعة يدها الفارغة مشيرة إلى الاحتساء اليقظ. - أعرف. اسمعي سآتي اليوم.

وتقول همساً: لكنه يتأخر. منذ أسبوع يسهر حتى الثالثة بعد منتصف الليل! تهب في الجسد رغائب الطبيعة، وشهوات الدم المحرور فأصرخ فيها: اسمعي. سآتي ولو كان ينام معك في فراش واحد.

كهمزة صغيرة فرحة، تقبل سمية. راسمة ابتسامة أزلية لا تغيب. تنط فوق سجادة الغرفة معلنة بحركاتها الترحيب بقدومي.

تفرد ذراعها وهي قادمة: ماما..

تعترضها بعبوس: سمية!

- دعها. لماذا تصرخين بها هكذا؟ الأطفال لا يُصرخُ بهم.

تشر أنني أمرها كزوج، فتصمت.

- عمو. لدي لوحة جديدة رسمتها في المدرسة.

- أرينيا.

وأبدي إعجابي باللوحة. أشير بملاحظات هامشية عن اللون والمنظور بينا أمينة تعدّ القهوة.

أنا وأمينة حالة هوس. قطبان: موجب وسالب يتجاذبان. أفكر بالحرام الموروث، والصبوة الدمشقية الممتعة، وخسائر الحروب الطويلة، والتعويض. ثم أقول: «عبثاً تعوّض بك زمنها المنقرض. لقد سافر الرضى إلى مجاهل نائية. وما هي وحيدة معك داخل زمن تبدو فيه حراً وهي مأسورة»؟

تقدم القهوة باجلال. أتناول منها وهي جاثية على الأرض قرب قدمي.  
- «أنت حرّ في زمانك أيها السيد».

وأنخر سخريّة من نفسي، ومن هذا الزمان الذي أحيا فيه. زماني المخصي. وأنا أحتسي القهوة أرتني الطفلة وظائفها. صحّحت لها بعض الأخطاء بعد الشرح. وراحت تحدّثني عن غباء مدرّسة اللغة العربية، وقسوتها عندما تثير أبة طالبة سؤالاً يجرّجها.

كان وجهها مائلاً، قريباً من شفّتي. شممت رائحة شعرها القصير الكستاني. كانت لها رائحة أنثى تدرج نحو النضج.

وداهمني إحساس آثم، جرثوم العطب نغل في الداخل رغماً عني. كان ذلك مربعاً ولعيناً رغم لذته الآنية. الام والأبنة معاً: آه. يا للهول!

- كانت أمّنتك أن تختص في علم النفس.

وقال راني: سأحقق هذه الأمنية في نيويورك أو لندن.

صحت بخباثة: في بلد الأمبريالية العالمية؟

بدعابة قال: أنت جدانوفي. هكذا تبدو لي أحياناً.

وقلت: الذي سيمنع روايتك جدانوفي ومكارثي معاً.

بهبه: روايتي رواية قومية.

ابتسمت هزناً: هيه. يا للراوية القومية المفعمة برائحة الجنس!

- أيها العقائدي. إسمع.

- تفضل.

- أزمة الثورة مرتبطة أساساً بالجنس في جانب من جوانبها الاجتماعية

والنفسية. أحد السياسيين الكبار في هذا البلد قال: لن تكون هناك ثورة في هذا الوطن ما لم تُحلّ قضية الجنس والدين.

بدهشة مرحة قلت : لو كنتُ مكانك وسمعت هذا التصريح لالترمت فوراً بالحزب .

مرة أخرى انتفج : أنا عقائدي حقيقي بلا هتاف ولا صنوج .  
تحت مطر دمشق الليلي أيضاً . متعة ذاتية بخاصية المطر والبلل . في مكان ما امرأة تنتظر ، ستسرح عبر مروجها الخضِر الطرية بعد دوار طويل . إحساس يسكن قرارة النفس ، يبرر هذا الدوار المتعب .

دوران الشوارع في ليل بليل . حبات صغيرة باردة تنقر معطفك ، تورث إحساساً شعرياً بالتشرد ، إحساساً مبتلاً بالحزن الخفي ، بالعودة البدائية إلى فرح الأشياء . ثم هذا الومبض السحري للجنس المرتبط بالأسى في أخريات المساء .  
الناس الأسوياء والناس الناقصون . النقص الهرموني والطفح النفسي . ما في الرأس وما هو قائم على الأرض .

عوالم بعيدة ساقطة في أغوار التاريخ . تشيل ، تشم رواثحها في هذا البلد الأمين الذي باركه النبي لكنه لم يدخله .

- «أهذا ما كنت تحلم به يا عزيزي المهاجر من وطن الشمس والبحر إلى وطن الحب والشعر والثورات والبشر الأنقياء» ؟  
- «وأنت ماذا تفعل الآن» ؟

وقبل الآن وفي جميع الأماسي والنهارات .  
الليل يدخل في النهار ، والنهار يدخل في الليل ، وأنت تدخل فيها ، وهما يخرجان منك . أمينة فيك ، وأنت في منى ، ومنى خارجك ، وراني يعبرك ، وسامر البدوي يحاذيك ، وانت خارج من نفسك ومن أمينة ومنهم . مرثية معاصرة ينشدها رجل ثمل ، مفعمة بالحزن ورائحة الموت . آه . لو تدري ما تفعل ! هم أيضاً لو يدرون !

- «اللهم اغفر لي ولقومي» !

- إفتح باسمم ، إفتح . إفتح للعربي الناقص في العصور المنحطة .  
وتشب أمام وجهي هامة : لما ينم بعد !

أختي ماتت بالربو في عامها الثالث. هكذا أخبرتني أمي بعد أن كبرت.  
وإذ سألت أمي: لماذا ماتت؟

تنهدت وقالت: بإرادة الله. الله يحيي ويميت من يشاء بغير حساب يا بني.  
وظلت طوال حياتها محسورة عليها.

سألت مني: أريد منك صورة وأنت صغيرة. هل لديك؟

- سأبحث لك. ولكن لماذا؟

- أريد أن تراها أمي.

- أمك أم أنت؟

- أمي.

- ما علاقة أمك بصورتي.

- سأمزح معها قائلاً: أنظري. هذه كان من الممكن أن تكون خطيبتني يوماً.

- وإذا ما سألتك عني؟

- أقول لها هاجرت إلى بلاد نائية لتموت بالربو.

رفعت ضحكة عالية: بالربو. لماذا تميتني بالربو؟

وابتسمت: نكتة عابرة. أنت مسافرة ويجب أن تفرحي قبل الرحيل.

كانت مني تعتقد أنها وجدت زورق الإنقاذ الذي سيحملها بعيداً عن دمشق

بعد أن صممت أخيراً على الهجرة.

كان مساءً عذياً، بدأ وجهها فيه متألّقاً كقمر ناضج. وكنت قريباً منها في

ذلك المساء. الإحساس نفسه لصديق اختلفت معه ثم غاب فجأة أو مات. لست

أدري كيف اقتربت مني، وبدعابة مفاجئة طوقت عني مبتسمة: آه لو أحنقك!

كانت أناملها الملساء الطفلية تضغط بحرارة، وانحدرت نحو صدري وراحت تدغدغه.

وجهها الملامس لوجهي يغسله ضوء القمر. وذوائب شعرها الفاتح يمس فوق شفتي. يومها كانت أنفاسها المفعمة تدخل في مسام جسدي كله. لحظتها تذكرت أحلام المراهقة عندما كانت تُذكر دمشق هناك.

- «أية آمال حلمت بها قبل أن تدخل دمشق دخول الفاتحين المنكسرين؟»  
وأملتُ وجهي فالتصق بخدها. رمتُ تقيلها وحملها إلى الغرفة المجاورة وفجأة تذكرت اصابتنا.

من جيبي أخرجت علبة التبغ، ثم قفزت بعيداً، وبحركة مرتعشة أشعلت لفاقة، مجتّ منها ثم ناولتني.

ثمّة صديق يموت. يقوم بحركات وداعية في لحظة مزج بين الحياة والموت. هكذا كنت أشعر. لحظتها ولأول مرة أحسست أنها تحبني أكثر من أي وقت مضى.  
- «لو يموت أحدنا وتنتهي هذه الملهاة!»

مصصت عقب اللفاقة، فأحسست طعم شفيتها. كان كل شيء يتراقص كحلم في تلك الأيام العصيبة.

الشوارع أيضاً. قرع حدائي على الأرصفة والأسفلت. مطر. مطر. مطر. حزين، له طعم الجنس والشعر يلالي فوق رأسي ثم ينسكب في داخلي: أبو ناصيف. بطحة من فضلك.

ولا ينبس. أناوله ويناولني. وأهيم فوق الدروب تحت السماء المطيرة. أذكر أحبابي وأشرب. أذكر أحزاني وأشرب. أذكر وطني وأشرب. أنعطف في طرقات دمشق. أكرع وأدندن تحت المطر ولا عزاء. وفي الداخل يسقط مطر آخر.

[ ]

الضوء الأحمر يعقبه ضوء أزرق ثم أصفر، تلك هي الثورة.  
لا. هذا عالم «التيفولي» الصاحب، المفتعل. نوازل كاذبة مدلاة من السقف، صنعها ديكوراتي يتقن اللعبة جيداً. ثم الرقص والموسيقى المحمومة.  
عالم مصنوع. عالم سامر البدوي المستلقي الآن في حضن إحدى عشيقاته

المسرات، يغيب فيها حتى يفرغ ثملته، ثم يسترخي ووضجر، ثم يهاجر في ظلام دمشق مهزوماً مثلي الآن. ولكن من الذي قال انني محمور؟

أنا مضواً، مبحر في عالم سري نحو بواطن الأشياء. أريد أن أكتشف الذي لم يكتشف. هذه كذبة ضخمة صنعها المثقفون المعزولون. أريد أن أشم روائح الأشياء، وأن أضبط العربي في جلسة سرية. أن أقذف به عارياً في وجه مرآة. أريد أن أشرف عليه وهو يتزف لأقول له: أنظر إلى دمك. أنظر إلى تاريخك. أخرج من العصور الوسيطة وانظر إلى شمس القرن العشرين.

وأقول له: أنت... أنت... أنت...

ولكنه يعرف نفسه جيداً عندما يخلو في غرفة خاصة. وعندما يسكر. ها. ها. تلك هي طاقة الإخفاء.

مباركة أنت أيتها الخمرة. طوبى لزارعي الكرمه وصانعي الخمر وسقاتها. طوبى للانسان الذي يكتشف أسراره بالخمرة فيفصح عنها بعد رحيل الخوف وإنهدام الجدران.

ودمشق قطار مُحَمَّل بالأمتعة، مُحَمَّل بسراب ملطخ بالدمقس والبروكار والنوازل، والانقلابات التي تتركب قطارات الثورة. وفي دمشق كل شيء يتلوث بعد حين. تاريخ رخي موشى بالدعة والمقايسة والكسب.

هنا الحياة هلامية. غرباء كسطوح المستنقعات وهذه مملكة السباح. جمهورية القتل والنساء البيضاءات، يجتذبن برخاوة أصواتهن، وتهدج بحاتهن، سامر البدوي: الثوري اليساري الملفوح بشمس الصحراء، والحامل في دماه كل عطش العربي في القرن العشرين.

- «غَبَّ حتى ترتوي. هذه المدينة مباحة الآن ولك زمن محدود».

- التاريخ لا يتراجع. ومن يمتلك ذاكرة وقادة كالبرق ينتصر في النهاية.

ولو حاول شاهد إحصاء خطواتي تحت المطر، لتعب. نامت المدينة الآن. أضواء حمر تشف من النوافذ المغلقة، والمطر بلل العائق الهيمان الذي صار كالخرافة.

- «إلى متى»؟

وانعطفت.

حي المزرعة حيث تهجع حبيبة جسدي ، متشح بظلام يوحى بالسكينة ،  
والحراس قد ناموا . خطوات في الشارع الفرعي . اللص الثمل المجنح بالجنس يطير إلى  
مراقد الخيانة . لكنه لا يسرق مالاً ولا مدناً ولا سلطة ونحت أبطه لا يخفي بندقية .  
لا يطمح أن يكون ملكاً ولا قديساً . فقط يشتهي امرأة في ليل ممطر . في ليل  
حزين .

خطوات . قلبي يدق فزعاً ورهبة . مُشْتَهٍ ومتوجس . مقررور في ليل دمشق  
أبحث عن كهف دافئ .

نقرات ثلاث هي كلمة السر . ويشق الباب الهويناء .  
- أهلاً وسهلاً . تفضل .

تحت الضوء النائس ، وجه مدلّي مقهور ، حرثه الزمن باليأس والخمرة . قامه  
أحناها التعب والمرأة المضغونة .

- كنت ماراً من هنا ورأيت نورك مضوياً .  
- جئت في أوانك .

وولحنا . قاذني إلى غرفته ، ومهد لي السرير :

- هنا . اجلس هنا . أنت مبلل . إخلع معطفك وتدفاً . ورميت المعطف .  
تناوله وراح يجففه : مطر عجيب لم تشهده دمشق .  
- تصور من النادي إلى هنا . صرت هكذا .  
وبصوت متعب قال : طقس الشام معروف . بلدنا صيفاً محراق وشتاءً مغراق .  
وغزلت عيني أرجاء الغرفة .

- « هذا كهف أيوب السرحان اذن ! »

سرير عتيق ، وثياب وسخة مرمية بفوضى في كل مكان . كؤوس وزجاجات  
فارغة . مدفأة حطب رمادها أكثر من نارها ، ثم هذا الغبار فوق الجدران المطلية  
بدهان باهت . وهذا الرجل المهتم .

في رأسي كان العالم ينقتل ، وخارج بوابات الخوف والمفاجأة ، استقرت  
أحاسيسي .

- ما رأيك بكأس ؟



تجاوزت السؤال بمحايدة خبيثة وسأته : هذا البيت أليس كبيراً عليكم؟  
صبّ كأساً من العرق مزجه بالماء : كبير ورطب .

ثم هز رأسه بتوجع : ألف مرة قلت لها لنؤجره ونسكن بيتاً صغيراً . السيدة  
المحترمة لم توافق . محال . الحجر يفهم أما المرأة فالعياذ بالله .

ثقب صغير تفتحه في سد فيندفع الماء المحصور ، هكذا بدا أيوب السرحان في  
تلك الليلة .

تحدث عن طفولته وتاريخه وأملاكه وأسرته التي كانت تحتاز السلطة الدينية  
والمادية ، وحكى عن زوجته العنيدة : المرأة بنصف عقل تصدق ما يقال لها  
بسرعة . أقول لها : دعيك من الناس يا امرأة . فتقول : أنت رجل خرف لا تعرف  
من الحياة غير الكأس والثروة . ما عدت تصلح لشيء .

ويستطرد : إشرب أخي إشرب . اليوم ذكرناك والله . ابن حلال .  
ونشرب .

وهو يتحدث لا يرفع بصره إلى محدثه . عينان خائبتان انكسرت نظراتهما ،  
تنغمرسان من تراكم الحزن والذل في الأرض . تحت العينين الحمراوين نصف دائرتين  
متورمتين ، شادهما التعب والزمن .

- كانت لنا أراض وضباع ومواش ، أكلها الناس . نصف السهول بالست  
زينب كانت لنا . بيوتنا ومزارعنا في البطيحة أخذها الفلاحون . أنت تعرف  
البطيحة؟

- خدمتي الإلزامية كانت في الجيبة .

ويتنهد : الحمد لله . نشكر الله الذي أبقى لنا هذا البيت من كل الورثة .  
تصوّر حتى أخوتي نهوني . أكلوا زرعي وضرعي .

أقول لهم : لنقم بحصر الإرث لما تبقى فيقولون : الإصلاح الزراعي سيأتي على  
الباقي .

ثم يستدرك : أمينة تذكرك بالخير دائماً وسمية . لم يعد لنا صديق غيرك . أخي  
والله نحن نحبك وأنت لا أدري لماذا تجافينا . تعال واسكن معنا . نخصص لك غرفة  
مفروشة وكلنا بخدمتك . أنا أدري بجياة العازب .

ويصمت قليلاً . نحو شجاعته القديمة التي فقدتها ، يحاول الابحار ، يريد أن

يقول شيئاً أحسه ، لكنه يخاتل : شباب هذا الحكم طيبون . شهادة لله . يحبون الفقراء وشجعان . ويتوقف . يتمم : أما نحن فكما ترى .

وتمر لحظات من الصمت . أشعر بالضجر وأنا أستمع إلى أئينة التاريخي والنفسي ، هذا الرجل المهذوم الباحث عن جسر مقايضة معي مها بلغ الثمن . وأبتسمُ بهزه إذ تعبرني فكرة أن أيوب السرحان يعتقد أنني ابن حكومة . - «أئينة يا جحيماً من جسد محرم لا يرويني» . صاحت الخمرة والضجر . على بعد عشر خطوات كانت تستلقي فوق سرير جاني أيوب مذ عرفني . طويلة بيضاء مملثة ، تعبق برائحة أرض تشتهي تجاوبها العطشى مطراً انتظرته سنوات .

هوذا يتكور أمامي على جلد خروف عتيق . رجل منقرض يمتُّ إلى الدهور الماضية . يدخن ويمتسي خمرته في غرفة عتيقة تفوح منها رائحة العفن والإهمال . يرتدي منامة كابية تخرج منها رائحة حموضة .

حزينان وكلانا يفكر بشيء واحد في لحظة واحدة .

- لو يموت هذا الحيوان !

وأصمت . هذه المرأة تحلم بحياة تولد من العجز ، تخرج من الزمن الذي ركض فيها حتى أنهكها وظل فتياً .

- «لو ينكفي الزمن» !

لكن الزمن يمضي فقط . يخترق كالمديرة وتين الإنسان ثم يخلفه وراءه حطاماً . الحياة هي الماضي يا عزيزتي أئينة . والثورة تحدث بقوانينها أو لا تحدث على الإطلاق ، وهذه القوانين ما تزال طي المستقبل .

ذلك كان جدار الوعي المضاء من جانب واحد ، وفي الجانب الآخر كان العجز والعطب . منى وأئينة وبقية الجسور المهذمة .

- أئينة . أحلم لو كنت لي ...

ووراء الجدار المظلم أخفى النصف الثاني من الجملة .

أكان ينبغي أن نتزوج فتين ، قبل أن يغتصب حياتها أيوب السرحان وقبل أن نتهاوى في الالم وغارات الثأر لاسترداد النقص الموروث ؟

لم أكن أود أن يموت كما اشتهدت أئينة . وإذا أفصحت عن رفضي لموته ، سألتني : لماذا؟ أنت لا تحبني اذن !

وما كان باستطاعتي إفهامها بأنه يعاقبُ بما هو أشد من الموت .  
وتشاءبتُ .

- ستنام هنا . قال أيوب السرحان .

قلت : هذا ازعاج لكم .

وبقوة قال : لا . البيت كبير ولدينا سرير جاهز وغرفة لا ينام فيها أحد . بيتك بعيد ولا توجد سيارات بعد هذا الوقت .

برخاوة خميرية قلت : أمشي . أنا معتاد على المشي . ونهض يجهز غرفة نومي .  
كان يترنح محنياً .

أورثني الخمرة صداعاً ، وحكاية أيوب مزقتني ضجراً ، لكن فكرة النوم في  
البيت أنعشتني قليلاً .

للحظة شعرت أن البيت ملكي ، وارتمى على شاشة نفسي ضعف أيوب  
السرحان المقايض وهو يوشك أن يفصح : هيا إلى فراشها . إنها في انتظارك .  
عندما عاد كان يتقدم مقوساً ، متمهلاً ، مخضوباً بالخمير . بلعثة قال :  
أخي . البيت بيتك . لا . لا تخجل من شيء .

نهضت . دارت الغرفة . وهوى أيوب السرحان مرتطماً بالأرض . هلعت .  
سارعت إليه . تأ تأ : لا . لا عليك . ضعني ... في الفراش . نح ... نحن نحبك  
كثيراً ...

حملته بصعوبة . أرهقني إيصاله إلى السرير . غطيته وجلست قربه منتظراً  
غطيته

كان وجهه بلون برتقالة نترت تَوّاً عن غصن أمها .  
بصوت موجع خافت راح يثن : آخ ... يا أمي ... آخ ... يا أبي ... آخ يا  
أمينة ...

ونام .

أطفأت النور وأغلقت الباب ، وبهدوء مطمئن اتجهت إلى الغرفة .

الضحى . تلملت في الفراش . كنت ما أزال مصدوعاً . عبثاً حاولت تذكر  
الحلم الذي رأيته . أشعاث منه هومت : مطاردة عبر جبال وعرة . رجال مسلحون ثم

اختباء في كهف صخري. امرأة ريفية هاربة وطفل مذعور تركته تلك التي يمكن أن تكون أمه. وأنا مخنئاً أرتجف من الملح. سحبت المرأة إلى داخل الكهف. كانت مذعورة تلهث. وإذا لامستها أحسنا بقليل من الأمان. فجأة مارسنا الجنس بصفاقة وسرعة ونحن نسمع أصواتاً وحشية لأناس واقعين في ضيق. كان الكهف مفتوحاً من جهات متعددة وبدا ضيقاً. لم يكن هناك ظلام. شعرت بالقرف بعد العملية الجنسية. ثم لا أذكر شيئاً.

ونقر الباب. لم أتحرك، ودخلت بالفطور. حدثت فيها تحديقة رجل يعرف مواقع حبات ظهرها الأرجواني: صباح الخير. وبهدوء طقسي وضعت صينية الطعام قرني.

- لم لم تأتي؟

- لم أعرفك أنك هنا.

- كذابة. قلنا بحق رجل امضى ليلته متوحداً.

واستحال فرحها غمماً: ألم تسمعي الدقات؟

وهي خارجة لمحت كفلها يرتج. كان حوضها يثير شهوة الحجر وهو يرتج

داخل الثوب الوردى الشفاف، والمطعم بشجيرات سود.

إذ توارت فارت الرغبة وخمد الحق. وددت أن أصرخ بها: عودي عارية فقد غفرت.

لا بد أنني شربت بالأمس أكثر مما ينبغي، ومن كل خمور العالم. عرفت ذلك من هذا الجشأ والفراغ، ومن هذا العزوف العضوي عن كل شيء. موسيقى مبهجة انطلقت فجأة من الصالون، بدأت تعيد لي شيئاً من اتزاني. وقفت أمينة الآن على الباب وفتحت ثوب النوم الوردى لتشيرني ثم أغلقتة. صحت بها: أنت امرأة فاجرة!

- لو تجسد الله في كيان امرأة لعبدته. لو تفهم معنى ذلك!

سامر البدوي قال ذلك في الليلة الماضية، أو قبلها، أو ذات ليلة لا أدري.

- ذات يوم اكتشفت ذلك بطريقة طهرية. وقلت له: أنت تكشف السر

عن العربي.

وقال: الجحيم الحقيقي هو التجربة. بالخمر والمرأة نتعرف على ما وراء

الظواهر ونصل إلى نسوغ الأشياء.

وفي النادي صارحت راني عن منى : قالت أنها وجودية تعيش الخطأ والصواب لتعرف على العالم والحياة الأساسية.

- هل قالت الحياة الأساسية؟

- أعتقد أنها قالت ذلك.

- هي أم أنت؟

- راني أنت رهيب. لديك إحساس بالتفوق. لماذا تعتقد أن الآخرين

ضيلون حتى الصفر أحياناً؟

- لأنك برومسيوس ملعون.

لما حوشر ذلك الرجل المفتقد حنان الطفولة ، حاول أن ينحرف. وراح يثرثر

بتناقض معطوب يثير الشجن والمرارة. شجو الينابيع البرية يأتي محمولاً على أثير موسيقى الصالون. صوت نهبة أمينة يأتيني مغموساً بدمع القهر والزمن.

- امرأة أساسية يا راني.

ويضحك من رغباتي المغموسة بالشعر والتصوف: امرأة فاقدة الحنان.

- أنت الفاقد حناناً لان العالم مركب بطريقة مختلفة لرغباتك:

وانهض. آتي بها من غرفتها: كنت تتحبين؟ هيا نأكل معاً. هيا. وأطعمها

بعض اللقيات. شجونى أرميا في أودية النسيان.

أنقر أنفها: اضحكي!

ترفع كنفها رفضاً، وحول شفيتها تزغف ابتسامة. أقبلها، فتشع ببريق طفولي

مفقود، ونمضي في الثثرة.

- أريد عصيراً.

بخفة امرأة مطواعة تتحرك.

- من منا الفاقد أبدية الفرح العظيم؟

- الفرح. ها. ها. يا للمهزلة.

ورغم ذلك أحبته كما أحببت أمينة ومنى وسامر وجميع الذين أحاول

الاندغام بهم في هذا الشرق الكهنوتي.

كنت أمتحن نفسي على نحو تطهيري، محاولاً الخروج من الماضي، مكتفياً بعودته عن طريق الذاكرة. وكان راني يذكرني أبدأ بالحزن والموت والمستقبل الغامض. كان يخاف أن يموت العربي بموته، لهذا اعتنق الثورة من خلال قوانينه الخاصة.

داخل نفسه خلف موت الأم صدوعاً عصبية على البرء، وخلال الزمن حدث تركيز داخلي على حوافي تلك الصدوع، وتمزقت قوانين الخارج. ولم يكن غريباً أن يبدو في أحيان كثيرة، معادياً، متناقضاً.

وإذ كنت المح إلى مزاجه الحاد، المنفّر، يخترقني بعينين غريبتين: أنظر إلى نفسك. لا أحد نقي والإنسان قانون نفسه.

ولما أقبلت أمينة، غربت مشاعر الأسي وراء أفق حضورها، وتوقف التحليل. شربت العصير الحامض، وسألتها عن أيوب فقالت أنه خرج منذ الصباح. حدثنا عن سهرتنا وثقته بي، وقلت لها: لورآنا معاً في الفراش لاستدار.

وقالت بانه ابن حرام فلا تصدقه. يخمن كل شيء ويقول انني أراك وأحتني بك بشكل خاص في الوقت الذي أنفر فيه من كل ضيف آخر، ولا أرضى استقبال سواك في غرفتي.

وكعادتها بدأت تشتكي من حياتها معه: لا ضمير ولا شرف. يأتي بالغرباء إلى بيته من الشوارع والخارات. يقدم لهم الخمر والطعام. بلا سبب ينهون حياته لم يمضون. هل تصدق أنه يؤجر غرف المنزل لأناس من أي صنف ولا يدفعون الأجرة؟ لم يقول لي: أنت السبب لولالك لما حدث ذلك. وتستطرد مكتئبة: واقه لولا هذه الطفلة لأحرقت نفسي!

خلال لحظة يهب عليها عمرها المنقرض. تطفو كآبتها فوق وجه أمومي آخذ بالإنحدار والتهدل، فتشارف الانتحاب: آه. لم يعذبني إنسان كما عذبتني. ليتني لم أعرفك. مذ عرفتك وأنا أتمرمر. أحبك حتى الموت. هل تعرف هذا؟ وتقرب مني. تطوقني وتنشج. أكفكف دمعها حانياً، مجروحاً بعجزتي.

تتهنئ: في منام قديم جثني. كنت على حافة هاوية على وشك السقوط فحملتني بعيداً عن الموت إلى بلاد بعيدة، فيها بحر ومروج خضر. وها هي الأيام تمضي ونحن لم نتغير. في الليالي تأتي كطائر غريب. لحظات وتمضي. أسبوع

أسبوعان. شهر أحياناً ولا أراك. لا أعرف عنك شيئاً. حرام حرام هذه الحياة.  
كانت تحاذيني وفخذها يلامس فخذني، وكنا ما نزال بثياب النوم. وإذ بكت  
أحسست وخز الاثم والكذب، وانتابني رعشة غمّ. برفق طوقت ظاهر رقبته. دبّ  
ساعدي على حرير اللحم فأنجاب طيف الكذب. برفق سحبت ساعدي فشت  
رؤوس أناملني على مرج ظهرها الأملس.

رويداً رويداً راح نحيبها يتخامد. طويت رأسها في حضني، بينما خلخلت  
أنامل اليد الأخرى بإتجاه سفوح صدرها. كانت حلمتها قاسيتين كمسنتات  
الصخور. وعلى مهل راحت الأصابع تضغط ضغوطات رقيقة تلال النهدين الناعمين  
المستلمين.

تلمت رافعة نحو وجهي عينين ضارعتين، وجلّتين. رمقت تورّد الخريف  
المكابر في خديها. وبعد حين بدأت أصداء الرياح تولول في غابات جسدنا.

[ ]

لا تسأل لماذا يعتكر عالم المسرة. ولماذا ينقضّ الحزن كالسكين  
من عالم مجهول. المدهش في عالم هذا العربي، لحظة الفرح.  
ويترامى صوت منى مفعوجاً، ممدوداً من دمشق الى القاهرة: ميسالينا.  
ميسالينا.....

في وطن بعيد مجزوء، كانت تنمو كفسيلة كرمه اجتّرت في شتاء قارس،  
وطفت هناك.

- كم مضى عليك لم تربها؟

- اربعة أعوام.

- هل تذكرينها دائماً؟

ويعتمر وجهها بلهفة عشق مُستلب. تغني لها: ميسالينا فر مكتمل ينشر  
ضوؤه في وديان نفسي، لكنه ناء لا اطلاله. كل يوم أسافر اليها على أجنحة الشعر  
والتوق. تغمرني في الحلم والبقظة، وتظل قصبة، قصبة كنجمة تائهة. آه لو عرفتها  
يا عزيزي. نسخة عني ميسالينا اليتيمة. لا أب ولا أم ويوم تكبر ستلغني.

وتهاجر بعيداً عني روحها. يخضبها أسى الفراق وأنا قربها عاجز عن فعل  
شيء لها. على فراشي، كشجرة مقتلعة، مطروحة فوق رمال الصحراء، حلمت

بالعودة الى قريتي. الى امي. بدا لي ذلك ، حيناً هارباً ، منقولا كالرعدة فوق  
جبل السرة العتيق ، الممدود من بيتنا الريني القديم الى بيت أمينة الدمشقي .

[ ]

مشتبك هو العالم كشبكة تداخلت خيوطها ، ومبعثر. نحن بشر هذه الارض  
نبدو كشتات رمل متشر على ساحل العالم. والكل يجهد ليصل الآخر ، واخيرا  
نسقط كالودع من يد بصارة موشومة اليدين والوجه .

لو قلت لأمينة مليون مرة : أنا مفتت من الداخل ، موسوم بلعنة البحث عن  
الاصل. عن الصدق. عن الرضى. وعن مطلقي الخاص في الاشياء ، لبدوت  
أمامها ممسوساً يهلوس بكلمات هيروغليفية من قبل عصر امنحوتب. امينة تريدني وأنا  
أريد جسدها. أيوب السرحان يريدنا وأنا أريد مني ، ومنى تريد ميسالينا .  
وأنا وأمينة وأيوب السرحان ومنى وميسالينا ، ندور كالدرأويش في حلقات  
ذكر حول جدار الزمن المرفوع بيننا جميعا .

لماذا فقدان الامان؟ ولماذا كل منا يلهث وراء جذره في عالم يبدو أحيانا  
بمجم غرفة وأحيانا بمجم اللانهاية؟ لماذا. لماذا...؟  
وفي ليلة خمر. في مكتبه الخاص ، يقول سامر البدوي : الانسان مركز  
العالم .

أقول : قديمة. لقد انتهكت جميع القيم تحت راية هذا المغفل البائس :  
الانسان .

كنا ثملين تقريبا بيراندي كوية. سامر مشرف على منارات البوح الداخلي .  
أثرته : ماذا تعني بالانسان. الشخص الذي هو أنت ، أم مطلق انسان؟  
هدر في وجهي : أنا يا أخي. أنا قطب العالم .

وتظاهرت بالانكسار والغفالة فصمت . بنرجسية مغبطة راح يسرد : في سن  
الثامنة عشرة بدأت أشعر بالمواربة والتنحي . كنت قد بدأت أقرأ جوته وجبران. أي  
شعور خاص يتحرك فيك وأنت ترى احاسيسك مجسدة في كلمات الآخرين ! فجأة  
قررت الصمت . امتدت فترة الاغتراب والصمت خمس سنوات تقريبا . خلالها  
تضاءل الآخرون وضمروا . وخلالها قرأت بودلير ورامبو وبيرون الى آخر القائمة  
الملعونة . كنت أرغب الخروج الى البراري ، أمشي وحيداً وأتأمل . اصطاد الحشرات  
وأنام في المغاور وأطارد البدويات . أول علاقة حب جنسية كان عمري عشر سنوات .



حدث ذلك في مغارة بعيدة مع بدوية صغيرة. وذات مساء وأنا اراقب الغروب شعرت بوحدتي المطلقة كالشمس في هذا العالم.

ويفرك صدغه متوهجاً ببوحه الخمري. أشرب بصمت دون أن أرنو إليه. نُدخَن. يتهد بقهر شفاف، محترقاً بأشعة الماضي والحاضر، مذعوراً، من المستقبل: فجأة سقط البشر من حسابي. جميع البشر بلا استثناء: الاصدقاء والدم السلالي اللعين. الحلال والحرام. السلوك والشرف. الله والدين.

ويستمر: قررت أن أخترق صلابة العالم وتقاليد الناس بجسدي ونفسي. لقد صممت أن أدوس كل تابوات شرقنا العزيز بقدمي. «بروتوغوراس» يقول: الانسان مقياس جميع الاشياء هذا صحيح وحقيقي.

كنت أتملى مكتب سامر البدوي المطوق بالستائر الزهرية، مسترقاً البصر نحو وجهه المتعب وأنفه الشبيه بأنف سيرانودي برجرارك، ثم جسده الفحل المماثل لاجساد المصارعين السبارطين.

لماذا دخل مغارة تنقيبي عما وراء الظواهر، ان جسد سامر ربما كان منفاه وعلته، وان امرأة دمشقية تريد أن تصل من خلاله الى رغباتها الانتهازية، قالت له ذات مساء خمري: يا لجسدك الوحشي الرائع؟

على نحو لعين حضرني ذلك، فقلت له عائداً الى النقطة المركزية: قررت اذن أن تكون قطب العالم!

ونهدّ من خلف مكتبه: اما أن تخضع لما يريدك البشر أو تريد ما لا يريدونه. ولأنني أردت ان اكون نفسي قررت أن تصدر أوامري من دماغي وليكن الطوفان. واستطرد: سأقول لك شيئاً في لحظة صحو صوفية. قال الحلاج: ما في جبتي الا الله. وأنا أقول: ما في جبتي الا رغبتني.

أنا البؤرة والمركز والمطلق وما عدا ذلك الى الجحيم. هكذا افهم الثوري.

وفي متأهة الخمر والنرجس تاهت دمشق وتاهت منى وتاه شبلي بن عبد الله الحزین. وكما ابتلعت آخرين. ارتسم الآن في الأفق دورهم الحديد عبر الفخاخ المنصوبة.

نسوة كالورد، كالصباحات العبقى المندّاة. اجسادهن تفتح في المساءات الرخية النعسة، كما يتفتح الياسمين والبنفسج في الظلال. الأجساد ظمأى ودمشق البحر والصحراء وريح السواقي.

هي ذي مدينة الملعونين ايضاً. مدينة الانبياء الذين ماتوا جوعاً وعطشاً في  
مغارات قاسيون وما كفنوا. تلوح صامدة، حزينة تحت البصر.

وفي الغرب تقوم صخرة شاهدة ما تزال. يسمونها صخرة قابيل. لونها بلون  
النيذ، وتحتها مغاور هُجرت من عصر قديم، من عصر الاسكندر ربما او عصر  
معاوية، أو عصر كسرى، أو السلطان سليم. في الغروب تبدو مكلفة بكآبة خاصة  
لا يعبرها غير الزمن.

بذلك كنت أفكر بعد أن خرجت من مكتب سامر، تائهاً في الشوارع  
والصمت. وأمامي قاسيون.

---

## الفصل الثاني

---



سامر البدوي ثوري العصر الملعون ، ثم الطبول التي تفرع . الطبول . الطبول .  
افريقيا الوطن والجنس . وآسيا الساطعة بالشمس والأبجاد المنكّسة .  
آسيا الملعونة . أفعى تحت إبط حاوٍ والرقص في الليالي المشحونة بالاثم المقدس .

الضوء الأحمر ثم الأزرق ثم الأصفر مرة اخرى . ودمشق مدينة آسيوية محاطة  
بالصحراء والغابات ، ملفعة بالثلج آناً ، والنهارات الحارة آناً آخر تقع في أواسط آسيا :  
أرض الشهداء والجنس والرغبات التي لا تتحقق .

من المشحة بياضاً هههافاً ، يرفّ فوق جسدها الابيض . في حلبة الرقص  
كحمامة برية تطير ، تدور . تتلوى . وشعرها الحريري ينفرد ويلتمّ . يخرقه الضوء .  
يجب الضوء . تنحني . تنهض فينهض الثوب منحسراً ليلمع فخذان مغسولان  
بالضوء . الضوء في الضوء والجسد نهار ، وعينا سامر البدوي رحمان يخرقان بحيرة  
الجسد .

يولجُ الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، والطبول تفرع . تم . ترم . تم .  
تم .

- الريفيون غرباء في هذا العالم .

- غرباء ومقهورون في عالم التم . تم .

تنفرد الحمامة الآسيوية بذكر آخر . تجوح رأسها يميناً وشمالاً . الى الامام  
والخلف . تدوخ فتدخل عالم المس . عالم التصوف الجسدي . الدراويش يهتزون في  
الحضرة النبوية فيدخلون عالم فرويد . يتضوأ الجسد جنساً مفتوحاً فتفتح المسام .  
تشفى . والجنس هبوب صحراوي لريح سموم تنطلق من الجهات الاربع لتصب في  
آسيا .

فضاء المرقص وشاح من دخان وكلمات سكرى، تبدد قبل ان تصل  
السقف، وشهوات.

ما تزال الحمامة تنوح بجسدها، ترفرف فوق اليمّ بينا عينا سامر البدوي  
تمارسان التعرية، ناسياً مرافقيه والصحفية السويدية المنهكة في التحدث عن العرب  
واسرائيل.

على جدار العمود يتكىء ظهري، وعطر الصحيفة النفاذ يوضع ماسحاً  
وجهي. جاري يرطن معها بفرنسية مربكة، والويسكي العظيم يسحبني بطيئاً وسريعاً  
الى وديان الدوار.

لم أبال كثيراً بالسويدية التي قدمت لنا سيكاراً، لكنني قلت لجاري: عيناها  
كحبتي زيتون في كرومنا البعيدة.

وترجم لها فأصابها فرح خاص. وسألته عني فعرفها بي واستدركت بفرنسية  
عربية: لا. لانصديقه. انا موظف من الدرجة السادسة. وانخرطاً في حديث  
سياسي.

الرقص هناك على مسرح آسيا، والموسيقى. اذرع رشيقة تتلوى وتنادي. نحور  
مكشوفة، وظهور كتلوج السهوب، ارجل تقيم طقوساً وعيون تلتمع كالشرار. فساتين  
كالرايات تخفق. ترتفع. تتسع. تضيق. أعلى أيضاً. هاي. تم. تم.

احتفال الشبق بوجهه الرسمي وطقسه الوحشي. ووحده اللاوعي ملك  
المخلوقات المتمدينة غير المتوج.

لا شيء يعيد صفاء البحيرة المعتكرة. الموسيقى والروائح بحر مجنون يضرب  
موجه صخور الاعماق، والهياج يرتقي مدارجه، وآسيا تترنح.

وسط الهياج يسألني سامر: أين أنت؟

فأقول: اغوص نحو لا مكان.

- ما رأيك بهذه الشقراء الالهية؟

ثم يغمز بعينه الى الصحيفة.

- بروحي كل نساء التابو وكل نساء العالم. ولكن... وهمس في اذني:  
لذيذة في الفراش كالشعر.

- نمتَ معها؟

وسامق ضحكته الجنسية في فضاء التابو، كأنما رام اهانتني وقصوري عن نيل  
النساء اللواتي يطاهن.

- سامر ألت كاذباً؟

وصاح : أنا؟ الهك يكذب أما أنا!

تجهم كمن طعنَ في قلب تاريخه الشخصي : عندما جاءت قبل شهر سهرنا  
معا في التيفولي. شربت ويسكي حتى ثملت. عرضت عليها ان اوصلها الى الفندق.  
دهشت من العرض وفاجأتني : أليس لك بيت؟

كانت زوجتي مسافرة.

واشعل لفافة ثم تنهد وزفر الدخان : آه يا الهي كم كانت عذبة!

ولا اقفر من توحدته. هذا الذئب الصحراوي الذي اختار الجنس مأوى كما  
اختار الاخرين شاشة عرض لأنها التي تدرنت حتى شارفت تلال النبوة، صائفا  
حياته جحبا ومطهرا في تجربة الاتلاف الحسي.

ذات يوم عبر عن ذلك : في وجهي -أعرف ذلك- ثمة خاصية شهوية تجذب  
النساء. آه. انها لعنتي الخاصة ان اكون هكذا.

ذلك المساء كان مبهجا في البدء، فيما بعد ارتنخى بالرصد والتحليل، وأمواج  
حكايا سامر الكاذبة، حتى خبا. وكجميع مساءات الغرباء القادمين من جرود آسيا  
الملتية، هوى في بؤرة النفس واستكان.

صراع من أجل الخلق. من أجل الحرية، ومن أجل التوكيد، عبر عالم يتشكل بشخصه الذاتيين وشخصيته الاجتماعية. عالم يحاول كل فرد فيه ان يكون هو بطريقة درامية مضحكة، مغفلة احيانا اخرى. فجأة تسقط داخله. ومن كل جانب يلطمك الموج. موج أهوج اضاع بدهه ونهايته، والقاطنون قديما هنا، قساة وناقصون. استطالت انيابهم وأظافرهم وألسنتهم حتى صارت اكبر من اجسادهم. يحدقون فيك وتبدأ معركة الطعان تغطية للنقص والبيان الخرع.

ملايين الافكار التي تتضارب وترتطم كموج يفني نفسه بنفسه. والكل مسؤول ومهتم متى شاء، والكل محايد في ازمة الحرج والضيق. أهو العربي يعبر التيه ولا موسى؟

أنبياء وصعاليك. قادة وجنود. شعراء وباعة. مناضلون وبورجوازيون. آلهة وسفلة.

ارث جاهلي، ووشم من عصر صدر الاسلام. نزوع جنس قديم قدم الصحراء والشمس، خمر وجدل من عهد ابي نواس والمعتزلة، مزيج الانحطاط مع شرارة البقطة المعاصرة. وفي خضم هذا التاريخ المرتج تتزع لأن تتطهر. وترى كل شيء ملوثاً حتى نقي العظام، ملتويماً حتى درجة قوس الانكسار، فتساءل: هل ثمة خلاص؟ وكيف؟

جمهوريات العدل. ممالك الشعر والفن. انفجارات الجسد. كهوف العزلة الخاصة المريحة، حيث يبحر فيك العالم وأنت في جزيرة حي بن يقظان تحاول اكتشاف المعرفة البدائية بالتمس والتأمل والتجريب. واذ تُنهك بين هذا الموج المحتدم ينده وجهك الداخلي: هل لهذا المسكين في هذا الزمن الضاري بقعة تحت الشمس؟



وفي الذهن طنين ابدى . تساؤلات بعدد رمل البحار من يجيب عنها ؟ وكيفما  
اتجهت ابرة المغناطيس يظل سؤال دائم يدوي : ما قيمة الانسان في العالم بلا ضوء  
نفسى يهديه الى نسوغ الاشياء؟

- « اتلف حسك حتى يتلوث نقي العظام ثم ابدأ حياتك على انقاض المغامرة  
الشخصية . » .

سامر البدوي والزمن القصير يقولان ذلك . عمرك الذي لا يعاش الا مرة  
واحدة يصدي عبر وديان مقفرة : « أين انتِ أيتها الكفاية المفقودة في مدار النقصان  
الصحراوي ؟ » .

- من أنت؟

- رجل يسابق الزمن.

ضحية جديدة في عصر الخلل العربي ، هذا الذي يفعل ذلك . متوحش صلب من نسل مشوه . يفيض غضباً وانانية . في نفسه قبلة موقوتة ، يود لو يضرب الشمس والقمر والارض ليثبت أنه اله في عصر القروود . على اجساد النساء يُلاشي عمره ليقهر التشويه وغلبة الزمن للأب الذي سقط جريحاً ، مشوهاً فوق تراب فلسطين .

أحببت سامر البدوي بعد ان تعرّى أمامي بكل أدرانه ، وتآلفت مع راني حتى المكامن المخبأة ، كذلك أمينة ومنى ، جميع هذه الجحافل المقهورة كانت جزءاً مني ، لكن هذا الوحش كان استثناء مفزعاً .

- كان عمري اثني عشر عاماً آنذاك . أخبروني ان المصابين والجرحى قد نقلوهم الى المراكز الخلفية في القنيطرة وان والدي بين المصابين . خرجت من البيت عدواً . هناك في باحة ضيقة كانوا يثنون . كان بينهم رجل جسده في لون الفحم ، محروقا مدلى القدمين فوق نقالة ، الدم والعظم قد امتزجا بالغبار وبارود القنابل . أغمضت عيني حتى لا اراه . ويحتقن في جبينه غضب مر . يتابع : لم يكن هو . أبي رجل طوله متران . اشقر . صدره عريض كالجلبل تخافه الانس والجن . ابي ... وكتر فسمعت سحج أسنانه . وصفى كأسه .

كانت أصابعه تتخلل شعره الاشقر وراح يشده بحقد . بقسوة رنا إلي . في عينيه لحت انحراراً اجتاح بوابة الغيظ : من كان ذلك المحمول ، تسألني ؟  
فهقه بسخرية مفجوعة . وبطرف اصبعه اشار الى نفسه : اجل انا . ورفع كأسه ثم تأملني ملياً وبحركة مسرحية احتسى طويلاً .

- منذ سبعة عشر عاماً وما يزال ذلك البرج السامق الذي كان يكسر الحديد، ملقى كجثة فوق فراش قدر لا يقوى على النهوض. أخيراً سقط النمر في حفر الخيانة.

وجرع ما تبقى.

في تلك اللحظة الصافية كالدمعة، الداوية كالرعد، احسست اني قريب من وائل الاسدي قربي من سائر المفجوعين الآخرين.

بعد اشهر من تعارفنا روى الحادثة في مطعم الجندول. اثرها ادركت لماذا يسوق سيارته العسكرية بسرعة الريح، ولماذا يشرب الخمر بتلك الطريقة الوحشية، وينتقم من نساء دمشق على الطريق المؤدي الى قطنا والقنيطرة، ولماذا اختار ان يكون ضابطاً في الجيش.

في التاسعة والعشرين. عيناه بلون البحر، وصدره شبيه سنديانة فتية، ووجهه كرجيف أبيض حار. مع اسرته هاجر من اسكندرون وكان طفلاً.

يوم تعرفت اليه لم يثرني. في مشيته خيلاء مزهو أحمر يمثل، وطريقة حديثه عن نفسه ومغامراته تثير القرف والاشمزاز وتغطي غبائه المستر. يومها قلت في سري:

هوذا نرجس آخر يرى نفسه في مرايا وجهي. وافترقنا.

لا ادري من الذي قال: عندما تفهم حالة انسان تحبه. ومن الصعب ان تستدير للضعف البشري فتقابله بالكراهية واللامبالاة. وفيما بعد رأيت نفسي قرب وائل الأسدي فترة من الزمن.

- هدى شعراوي.

- ناديا ابنة عمها.

- الفوضوي شبلي عبد الله.

وأشرت نحوه ساخراً: وائل بك المحترم سيد مدينة دمشق وحاميا.

وبصق في وجهي: «بك» يا ابن الزانية؟

وضحكنا بجملة.

واذ رمى معطفه للنادل مع معاطف النساء، استوى على الكرسي بأبهة رجل شرقي زاخر بالفحولة والثقة، بين صيبتين دمشقيتين احداهما عشيقته، والاخرى

شاهدة. نده بصوت عسكري : هيه. هاتوا لنا من خمركم القدر ما تيسر. واطلق شتمة اثار الضحك.

- في كل مكان تنثر دررك. ماذا ترك للملمات؟ وشتمني.

اخرج علبه «الجيتان» مررها علينا. رفضت اغاظة له : انا لا ادخن لفائف البورجوازية الجديدة.

زورني بعينه البحريتين زاماً شفته السفلى : هم. ثوري فوضوي لا يدخن الا التبغ الوطني.

ونحر متفرزا.

- ادركنا بالخمير. ودع جانباً الوطن والثورات قلت.

- لماذا؟ انتم المثقفون جدا لا تطيب لكم مناقشة الوطن والثورة الا على موائد الخمر.

وقلت بقرف : اخي. الثورة لكم. انتم صنعتموها وانتم حماها ونحن رعيتكم. مروا ونحن ننفذ في جميع الازمنة. اما الآن فأرجو أن نسكر فقط.

- ولو. انتم آباؤنا الروحيون. نحن بدونكم طول فارغة. يا خمار هات أجود الخمر للفيلسوف.

واستطرد ماداً رأسه ولسانه باتجاهي : لم يوصلنا إلى الدرك الأسفل إلا الآباء الروحيون الأوصياء. ثم فهقه ساخراً.

- البركة فيكم سيدي. كل ما خربت تعمرونها بانقلاب. وجاء الخمر نبذا ايطاليا هلل له وجه وائل، راح يصبه في اقداح انيقة خاصة.

واذ صب لي نصف الكأس قالت هدى : ما أبخلك ! صباً له ايضاً.

- سيادته لا يجب الكؤوس الطافحة. واضاف : هذا الانسان لما تعرفه بعد. محبوب ومكروه بدرجة واحدة.

بعذوبة طفلية ابتسم نادياً.

كانت قربي. سمراء يلوح على شفيتها وفي الزغب النامي تحت سالفها، أنس طفولي غامض.

وكعادته وهو يحدق في وجهي، بدا متحفزاً للحرب. للضرب بلا سبب. وشربنا نخب النساء الجميلات.

في البدء بدوت مرتبكا، أحسّ هو ذلك فانطلقت روحه الهجومية وأشرك هدى معه. كانت ناديا ملفعة بصمت شرقي خجل، بينما انبرت هدى تثرثر وتلذ حتى التصقت به.

كنا نجلس في زاوية منفردة، شحيحة الضوء، وبعد الكأس الثانية انتشت هدى: وائل رائع. سيته الوحيدة انه لا يجني.

توجهت الي يحملتها. قال وائل: انت محطئة. وطوقته ثم قبلت وجهه.  
- هدى، لا تفعل ذلك أمام هذا الفضائحي اللعين.

بجياذ ابتسمت. حككت جبتي تغطية للارتباك الذي بدأ يتخلخل.

وسألني هدى ان كنت أعرف وائل من زمن طويل. وراحت تمحكي عنه وعن رجولته وقلة وفائه ونعومته في الحب، وهي تداعب شعره القصير الأشقر، وعيناها تلمعان ووجهها يتوهج باشتهائه. ازداد خجل ناديا. بعينه اوعز الي أن التصق بها. لمحت احمراراً يتشكل في عينيه، بانفعال متصاعد راح يكرع. كانت هدى تغفل بلا حياء اصابعها في شعرات صدره.

وسألني مرة اخرى ان كنت اعرف وائلاً على حقيقته، ولم تنتظر اجابتي فقالت: وائل عظيم. انظر اليه جيداً. هل أصلح انا زوجة له؟

رفعت كفي، وشربت من كأسني. قالت هدى كأنما تحدث نفسها: لا.. لا... انا لا اصلح. البنت التي تسلم نفسها بسهولة لا تصلح. انا. انا. اعبدته. كانت قد ثملت فبدت في اضطراب هزه وائل بصوت جارح: هدى. كني عن هذا الهذيان الاحمق!

وكالبرق طوق قبضته وهوى بها على سطح الطاولة.

بدا الجو مغلقاً. كان هناك حصار وصمت. ودامني احساس الفرار. لم تكن الامور تسير في بحري طبيعي. وقربي انثى غريبة ولم اكن اتقن المقدمات الكاذبة. وفي لحظة خيل الي ان الذي بدأت اكتشفه في الآخرين غائم ومضطرب. كان هناك عتم ومكامن تتوالد فيها اسرار. غابة فسيحة، مظلمة، مخيفة، يكتنفها غموض واشياء عصبية على الكشف. وقلت لنفسي: البراري هي ما يريد الرجل والمرأة. هناك تُفتح كل البوابات المغلقة.

واذ انتهت حولي للناس الذين يثرثرون، فارشين بالنوادر والضحكات والشوق

ما فاتهم للوصول إلى البراري ، ورأيت الخمر والعيون المشتعلة بالاسرار ، فارت في اعماقي ضحكات المعتوهين. ضحكة فاسقة ومريرة ودت لوترج مكانن البشر، ووديانهم الداخلية. كتمها وافرزت افترارة أسي. في عيني هدى لاح ما يشبه الدمع .

خرق وائل صمتنا : بماذا تفكر؟

قلت فجأة : بالاقدام التي لا تتقن الوثب المباشر!

وتتمة لما هجست به ، ابتسم ساخراً مدعياً بخراقة أنه فهم ما قصدت ، فقال مدارياً فهمه : الاقدام تثب في اللحظة المناسبة .

طويت الحملة والأفكار ومباريات الفهم ، وقلت بعفوية : هدى . لا تكتثي . في العالم لا يوجد ما يستحق ذلك . نخب وائل . وصفينا كووسنا عدا ناديا .

تجرات قليلاً بعد أن أحسست بمسؤولية إعادة الجو إلى حالة صفاء . سألت ناديا موشوشاً : أنت عادة لا تشربين الخمر؟

فأجابت باقتضاب : نادراً .

ودخلنا في أحاديث صغيرة قطعها هدى مبتسمة : ها . بدأت الوشوشات . أخونا انتبه هذه إبنة عمي .

وقال وائل : تحركت الحجارة أخيراً .

وقلت هدى : هل علي أن أقدم طلباً بطواع عن طريق التسلسل لتسمحي؟ ضحكنا . ناديا ابتسمت أيضاً فبدا وجهها صبوفاً مشرقاً . قالت بهدوء عذب : أنتما صاحبان من زمن طويل ونحن لم نكد نتعارف هل يمكن أن نتصرف مثلكما؟

بشبق قبلت هدى وائلاً على شفثيه ، فانتشي . ومرة أخرى مصت شفثيه محدثة صوتاً . رنوت إلى هدى التي كادت تسقط خجلاً وهمست : لا تنظري إليهما ، هذين الفاسقين!

بين أصابعها خبات بسمة ، وهي تحدق إلى الأرض . لماذا تسرب إلي إحساس بفكرة الزواج من ناديا ، وأنا أطل على وجهها المبتل بالاضطراب والخفر ، وقد نكست رأسها وراحت تداعب ساق الطاولة!

من النافذة بدت حديقة التيفولي . أشجارها تحركها الرياح ، وعشبا يلمع تحت الضوء . وهطل المطر . خفيفاً راحت قطراته تسح فوق الزجاج ، وعلى الأشجار

والعشب شالت موسيقى منداة بالحزن والرغبة. الساعة الرابعة تماماً وأنا أتلوى بعد أن شربت جرعات سريعة لأتمل. الزمن تحلل، انسل مني ووقف على الباب، في ثقب المفتاح الذي لا يحدث صوتاً، وفوق بلاط الصالون الذي لا إيقاع له. الصمت. ومنى جرثوم يمشي في الدم. سكتني منذ الوعي الأول، تطارد ذرات أياي، سكوني وحركتي. انتظاراتي، ولما تأت بعد.

ارم ثيابك في هذه الغرفة المقفلة، واخرج عارياً. اركض في الشوارع أمام الناس، واصرخ في وجوه الذين يهزؤون منك: المرأة شمس الرجل، ربحانه وكفنه، بحره وزمنه وبراره، فهل رأيتم لي أيها الشامتون شمسي الغائبة وزمني الذي لا يجي. هل رأيتم لي أنسي وكفاتي ووطني!

تاييس. عشثار. هيلين. سندريللا. منى. أمينة. ديانا. الماضي كيف يتزلق ثم لا يعود. والتي كانت بهية كالغابات لماذا اختفى بهاؤها؟

لو أستطيع أن أصلب لك الزمن يا عزيزتي أمينة. لو كان بإمكانك أن تردّ الشمس عن مغيبها. ان توقف الأرض عن الدوران، فلا يكون هناك ماضٍ ولا حاضر. تقف مع منى على سطح الأرض فتكونان الفصول والمطر والشمس، الشعر والرغبة، العشب والطيور، الحجر والنسغ، ولا تغيبان أبداً!

ساعات والخمرة تسوح في خلايا الدماغ، تتسلل إلى الأعصاب كمهر جامع، والرأس يتململ فوق المخدة، والأسنان تتر شهوة. ومنى لاتأتي.

والصور تتوالد من الصور. أطيف خضر وحمرة، أطيف مجنحة لها مليون لون. لها روائح ولها إيقاع. تدور في فراغ الغرفة. في الغابة الموحشة. منى في المركز تماماً رهو من الضوء الفار، عصي على الالتقاط. تدور فتأخذ أشكالاً أسطورية. أشكال حوريات عاريات، مجلدات بالمهابة والكبرياء. أميرات من عصور قديمة هن سطورة ومجد وجمال، بهيات كقوس قزح.

كل أطباء العالم عاجزون عن شفاء هذا المواطن الجريح.

ومن كل مكان في النفس والجسد، الجراح تتزف. وهذا المواطن البائس يتزف لعجزه عن التقاط المركز والأشعة الداخلية. ثم هذه المنى لماذا لا تأتي؟ وقال وائل: إيه. جاءك الغياب أين وصلت؟

ارتسمت ابتسامة بلهاء فوق وجهي النازف كآبة، فافتررت.

- نخب الأحياب.

قرعت كأسى بكأس ناديا. واذ رفعت وجهي نحو وجهها الجامد كحجر،  
لمحت كآبتها أيضاً. بعد الرشفة سألتها: ناديا هل أنت حزينة؟

تململت قليلاً وتمتمت بأناقة مترنة: لماذا الحزن!

ولم تكن تسأل. وكما تعبر ريح خفيفة عبرت كلماتها. ودخلنا طور الثرثرة  
والأسئلة العادية. عرفت انها خياطة، تقرأ مجلات السينما والممثلين، تحب التزهات  
والسيارات. تخرج قليلاً مع هدى وصديقاتها ومن ألوان الثياب ترغب البيج  
والسماوي.

- ناديا أنتكتين مذكرات؟

- مذكرات؟

- أجل. أشياء خاصة عن حياتك؟

وضحكت بعدوبة وحياء، فشعرت أنني أغشى أهل الأرض.

- لماذا يكتب الإنسان مذكرات؟ الحياة تعاش وكفى.

[ ]

عندما اختار سامر البدوي أن يكون شاعراً وهو يرقب رحيل الشمس في  
الصحراء، ذات أصيل، هل فكر أنه سيفقد الحياة الحسية من أجل الشعر؟

وإذ اختار هذا النمط من العيش كيف انخرط ملتزماً بالجواهر والثورة؟ جاهداً  
يحاول أن يوحى، بأنه متوازن بين كفتي الحس والشعر، بين الانا والآخر، واذ  
تتقدم قليلاً قليلاً في دروب نفسه، تدرك بجزن أنه ربح نفسه فقط.

ثم تدرك أن حديثه عن التوازن، لا ينفصل عن الورم الراغب في تكثيف  
العالم وحرقه في جرنه الخاص حتى لا ينهزم.

- شعرك تهويمات محض شخصية. تزوغ في رأس منفجر بالخمير والتمرد  
الفضوي. عندما تكتب الشعر تولد لك عين ثالثة ترى ما لا يراه الآخرون.

- ذلك هو الشعر.



- بل ذلك هو التمثل الطبيعي عن طريق اللغة. هل تود أن يقال عنك أنك شاعر سريالي؟

- هل يعني هذا أنك ضد الخلق؟

- لا. ولكنني ضد التمرکز الذاتي المفرط الذي يفني الشعر. يخلخله فلا يكون لغة العالم على مر الزمن.

- الفن ينطلق من التجربة الذاتية والشاعر ذاتي قبل أي شيء.

- الفن تجربة ذاتية عمومية.

- الحزن هو الحزن. والحب بحديه الجسدي والنفسي لا ينقسم.

- أبدأ. الدوافع تختلف وردود الفعل تختلف. داخل كل نفس للحب

والحزن معنى خاص. الفن العظيم أن تكتشف الحزن والحب العموميين من خلال حزنك الخاص وحبك الخاص. بذلك تم عملية الإيصال إلى الآخر.

ومحال أن تصل إلى قناعة مع رجل اختار نفسه ونفى العالم. إنسان يقول لك

في نهاية الحصار: أنا هكذا. حجر في صحراء ليس لها أبعاد خارجية.

صلاب كالصوان . أنانيون وعدوانيون . موقوتون كقنبلة زمنية . إذ تقرب  
من خباياهم تنعقد أقواس حواجبهم . شيء ما يغلي في دماهم ، فيستدعون جيوش  
الأذى والافتحام . آنذاك فقط ، تعمل ذاكرتهم على نحو مدهش ولثيم . يستعيدون  
هفوة صدرت منك . يضيفون إليها هفوات . يراكمونها حتى تصير كتلة من طين  
قاس ، وفجأة يرشقونك في الظهر . إذ ذاك يشعرون بالغبطة ، وإن نفوسهم المطعونة  
قد لقيت أمانها المفقود .

أشعلت الخمرة نفس وائل فشب الغضب في عينيه . احمرت أذناه ، وراح  
يمج لفافته بشبق واضح . تراجعت إلى الخلف . لمحت فخذ هدى العاري مشبوحاً  
فوق فخذه . كانت عيناه تطعانان صدري . غمزني فقلت فجأة : دعونا نرحل .  
أقول لمني : أضيئي للذي يناضل ضد تاريخه . اقتربي أكثر لعل شجرة أيامنا  
اليابسة تورق !

تحديق مني في وجهي البائس ، وتخرق حجب الغابة . تهز رأسها وتبتسم  
بمرارة .

يغمزني ذل وحزن يشرفان من عينيه . فأحس أنها تاريخ آخر ، زمان آخر  
لا صلة لنا به . فصمته ميسالينا ودمشق المتلهية بقتل فرسانها على مهل .  
ونسافر

الحلم . الوهم . الشيء الذي يكون ولا يكون في وقت واحد .

- الثورة تجدد الإنسان .

- الإنسان يحدد الثورة .

ويستطرد راني : الإنسان لا يحدد . هذه مقولة تاريخية .

والطريق عتم والباص رقص وغناء. صبايا وفتيان. ومنى ملكة السفر. مليكتنا  
جميعاً. أنا وهي على مقعد واحد، والطريق مديد ومظلم. وحولنا البراري.  
داخل الباص السابح في بحر الظلمة نثرثر.

- أحب البحر.

- أحبك.

- أرغب متزلاً يشرف على البحر. ينقر شبابيكه المطر ويعمده الضباب،  
ومن شرفاته أرى السفن المسافرة.

- أرغب أن نحيا معاً في بيت منفرد. في مغارة جبلية نائية.

- في رأسي قصيدة عن البحر أتمنى أن أكتبها يوماً.

- أنت قصيدتي التي أغنيها للبشر والرياح والزمن القادم.

- الناس قساة هنا.

- وضعاف.

- لو يستطيع الإنسان أن يفرح.

- أحلم أن أطويك تحت الضلوع ونهرب بعيداً عن المدن.

بطقس خائف أمد ذراعي مطوقاً ظهر منى، وبتوجس تسلت أصابعي في ثنايا  
شعرها القمحي منحدره نحو رقبته. يولد من الذاكرة توقع يغيب بعد حين. مع  
الأحاديث تندغم المداعبة. نحكي عن الشعر. عن توكيد الذات، وعن الخيبات في  
عالمنا المختل، وعن المناطق المحرمة، الملقومة: الدين والسياسة والجنس والحرية.  
ولا في عالم الحس، أرق وأعذب من جلد هذه المخلوقة التائهة، المترددة بين  
وجل التاريخ، ونقصي الكوني، وعالمها المغلق.

أحسست ذلك وأنا أسوح برؤوس أناملي، فوق أديم رقبته وظهرها، متمنياً  
بشفاعة لو تنزلق نحو ثديها الناهضين العذراوين. إذ أطفى الضوء الداخلي في  
الباص، مال رأسي بتلقائية حتى شارف خدي خدها. شممت رائحتها. رائحة  
الغابات والمطر في ليل موحش.

وفي العتم سمعت ضحكها الصغيرة الحزينة.

خطفاً قبلتني ماصةً شفتي بألم خفيف.

نكّست راية الحزن. هب فرح شبيه بفرح يوسف وهو يرفع من الجب.  
ضغطت جسدي بجسدها. مال رأسها على صدري. مرغت أنفي في ثنايا شعرها.  
سحرتني الروائح وسمعت وجيب قلبي يرتفع.

[ ]

هوذا وائل الأسدي يستقبل البراري بسيارته الفارهة، يسابق الريح في هذا الليل الممطر.

هدى قربه. تطوقه. وعلى المقعد الخليقي بيني وبين ناديا مسافة خائفة.  
يقهقهان. فيرتمي على طريق الصحراء، في الصمت، ألم خصوصي.

- ها. آه. يا فارسي العظيم. وتعصره بشهوة امرأة روضتها ساديته. السيارة  
تطير. وائل رجل مهووس بالسرعة. يمضي. يمضي. والحدود بعيدة. وبعيداً. بعيداً.  
يتمدد الاغتصاب.

وتصرخ هدى: وائل حبيبي. أنت تقتلني.

ناديا شاهدة اللامبالاة. سكينه مطلقة في ليل جريح. وعبر هدى يبدأ  
التحرير. الرجل المقيد هوذا يشفى بطن هذه المرأة؛ وأنت ما أنت! إنك ترى  
كل ما يحدث وأنت ترغب امرأة. أكثر من امرأة. عربي أصيل من سلالة النبي.  
داخلك بقعة صغيرة لم تلوث بعد. تود أن تغزها عن الماضي. لكن الرجل الميت  
ينفض في وجهك: أنظر جيداً بوضوح. إياك أن تنسى. إياك أن تتزلق كثيراً. هنا  
وهناك مليون فح. مليون صوت. بينها صوت مناحيم بيغن يدوي كالرعد. وتصرخ  
هدى: أنتما رجل وامرأة أم امرأتان؟

ويعقب وائل ساخراً: دعيه. صوفي تافه يحلم بقصيدة يهديها إلى ناديا.  
هكذا إذن. ولم أنبس.

على جانبي الطريق راحت البراري تنفرج تحت خباء الليل. كنت صامتاً وأحلم  
وأتمخيل.

وقالت ناديا: مالك صامت؟

رفعت كفتي: عن أي شيء أحكي؟

- أي شيء!

قلت : لو وشوشت لك مثلاً أني أحبك هل تصدقيني؟

وصمت .

كان وائل وهدى بمارسان الجنس على ضوء الراديو الذي يصدح بالموسيقى .

وقالت ناديا : هل تنتظر من المرأة أن تبادر؟

طوبى للخمر . طوبى للرغبات .

ليل وسيارة تجتاح الاسفلت . برار وموسيقى . وشابان مع فتاتين خارج حدود

البشر المراقبين .

- أشعر بالبرد .

طوقتها . جمعت جسدها إلى جسدي ، ومعاً احتفلنا بهبوب الفرح والدفء في

جسدنا .

في ممر الباص غنى الشباب والبنات ورقصوا ، وإذ دعوا منى للرقص ،

شجعته .

لأول مرة أراها تخرج من حدود عالمها ، بهذه الحرارة . أحطناها باهتمام

فاندبجت معنا وراحت ترقص كأنها تعانق ميسالينا . شدهت بها . كانت جديدة ،

هذه الأميرة التي رملها الزمن غدراً ، وتمخلى عنها ناس مدينتها ، فبدت كما لو أنها

ذهني ، متألفة ساحرة ، متوجة بالفرح العاطفي .

حولها الصبايا يرددن أغنية فيروزية راقصة وكأنهن جوار . بين الحين والحين ترنو

بانجاهي والحزن والفرح يهلان من وجهها الدافق بالحياة . خيل إلي ان الرقصة لي

وليسالينا ، فغنيت لها لأول مرة وصفقت .

من أول مقعد حتى الأخير ، مرت عليهم بابتسامتها المشرقة . كانت تنعطف

وذراعاها تحفقان كجناحي نورس . في وجه الأميرة الطروادية تعلق الوجوه . مرت

قربي ، غمزت ، وابتسمت ، ثم عبرت .

كالجمر لاح وجهها ، حبات من العرق الذي نضح ، لمعت عليه . توقدت

أعين الشباب ، وارتفعت الحمى . كانوا يشتهونها الآن .

جذبوها نحوهم . وشوشوا لها . أمسكوا أصابعها . مرت أناملهم فوق ثوبها

الوردي . رقصت مع أكثر من اثنين ، وكانت تبسم . تجاوزتني ضيابة الغيرة :

لا تكن سخيفاً !

وراحت تلهث. نهذاها النافران يثبان تحت الثوب، وخصل شعرها الكستاني  
تبعثرت بهمجية، ومن تحت ابطها انبتق العرق. بدت وكأنها تحطت الاعياء  
الجسدي، داخلة مساحة القدرة النفسية التي تهب الجسد قوة جديدة خارقة في  
لحظة التحدي. هذه منى. واذ تحاول ألا تفهم لست أكثر من أحقق مأفون ككل  
هذه الأجيال التي تتهاوى لأن العالم لا يُبنى كما تريد.

ليست لك ولا لميسالينا، ولا لدمشق، ولا لأي ذكر تشهى الرقص معها  
سراً، ولم تكن زوجة الذي مات قتلاً.

على جدار الباص الداخلي قرأت عبارة: من راقب الناس مات هماً. واذ  
أعطت النفس قدرتها بعد الاعياء الجسدي، هبطت قربي.

أفسحت لها قرب النافذة. ناولتها مندبلاً. رنوت إليها بمحايدة. ثم ارتج  
الصمت بيننا.

ودفع وائل المرأة الملتصقة به كحيوان أليف، بعد أن أنهى طقوسه. وتباطأت  
السرعة.

- الإنسان لا يُحدّد. هذه مقولة تاريخية! يقول راني العظيم.

رأسها. يرتاح فوق زندها المتكى على افريز نافذة الباص. في الظلام الممتد  
فوق الأراضي البور، سهمت. هبت ربح رخاء تلاعب شعرها وتجفف العرق.

- الإنسان يقبل بكل ما فيه أو يرفض.

أنا هل قبلت منى بكل نقصها؟ هل ارتضيت توقيع صك الانكسار معها  
خلافاً لكل المخلوقات الأخرى التي اعترضت طريقي في دمشق العجيبة؟

وهل كانت منى حقاً ضوئي الذي استحق أن أغادر من أجله طفولتي هناك؟

[ ]

ناديا سهلة. هكذا بدت في تلك الليلة. كانت مطواعة كما ينبغي.

غطاء مبدئي من الكذب، ملفع بقماش من البروكار والموسلين، ملقى أمام  
تجار سوق الحميدية: حاجة يا بيك. بوبلين. ديولين. أهلاً وسهلاً. شرف. تركال.  
موسلين. بروكار. أسعار متهاودة. وفي نهاية السوق المغطى بالصفيح يقوم الجامع  
الأموي: مطهر الكذب والجشع والاستلاب. ناديا. هدى. أمينة. أيوب السرحان.

دنيا تعبق بالروائح. تاريخ قديم يصطدم بهبوب معاصر. بريح قادمة من ريف  
اسكندرون المغتصب. من فلسطين. ومن قرى حوران واللاذقية وحماه. وسهوب  
الجزيرة الحارة.

- «لماذا استسلمت ناديا وهدى ببساطة في ظلام سيارة وائل الأسدي  
الفوكسهول»؟

وخلف السؤال الصغير، كان سؤال آخر مايني يقرع جدار الذاكرة: ولكن  
نحن لماذا نخور كثيران هرمة؟

ثلاث سنوات مرت، وأنا أحاول نيل منى، وعبثاً. وفي ليلة واحدة نلت  
بفتي من ناديا.

على المقعد الخلفي عربيتها، ومن شفتيها حتى الأقصى من جسدها، قبلتها.  
بين ذراعي كانت كالخرقة.

على شاطئ البحر استلقينا وبيننا مسافة. رغبت الاستلقاء على صدرها، أعدت  
آلاف النجوم المزروعة في السماء الزرقاء وأنا أتابع اعترافها.

كنا طفلين في حي واحد نلعب ونتشاكس ونضحك. ذات يوم انفرد بي في  
زاوية مظلمة وهمس في أذني: أحبك.

أذكر الآن أنفاسه الحارة، وعينه الخضراوين كلون هذا البحر. فيما بعد  
اعتاد تقبيلي لكنه ظل يرتعش. كنت أشعر بقشعريرة تخرق جسدي ونحن متعانقان.  
وإذ يستمر اللعب نغافل الصبية وأقوده إلى زاويتنا المهجورة. نلتحم لصق الجدار.  
نلهث بولا ننبس.

وتبتسم ببراءة قديمة: كان عذبا. جميلاً كزهرة برية. عندما يتأخر أصد إلى  
متزله وأناديه فيهرول ورأني على الدرج المظلم. في الظلام نتوقف. يقترب مني يضمني  
إلى صدره، ثم يبدأ ييوسني على شعري وجبهتي وعيني وخدي. بعدها تشتبك  
أصابعنا اللهفي ونخرج إلى الساحة. إنني أتذكر صياح الأولاد بنا إذ نقبل عليهم:  
جاء العاشقان. تلك كانت أول رعشة حب في حياتي.

- ثم ماذا؟

وبين البحر والسماء توزع بصرها. تنكت الرمل، وتروح ترسم أحرفاً ودوائر  
لا تلبث أن تمحوها: ثم مات!

ومذ كانت طريقاً للقوافل بين اليمن ومكة ، اتسم تاريخها بالمقايسة . وعلى مر الزمن ارتخى الذين هبطوها واستقروا . داخلتهم الطمانينة والرسوخ فكانوا مضرب المثل في اللدانة والكبيل المسالم .

- أخي عابرون بعد الرمل والحصى مروا من هنا ، منذ لذريق الرومي حتى عبد الناصر . ومع ذلك ظل قائماً المسجد الأموي ، وسوق الحميدية والحريقة ، وقاسيون ، والنساء ، والخارات . الذي يأخذ أمنا نسميه عمنا . هذه حال الدنيا .

وجيداً يدرك أيوب السرحان معنى الطرقات الخافتة في أواخر الليل . وأن كلمة : كنت ماراً من هنا فرأيت ضوءك لم يُطفأ ، ليست أكثر من اختلاق مفاجئ يتجاوز ظاهرية الغباء ، يُضاف إلى تاريخ المقايسة السرية التي أُلْفها حتى امتزجت بالخمير والبسات ، وخبز الأفران غير الناضج ، والخضار التي ترش بالماء ليزيد وزنها .

- قبل قليل ذكرتك أمينة . ابن حلال . أهلاً . أهلاً . وبنهض بتناقل خمري ، لكأنما ألوف الأعوام جائمة فوقه .

- بالله دعك جالساً .

- لا والله . هنا أخي . هنا .

ويمهد السرير الذي ينام عليه ، ساحباً نكتة بموضعها بدقة خلف ظهري .

- لماذا عذبت نفسك بهذه؟

رامياً بصره على زجاجة الخمر الملفوفة التي أتته بها ، وفي عينه فرح ضمني حدوده تنتهي على تخوم جسد أمينة المحرم .

- ما رأيك بكأس؟

ولا ينتظر جواباً . يدين مرتعشتين ، أعصابها مسكونة بالكحول ، يصب كأساً . وترتعش الزجاجات فتكاد تسقط من أصابعه المعروقة . ويبطء يقدم الكأس . للحظة يخيل إليك أن هذا الرجل سيموت بعد أن يضع الكأس .

- الشعب نائم؟

يومي ثم يستطرد فجأة : بسيطة نوقظهم . أخي لماذا طلائتك قليلة؟ أنا وحدي كما ترى لا أجد من يؤنسني وسيرتك أبدأ على الشفاه . أم سمية



تقول : لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

- أسكن مع صحاب لا أستطيع مغادرتهم.

هذه المخلوقة جرثمتني. في الشوارع أشم رائحتها، وفي مركز عملي، وعلى الوسادة عندما تبدأ الوحدة السرية واجتياح المناطق المحرمة، والتداعي.

صورتها. جسدها. أنينها الجنسي وهي تفهق في بحر اللذة القصوى. بحركة لا شعورية في ساعات الضيق الليلية، تفكح قدماي باتجاه ذلك المطهر الجسدي، مثلما فراشة تتجه مغناطيسياً نحو النار. أقول: تحرر منها يا ابن آدم.

يشن الجسد: جسدها كعبتك.

أقول: لقد دمرت حياتها.

تقول الرغبة: الجسد الحزين في الجسد الحزين فرح ومسرة.

أقول: ولكن إلى متى هذا التريف؟

يقول الوعي مسوِّغاً: أنت تجدد حياتها.

- امرأة لها ما ليس موسوم.

- تتطهران.

- لكن الثورة تخسر.

- الثورة تحقيق رغبة.

- ولكن ما علاقة الثورة بالجسد؟

منى لماذا هذا الدم محرور؟ لماذا الروائح الكريهة تكاد تشم حتى مئات الأعوام القادمة؟ ينابيع التطهير والاختسال بالدم، ثم الغوص في المستنقعات كيف تجتمع في بؤرة واحدة؟

من منهم يسوع. ومن منهم يهوذا؟ وهل وائل الأسدي هو محلّص فلسطين؟

[ ]

على الرمل رسمت كلمات. أجيال تتقدم. تحتها رسمت: أجيال تسقط. بينها نحت كلمة: (تتقد قط) ضحككت منى من أعماق صدرها حتى كادت تقفو فوق الرمل. أدهشتني ضحككتها. رنوت إليها: لماذا تضحكين؟

وهي تنهض راحت تنفض تنورتها من الرمل : أنظر ماذا كتبت؟

- ماذا؟

- ما معنى (تتقد قط)؟

واهتزت مرة أخرى بالضحك .

تأملت الكلمة ثم ابتسمت . بقدمي محتها ، وبحركة تراجيدية حفنت رمل الكلمات ورشقته أمام موجة قادمة . كنت أتفرج على تبعثر الرمل تحت اكتساح الموجة القادمة .

كانت الشمس في الضحى ، والبحر يلمع حريراً تحت الأشعة ، ومن بعيد لاحت الجزيرة والسفن البعيدة العائمة ، وعلى الشاطئ كان الشباب والفتيات يتراشقون نصف عراة بالمياه ، واثبين فوق الرمل كالأطفال .

سأجري مثني متر فوق هذا الرمل الأملس .

- دعينا نتسابق !

- اجر أنتَ وأنا أعدُّ لك الزمن !

أول موجة ربح رشقت وجهي ، واندفع قسم منها إلى رثتي ، أعطني إحساساً بالحرية . هأنذا أمضي كالسهم قرب البحر اللانهائي ، متحرراً من منى وأمينة ووائل الأسدي وأيوب السرحان وراني وسامر ونفسي ، ومن تلك الدمشق الضائعة وراني .

امض . امض . تجاوز المثني متر . حطم الأرقام وخلف العلامات التي رسمتها . (تتقد قط) . أجيال الرمل والزمن المحدد . مكتوب هذا في سفر العربي . في الجسد والنفس . أجيال الهبوط والصعود . والريح تنثر وجهي ببرودة بحرية ، وفوق الرمل

آثار لقدمي الماضيتين . اطو المسافات . جيل الانقلابات والثورة المؤجلة والجنس يصطدم برغباته . يخبط فينسى ويقع . ارم كل شيء في البحر الشاسع وامض . جيل الصعود يجري كالطلقة نحو غايته ولا يتوقف إلا بالموت .

«إذا لم يكن ما تريد فاصنعه أو انتحر» .

وفي الزمن تجثم منى وفي النوايا . خلفوها ومضوا باتجاه رغباتهم . ثم نسوها . منى تحصي الزمن الآن بعد أن غدرها بالموت والهجر . لا تثق بي . ستفقدني يوماً بالموت أو بالهجران . تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب .

ويعيا الجسد فيبدأ الهبوط . تعيا النفس بضربات اليأس المتواصلة ، وأحد ما

لا يفهم على الآخر. الكل في مدار سرطانه الذي ابتناه من خيباته وعشقه الذاتي ،  
يدور: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون. تلك حال الدنيا يا عزيزي أبوب :

«والرمل ما ينعجن

والشوك ما ينداس

والسر ما ينعطي

إلا لناس وناس»

لم يعد بالإمكان الاستمرار في العدو. كانت تصيح من خلني بصوتها اليتيم.  
وإذ انعطفت نحو اليمين شعرت بالإحباط وانهر الحزن.

- «لماذا لا يستطيع الإنسان المضي حتى النهاية»؟

على مهل كنت أسير الآن. وفي منتصف الطريق توقف وائل الأسدي فجأة ،  
ساحقاً الأسفلت بعنف. وهبطنا. رفعت رأسي. على الرمل تنهض قامة منى. نباتاً  
برياً اقتلَع من أرضه قبل الأوان. هوذا جذره يحف.

- «كيف أعطيها نسفي»؟.

وإذ اقتربت منها فتحت ذراعها. مدتها كمسيح مصلوب فوق الرمل. إلى  
يسارها البحر، وجبال الزيتون إلى اليمين، وابتسامة في طراوة الغسق تشكل بين  
شفتين في لون حبّ الرمان.

كانت على بعد أمتار منى. وندّهت بي: أسرع. أسرع. ما بك؟

ولم تتغير السرعة.

خطوة. خطوتان. فجأة سقط الاعياء في مفاصلي، وهويت فوق الرمل.  
كان الرمل رطباً. على مهل رحت أحفره بأصابعي. نرّ ماء من جوانب  
الحفرة. تهيل الرمل فوق الماء فغار.

قرب رأسي فوجئت بقدميها الحافيتين. أصابع صغيرة ناعمة. تسلقت عباي  
ساقها. ارتفعت. مسحت جسدها بطقوس من يتعبد بصمت. كان هناك نائياً يلمع  
تحت الشمس، وعلى وجهها لحت غمامة غمّ.

على الرمل قرب وجهي ركعت. غلغلت أصابعها في شعري. مسحت وجهي.  
رفعته. كان وجهانا متقابلين تماماً الآن واستلقى الصمت.

بعد هنيهة سألتني : ما الذي حدث؟

في الداخل كان شيء ما يختلج . وتمدد الصمت أيضاً .

- في عينيك انحرار!

وقفت . رفعتها عن الرمل . انتصبنا متقابلين على شاطئ بحر وفجأة طوقتها . حملتها من تحت إبطها ودرت بها حتى دخنا . وقفنا فوق الرمل ورحناتمرغ .

- الناس أيها العاشق الفوضوي . صرخت بي محاولة التملص والهرب . صاح الحزن الغاضب : ليسقط الناس . لتقع موق عيونهم على الأرض . هذا لا يهمني . ما يهم أن نبي حباً يتحدى الزمن والبشر . أنا أعبدك وهذا كل شيء .

كعاشقين في جزيرة مقفرة تدحرجنا فوق الرمل . وقفنا . سحبنا من زندها وجرينا مجنونين على الشاطئ . لم نشعر بالاعياء . تجاوزنا المسافة نحو الكثبان البعيدة . خوّضنا في اثباح الرمل . غنيتُ لها ، وقرأت أشعاراً لرامبو ولوركا والسياب : أهوى أن أسرقك ونطوف العالم معاً .

وقالت وهي تمضي : ستملني !

قلت ونحن نجري في الريح بلا توقف : عندما أملك أنتحر .

فوق الرمل خبينا . كانت أحزان العالم منسية ورحنا تمضي هاربين من الأصفاد . ذراعي حول ظهرها وما نزال نبهر : أنتِ معي وأنا سيد الزمن الآن . قبلتني خطفاً . ارتمينا خلف الكثبان فوق أرض قاسية .

كانت الأرض ساخنة . فرشت لها جسدي فاستلقت عليه .

عيوننا مغروسة في سماء صافية ، في العراء المقفر . كان صدري مخدتها وخصل شعرها موزعة فوق وجهي . وقلباننا ينبضان .

- سيكارة !

وأشعلت لفافتين في في ، ناولتها واحدة .

- هل يوجد في العالم حب كهذا؟ وابتسمت بعدوبة ملاك . نفخت وجهي بحفنة دخان . ورفرفت عيناها محذقة في الفضاء الرحب .

الآن يبدو العالم رائقاً كبحيرة في صيف عذب . أنا ومنى عاريان في قلب هذا العالم ، نستحم فتصفو النفس ويصح الجسد .

- هذه الأرض لماذا لا تجتاحها ثورة تقتلع جذور المحرمات الدينية؟ - ما هذا الذي نحيا فيه إذن؟ يسألني سامر البدوي.  
فأقول: مشروع فقط.

ينخر. ثم يبصق مستعيداً تماسكه: ما الثورة في رأيك؟  
أجيب: الثورة أن تبني عالماً يعيش فيه الإنسان بصحة نفسية مطلقة. أعني أن يولد فيه إنسان جديد يعمل ويحب ولا يستغل.

- هذا تعريف نصفه اشتراكي والنصف الآخر برجوازي. تعريف عمومي غامض.

أدهش: سامر. أنت تقول ذلك؟  
يمدّ عنقه المتوتر ثم يهز رأسه مؤكداً: أي سيدي. أنا أقول ذلك! الثورة أن تحرر الإنسان اقتصادياً أولاً وبعد ذلك يأتي التحرير النفسي.

أقول: ولكن أنا لم أقل لا تحرر الإنسان اقتصادياً. ما أردت قوله: أن التحرير الاقتصادي لا يؤدي ميكانيكياً إلى تحرير البنية النفسية. هناك الثقافة والحرية الفردية والوراثة والدوافع. العالم لا تحكمه القوانين المادية فقط.

- التشريع الذي استُنَّ بطريقة تحكيمية زجرية بعيدة عن فهم الدوافع النفسية والرغبات البشرية، تشريع فاسد، معاد للإنسان. ما هو مهمّ كيف تنشئ مواطناً خلاقاً يناقش، يشارك، يرفض أو يقبل بوعي ومسؤولية. يرى الحقائق بعينين مفتوحتين وذهن واسع عميق. مواطن حر من الداخل وليس مصفداً يهز رأسه موافقاً كعبد.

بثقة اجتياحية يقرر سامر: هذا كله يمر عبر التحرير الاقتصادي أولاً.  
وما تتحدث عنه يأتي فيما بعد. المهم هو الاشتراكية.

وأقول: لماذا لا تقول انه يمر عبر التاريخ بمجموعه وعبر الوثوق بالإنسان. عندما نفهم التاريخ جيداً والإنسان هنا، ونثق بأنفسنا، تتبدل المفاهيم والشرائع ويتبدل الإنسان. وهذه هي الثورة.

- أنت مشوش. مفهومك برجوازي ليبرالي عن الثورة. أضحك من تشوشي، وصفاء سامر البدوي. من فوضويتي وضبايتي ومن حياته وأفكاره النقية نقاء خمور رأسه.

منى وحدها مزارى. قدس أقداسى. معبدي الذي أتعمد فيه عندما يداهمنى  
التلوث والتدجين. هي ذى تستلقى على صدرى. هذا الموثل ألوذ به فى حميا العالم  
القحل المتصارع، بعيداً عن كل التصنيفات الحمقاء التي تحولت إلى حراب نظعن  
بها.

إلى الجحيم جميع النظريات التي لا تؤله الإنسان وتخلق لحياته مناخاً صحياً  
يتمدد فيه بحرية مطلقة.

وددت أن أهتف بوقاحة: أنا الحب وأنا الثورة، أنا الفرد وأنا المجموع، أنا  
الله وأنا الاشتراكية، ومنى ينبثق معنى العالم. وكل ما عدا ذلك هراء وقبض  
الريح.

لكنى أحجم: منى هانى شعراً رومانسياً.

بأسى عميق تدندن: « للناس ظلالٌ وعشبٌ وموانئٌ، ونحنُ مرافئنا مهجورةٌ.  
للناس بيوتٌ وأغنياتٌ حبٌّ وأنا وأنتَ خرابٌ وغيومٌ صيفٍ ومسافات. وحيدانٍ فى هذا  
العالم، فى هذا الزمنِ الصعب، ولا موانئٌ وحيدانٍ كحبتى رملٍ على شاطئٍ  
مهجور، فى مدينةٍ لعنَّها عرَّافٌ قديمٌ من ألفى عام. أنا وأنتَ حواريانٍ نبحثُ عن  
مسيحٍ لا يُصلبُ، عن أناجيلٍ لا تهترئ وتزور. عن توراة لا يرفعها السفاحون رايةً  
غزوي، عن قرآنٍ لم يمسه إنسان. كتابٌ جديدٌ لم تأكله أصابعُ الزمن. عن وطن  
لا يقتلُ أبناؤه بدم الأجداد».

قبلت منى كأنما دمة وثبت إلى حلقي. هبت رائحتها أعذب من رائحة  
الأرض غبَّ المطر. وفي لحظة كالبرق، تمنيت لو أطوبها تحت ضلعي وأمضي مخترقاً  
بها حدود العالم؛ نحو الجزر النائية. نجيا على ضفاف الأنهار وفي الجبال الموحشة  
وداخل الكهوف. نزوي قصصاً وحكايا عن الجنِّ والعفاريت والظلام المخيف  
وتماسيح المستنقعات. على الصخور وعلى جذوع الشجر، نفصد دمنا ونكتب  
أشعاراً. نستحم فى مياه عذبة لم يمسه جسد إنسان، وتحت أشعة شمس جديدة  
نبكي ونغني ونرقص؛ نلتحم فى ليالي الشتاء ونلدُّ نسلأً جديداً، هادئاً وغضباً  
كالبحر، حاراً كالشمس، وكحدِّ السيف مصقولاً. ثم نموت كالأشجار فى العراء بلا طقوس  
دون أن يقرأ حرف على قبرينا.

سألت رانى قبل أن يسافر الى بيروت لتتويج ولعه بالماجستير: هل يسبق

الانسان زمنه؟

ضحك مني وقال : الثوري الطبيعي يحرق مراحل التاريخ .

ثم سألت أيضاً : وهل نحن ثوريون طبيعون؟ .

فاجاب بجفوة : بالمعنى الماركسي الكامل . لا ! .

واذ قلت لماذا؟ اجاب : لأن علينا أن نقدم تنازلات وتوجل الاحاسيس

والمعاني النفسية المتولدة في الهنئيات الشخصية . تجاوزت رده الشخصي وسألته : هل ينبغي أن تذهب الى بيروت من أجل الماجستير؟ .

وبوثوق قال : ينبغي .

- ولكن ماذا ستقدم لك هذه الماجستير السخيفة؟ .

وبثقة محض شخصية ، ابتسم : ينبغي المضي في المعرفة حتى الاقصى . بذلك

نترود بأسلحة أقوى .

- التجربة والثقافة العامة ، ألا تكفيان؟ .

- الاصول الأكاديمية تعطي تماسكاً أقوى .

ثم سأله : لماذا لا تقيم الماركسية كبير وزن للمثقفين؟ .

وأجاب بفجاءة : لأنهم لا يستسلمون بسهولة لقوانينها الحتمية والاقتصادية .

- راني هل أنت ضد الماركسية؟ .

- أنا ضد الحتمية التاريخية والتعسف . أو من بالارادة وصراع الأجيال الى

جانب صراع الطبقات . فرويد وماركس يمكن أن يفسرا العالم الى حد كبير . لكن

يقيني بأن الانسان لا يُحدّ تماماً ، ونظرية واحدة عاجزة عن استيعاب الانسان .

سافر راني أخيراً . واختفت مني زمناً . وفي غيابها بدت دمشق فارغة في ذلك

الفصل الشتائي الكئيب . وحده كان وائل الاسدي ملاذاً اضطرارياً في اماسي

دمشق .

كنت مضطراً أن استمع اليه وهو يسرد مغامراته وتاريخه الشخصي وفحولته

فوق أجساد النساء الجميلات دوماً . وإذا أضجر من ثرثرته أحتجب في جسد أمينة .

سيارة وائل تبدو سفينة المهمات العظمى ، والسريان الليلي نحو المخادع والبراري .

أعظم ما فيها قدرتها العجيبة على الوصول قبل أن يكتشف أحد من فيها ، لكن الرديء فيها

أيضاً ، أنها تفوح أبداً بعطر نسائي يثير التقزز .

- رائحة سيارتك كرائحة مبنى .
- بحق يزورني : كلب . سافل . تنكر فضلها عليك . هاه ! .
- أقول : فضلكم عميم سيدي . ولكن أنت تعلم أن العبد الفقير يحاول أحياناً أن ...
- اخرس . تُمَسِّكِن نفسك . عليّ الطلاق في هذا البلد لا يوجد مثلك أفعى .
- وائل ! والله أنت غلطان . حكّمك حكّمُ مخبرات . أقسم لك أن القط يأكل عشائي .
- طبعاً ، من لا يعرفك جيداً يعتقد ذلك . انما بشرفي أنت ذئب هذه المدينة بثوب حمل .
- لعنة الله عليك يا كاشف ستر الدراويش .
- ويصرخ : اسمعوا يا ناس ! يا سامعي الصوت ! قال درويش . قال . إذا كنت أنت درويشاً فأنا نبي اذن ! .
- لا سيدي . أنت ضابط مخبرات وبس .
- ونقهقه عقب شتيمة لا بدّ منها ، يطري بها لسانه الطاهر . نجتاز شارع بيروت نحو دمرّ . كل منا بعد هذا الحوار اللطيف يشعل لفافة ، والسيارة تشبع فوق الاسفلت كحجل يسفّ فوق المنحدرات .
- على مهلك ! .
- خائف على روحك الخبيثة ؟ .
- خائف على النساء اللواتي سيترملنّ بعدنا .
- لا تخفّ . يوماً ما سنموت كالكلاب ولن تنقص البشرية . تأكد من ذلك .
- ولكن أنا لا أود أن أموت بهذه الطريقة المجانية السخيفة .
- تريد أن تفلسف الموت . طز . هو موت وكفى .
- ويمضي في السرعة نكايه بي ، وبالجرح الثاوي في فخذ أبيه .
- لن تصل أبداً .



- لا بهمّ. الاساسي في هذا العالم القدر أن تعلن غضبك وتحتقر جميع الأشياء.

[ ]

ودمشق ليل وتوق لا ينقضيان أبداً. مدار الموت والحياة مذ نكتَ يزيد أسنان رأس الحسين المقطوع بطرف عصاه، الى أن بدأت سلالة أيوب السرحان بالانقراض في عصر منى.

ها نحن خارج المدينة. في البراري مرميون وتحت ضوء القمر نشعُ ثملاً ورغائب. ودمشق هناك في الطرف الأقصى، مشعة بالضوء والتذكر، بينما نتلف هنا بالحس العضوي بين الهضاب المنارة.

سكون. سكون. كأنما نمثل أمام الحضرة الالهية. صدى الصمت برّده البراري، وفي النفس توقع. صبا نرق متوحش حالم، وأرض منبسطة، ثم هذه السفوح الخضر الصالحة للركض والمضاجعة.

غب هود المطر فاحت رائحة الأرض، عبقث ورائحة النساء. كنت اطوّق ناديا الآن. نحو شعب ضيق يمضي وائل وهدى. يضيغان عنا. ونحو كهف صغير بين صخرتين أسحب ناديا ونزوي.

- أنا خائفة.

- من ماذا؟.

- هذه البراري!.

ابتسم: البراري لا تخيف. الانسان هو...

واستطرد: انظري. انظري. حيوانان.

وترجف هارعة الى صدري.

- هذان وائل وهدى. ونغرغر ضحكتين فزعتين مغموستين بشهوة. إنهما يمضيان بعيداً.

ونستلقي.

الأرض خصبة، معشبة تحتنا. نثار ضوء يرشق النصف المنحدر منا خارج الكهف، وفي هبولى الحياة نمضي. نهتز فتهتز الأرض. ندخل منطقة الروائح

فيتلاشى الحلال والحرام. جسدان يومضان، وهما يتطهران. وناديا أرض سهلة العبور.

إذ يعود السكون يهد ضجيج الأرض. حتى الروائح يتغير عبقها ونسقط في الفراغ. تصير النجوم نجوماً موضوعية، بعيدة، خافتة الومض. القفار أراضٍ من البور الصلبة. ومع تراخي الجسد يتراخي الزمن.

الآن استقرت الشرارات التي خرجت كطلقات الجبان. وفي فضاءها ركنت النفس، بينما استلقى الائم النادم على تخم الفضيلة. ومن البعيد، البعيد، جاء صوت هدى كأنما تذبح بمطواة.

سألت مني: لماذا نحن مفصولان؟

فقلت بطفولة مفجوعة: لأننا غريبان ما نزال!

- ولكنني أشعر انني أعرفك منذ الولادة. سلسلتُ في سمعي: الحب الحقيقي يُعرف مرّة واحدة.

وحزنت لأن مني ما عادت تعرف كيف تحب.

مذ صممت أن أتقرى النفوس في أويقات فيضها الخاص ، كنت أداري  
حدّين من الشعور: رغبتني في الأفصاح ، واستمرارية الكشف حتى الوصول . واذ  
تنتصر رغبتني الاخيرة ، كنت أشعر بأنني أزداد عمقاً في التعرف على اسرار العالم .  
الآخرون بحرات مجهولة ، ودمشق ذات الطقس المتبدل ، بدت لي سماء تغطي تلك  
المجرات . قليل من ضبط النفس كان كافياً لتعريفها .

قبو مشبع بالموسيقى والخمر ، وأشياء أخرى ، يوحي بضرورة امرأة ناضجة  
تحب الرقص والمجون ثم الاستلقاء العاري .

بمجرد احساس عابر داهمني وأنا ألج القبو .

سُلمت . مسرور المرمي على الخوان اكفى بهز رأسه . وابتدرتني ديانا : عاش  
من رآك . في الشهر مرّة يا شيخ ! ثم استطردت متهكّة : طبعاً الأحباب ينسون  
الأصحاب .

وتحرك مسرور : ملعون دينك أين أنت طوال هذه الأيام ؟ .

لم أجب واشعلت لفاقة .

- سنهر معنا اليوم .

نفخت الدخان في فراغ الغرفة .

أضاف : أناس يريدون التعرف بسيادتك سيحضرون . نفخت الدخان أيضاً :  
أنا أكره الآخرين .

بغضب : غصباً عن آهتك ستحضر ! .

واستطرد هامساً : نساء . نساء . نساء يا عدوّ النساء .

ولعت ديانا : لا تهمس . لا تهمس له . مفهوم . مفهوم . النساء يُسخخنك

أكثر منه ! .

قلت متهدأً: عزيزتي ديانا. أدبي زوجك. انا انسان مهذب وبريء كما تعلمين، أما هذا البدوي...

نهت: معلوم. البراءة تشع من عينيك هذا واضح. في ديني أنت أزدل منه. وكل منكما يشتهي حفيف ثوب امرأة ولو كانت غجرية.

صحتُ: تهينين الفجريات ديانا! هؤلاء طبقات كادحة!

أرقص مسرور ضحكة بلهاء مع شاريه. توجه الى ديانا وهو ينهض: تسبين الثورة؟ طيب. غداً تقرير من أربع صفحات.

شالت ضحكات، وردت ديانا بعدوبة: يا عيني على هذه النماذج الثورية التي لا تفكر إلا بالتقارير!

مستخفاً قلت: فتحي عينك ديانا. أنا ما عدتُ ثورياً. واحد مثل زوجك ثوري! أنا بطلت هذه الخزعبلات.

- اسكت. اسكت. اذا ترك لك الحديث تثرثر عن الثورة دهرأً بأكمله. استدزكت: إذا لم يكن هناك نساء!.

جهرت بعفوية: الثورة والمرأة لديك صنوان تخلط بينهما ولا الرب يعرف كيف. ورفعت أنفها استخفافاً، ثم تحركت خارجة نحو المطبخ.

- ديانا. قهوة سكر قليل.

جاء صوتها من المر: نحن نشرب القهوة بلا سكر.

- لست بحاجة الى حلاوة. وكنت توقعاً خيباً. تجهّم مسرور بقمطيرة مازحة: ولك. ديوث. تغازل زوجتي أمامي؟.

باشرته: أليس هذا أفضل من الطعن في الظهر؟.

وهبت في الذاكرة صورة أمينة.

عبرت النكته. ألح مسرور على ضرورة حضوري، ولم أقطع معه بقرار. رويداً في غياب ديانا راح ظل ثقيل يهبط فوق المسافة الممتدة بيننا. أزحت الملل باشعال لفافة جديدة، ورفعت رأسي محققاً نحو السقف والجدران.

على الجدار المقابل لمحت أيقونة شمعية لمسيح مصلوب، وقربه نموذج امرأة

عارية تمثل الحياء الافريقي في طقسه النقي ، بعيداً عن أي احساس بالجنس . وقربي  
المكتبة .

[ ]

من صفد الى بغداد ثم دمشق أخيراً . رحلة شقاء محفوفة بالخطر وثقل الماضي  
المهين . كل هذا كان محمولاً على كاهل النفس التي تدمت يوماً وما اندمل الجرح  
بعد ، وكان ختامها الطرد .

عبر ليل شتائي قاس وحزين ، اجتاز مسرور الحدود العربية بعد ليلة قضاها في  
عراء الصحراء مطارداً من حرس الحدود .

كبحر صاف في صيف هجرته الريح ، بدا مسرور . غريب في براءته وبساطة  
حياته التي تصل حدود السذاجة . غير أن انكساراً خفياً كان يطلّ من أخايد وجهه  
الهرم . أتراه شعور ضامر بالمذلة هذا الذي يلوح في عينيه الباهتين وتحت ظل هذا  
الشعور اندغم بالحزب ؟ أم انها ديانا ؟ .

- بماذا تفكر ؟ سألتني .

- أجبت : فيك .

- بي ؟ .

- أجل .

- وابتسم بيلامة : ولكن ماذا فيّ يستدعي التفكير ؟ .

- رضاك ! .

- غريب أن يكون الانسان راضياً ؟ .

- احدى عجائب الدهر العربي . من أين يأتي الرضى للفلسطيني التائه ؟ .

- وابتسم بمرارة مستبطنة . أفرز كلمة عمومية : يبدو انكم معقدون أكثر مما

ينبغي .

ضحكت للمفارقة : ولماذا لا تسأل لماذا أنت راضٍ . أكثر مما يجب ؟ .

وابتسم : تزوج ترض . هذا دواؤك .

- أنت تعتقد جاداً أن الزواج يحل العقد ؟ .

- ربما . أعتقد انه يخلق حياة رضية بعض الشيء . على الأقل بنسي .

- راضٍ أنت عن زواجك؟.

وأطل وجه ديانا ومعها صينية القهوة. كانت تبختر بجسدها المتناسك ووجهها الشرقي، وإذ قدمت القهوة، رفعت عينين تلمعان ببريق خاص. وأنا اتناول الفنجان قلت: ديانا. زوجك الرصين يعظني بالزواج!.

- أنا موافقة.

- توافقين؟.

- آي. وماذا في ذلك؟.

- فوضوي مثلي يتزوج؟ الزواج اعتقال وأنا أعبد الحرية.

وأجابت بوثوق: المرأة تعقلك.

- على مسؤوليتك؟.

- على مسؤوليتي يا سيدي.

- ولكن هل أنت راضية عن زواجك من مسرور؟.

[ ]

ها هو يكتب من بيروت أخيراً، بعيداً عن دمشق التي وازتُ لديه حب لنا: «ما رأيك برسالة الآن. ربما كانت مزعجة؟ انني أجلس على بعد نصف متر من الموج الصاخب، احضرت معي مشروع اطروحتي لكي اشتغل به. هل تعجبك الاطروحات أيها المسكون بمنى؟.

لن أكتب لك عن الهموم بالطبع. شيء واحد فقط يستوي لدي الآن: قبض العالم وقبض الريح.

هل قرأت سفر الجامعة؟ اسمعني «جورج» اغنية (وداعاً يا وطني) وأنا منذ أمد أحاول أن أقولها. انني ابحت الآن عن وسيلة توقني أن لنا يمكن الاستغناء عنها. كيف يمكن الاستغناء عن حجر أصم؟.

لقد تركت انجليك وكانت مثلها في العجز عن تحقيق الرفض عملياً. حُنتي القديم من جهالة البشر، تخمر واستحال حزناً غير معترف به من قبل احد. عندما نلتقي أنا وانت ينبغي أن نكون ثملين: أية أشياء رائعة أيها الفوضوي النموذجي. كيف أنت؟ هل حبيبتك مثل لنا؟ من أجلي قل: طز على العالم!.

اسمع . سأتكلم يوماً وأعمد في الكنيسة كأني متزوج طبعي بليد النفس ، لكن  
لينا ستكون في النهاية لي . انني أذكرها بلا انقطاع كما أذكر دمشق وأعرف أيضاً  
انها تذكرني وتنتظرنني .

اعترف لك : انني لا أزال أحرار كيف أحببتي . لينا . كنت متشككاً حتى  
اللحظات الأخيرة ، وكنت ضعيف الموقف ازاء هذه النقطة . ولما أيقنت منها ازدادت  
ثباتاً وتماسكاً . ان حب المرأة للرجل هو بحق أتمن شيء في العالم . لقد استهلكت  
الرسالة في الحديث عن نفسي . لا شك ان لديك أخباراً كثيرة . انني انتظر  
رسالتك .

أعطيتني رسالته احساساً عذباً وحزيناً بالماضي ، عوّضت بها فقدان مني في  
تلك الأيام الخاوية . ها أنا أعبّر الآن ، وحيداً ثملاً ، شوارع دمشق تحت ظلال  
السنسرخت الكسول . الشوارع التي عبرناها سوية . وفي نفسي الاحساس الابدي  
باستحالة التلاؤم مع الاشياء . افكر بكلمته المخيفة «وداعاً يا وطني» منذ متى يفكر  
هكذا؟ هل وصل اليأس بالعربي حدود الانسلاخ لدرجة الوداع؟ وماذا بعد  
ذلك؟

كنت منقبضاً ، كأنما في حلقي سكين . طعم ريح دمشق مرّ وعذب . أسرع  
الخطوات هرباً من شيء في الداخل . السريان الليلي ، راني وأنا غير ضمير دمشق  
الشفيف ، ودمشق حب مسكون استوطن الضلوع . احسه يخفق في حفيف  
الاوراق ، في الأضواء ، في الحجارة ، في النساء والماء ، في الصوت والصمت .  
دمشق جنون أبدي يجيي ويميت . آه .

وأمضي .

- من؟

- أنا .

وتهمس باسمي . كأنما حوارني متخفٌ في مغارة ينتظر مخلصه الذي قدم .  
- آخ . أنت مخمور أبداً .  
- وأنا مخمور اشتاقتك .

في الظلام نلتحم . الأيدي والظهر . الصدران . الفخذان . أقبل نحرها وعنقها  
وخلف أذنيها . ثم يستقر توقي المخمور على شفتيها اللذنتين .

هوس. حلول. ودمشق هذا الجسد المفتوح للريح، بحر أمواجه تصخب وترتعش. أصوات مكبوتة قرابة النبي عام كما عبرت منى. أنجيل وتوراة ومصاحف جديدة كلها لم تُفتح بعد. ايقاعات البحث عن أمان وفرح بطل الأرض من أقصاها الى أقصاها. والجسد الباغي مركز العطالة وبؤرة الفرح المشتعل. جسد عطش مُغوى يفتح تحت المطر كما تفتح زهور النرجس تحت فجر ندي عذب. آه. وصراخ التاريخ يدوي بصمت في الحضرة الجسدية. أضواء ونيران. تنشق في ليال عصفي، ومطر. مطر ينهل فوق الاراضي البور. فوق الاراضي التي تبهل وتنشج توقاً لقطرة ماء تروي الحناجر الحارة المهملة.

- هكذا أنت دائماً متوهج كثور.

- أرضك ظمأى.

- أنا لا احب هذه العملية بهذا الشكل الحرام.

- تحبين أيوب؟

أحب أن نتزوج ونحيا في دنيا الحلال. هذا حرام!

- مستحيل! يقول المثل.

في الظلام تنهمر دموعها فوق كفي. أشعر بحرارة الدموع. أمسحها. وبيداً رنين حالتي المرضية. انقسامنا.

بعد موت الرغبة أتحامل للبقاء قربها. أسأها: هل بدأت كراهيتك له بعد معرفتي؟

تنه: ازدادت بعد أن عرفتك.

- هل تخفين شيئاً أمينة؟

تهمس: ملكتني كالوباء. آه. أتمنى لو انني لم اعرفك.

ثم بآلم تقول: أيوب رجل منحرف. رجل سيئ أكثر مما تتصور. وتبدأ تغص من جديد.

بعد صمت أقول: ينحو عليك أنك السبب في شقائه.

- أنا؟

- يردّد ذلك على مسمعي عشرات المرات.



تنهد. أداعب وجهها وثديها فتشهو: اسمع سأروي لك حادثة لن تقولها  
لإنسان. اقم لي؟.

اقسم. واستمر في مداعبة حلمتها.

- في الاسبوع الأول من زواجنا كان مضطرباً. في اليوم الأول نام معي  
ولم يستطع أن يفعل شيئاً. سألته ما بك؟ أجاب بأنه مريض. مضى يومان وأنا  
عذراء ننام في فراش واحد كإمرأتين. في اليوم الثالث بدأ الأمر يقلقني. يشرب  
حتى التلث وإذا يقترب مني يسترخي وينام. وفي اليوم الرابع طلبت الذهاب الى بيت  
أهلي لأزورهم. أمضيت هناك ثلاثة أيام دون أن أفوه بحرف وفي نهاية الاسبوع  
عدت الى البيت. هل تعلم ماذا وجدت؟.

- ماذا؟.

- في فراش هذا المُسمى زوجاً، شاهدتُ صبيّاً عارياً ومعه أيوب كما ولدته  
امه. أغلقت الباب ورحت أركض كمجنونة في الشوارع عائدة الى بيت أهلي.  
سألوني لماذا عدت؟ كتمت ألمي وقلت: أيوب مسافر خارج دمشق.

بجنان ضممتها. مسدت وجهها الناعم بأصابعي. على خدها أنمتُ خدي.  
وسمعت نفسها ونحيبها فوق صدري.

في الغرفة المجاورة كان يشرب وحيداً، وغرفتنا تغوص في عتمها الخاص.  
عندما مارسنا الجنس مرّة ثانية احسست لأول مرّة انني لا أخون!.

□

كيف انسلتُ من الحجرة وأنا مغمور بالحزن والقرف ومشاعر أخرى،  
لا أدري!.

هي ذي أرصفة الشوارع. أترنج في ليل دمشق الصوفي. سرت باستقامة  
ثم انعطفت.

قطفت زهرة ياسمين وشممتها بحنو.

عندما هبت الحادثة في ذاكرتي، حضر أبي فسألته: هل مرّ عليك زمان  
كهذا؟ فقال: سيمر زمان أقسى. نحيته عني وحسدته لأنه مات قبل هذا الزمن.  
بين اصابعي سحقته زهرة الياسين حتى صارت كالرماد وقذفت بها الفضاء.

سألت أبي : لماذا يتفرج ذلك السيد الله على الانسان بسادية؟ قال : أنت لا تعرف ما هو الله.

أوغلت في دروب المدينة. الى أين؟ والمدينة ضوء وعم. صمت وحكايا داخلية. محاكمات وتحليل. خيبات وأيام مكرورة.

وسأله أين يقطن الله؟ فضحك من غباي وغاب.

الخمرة أيدت بقاياها، فبدأ الذهن بشرع قوانين للانسان.

امتد صمت كالقبر. أبحر في سفيني الداخلية أرسم جمهوريات للفرح البشري. يوتوبيا بتشريعات تسنها الحرية والتطهر من كبت التاريخ. هل العربي محكوم بقوانين الدين والوراثة؟ حرره من قفص التاريخ المظلم يولد من جديد. ولكن كيف؟ يقول سامر: بالاشتراكية. ويقول راني: بتحقيق الرغبة.

لكنه في الظلمة يضع قدماً، وفي النور يضع أخرى. وهو في المتاهة. جسده في العصر لكن نفسه تنتمي الى القرون المنحدرة. انه ينوس بين الله والاشتراكية. وهذه الأرض لماذا لا يجتاحها طوفان لا ينجو منه إلا رجل وامرأة يلدان العربي المعاصر؟.

وتترأى في زوايا دمشق الميتة، مجموعة من الاستثناءات قُطعت اسبابها. في محراب التاريخ انزوت ردهاً من الزمن، بعد ان نسيها الله والعالم. تعيش في العم بقوانين خاصة استنتها احتجاجاً على قوانين زمن العرب الجائرة، وبعد أن باشرت شمس الفرح والحرية بالغياب.

من بين كل فاقدى الذاكرة، حلمت برجل لا ينسى. يخرج من كهف التاريخ ومعه سيف وكتاب جديد؛ يضرب ويبشر ولا يعرف الرحمة. يعطي الفرح للحزاني، والخبز للجياع، وينشر رايات الحرية فوق من لم يسقط تحت نطم السيف. لكن الحلم سافر مع سفر منى! واستمرت قوافل المهجرين والحزاني متنامية على درب الزمن.

يا الهي أية حماقات تشرح ذهني!.

هأنذا ما ازال منبأ في عروق مدينة الثورات والانقلابات والجنون والتجّار والمنحرفين والمتوحدين والمفصومين، وإذ تكل قدماي من مسيرة الشقاء الروحي، أرتمي على ضفة رصيف تحت شجرة، وأدخن.

- لماذا لا تكتب عن الشعب؟.

الاسفلت أمامي يكاد ينبض بالظلال والضوء.

الاسفلت المرصوص المتماصك ببلايين الذرات الملتحمة ، يسقط الضوء عليها ثم الظلام ، الاقدام والاطارات أيضاً . عناصرها تدور في مداراتها . الكترون سالب يقابله بروتون موجب ، ثم النيوترون هذا الجزء المتعادل الذي لا يحمل أية شحنة كهربائية لكنه يمتلك قدرة اشعاعية خارقة تستطيع النفاذ خلال طبقة من الرصاص سمكها قدم ، لكنها لا تنجذب نحو الالكترونات أو البروتونات .

هكذا الانسان اذن في التحليل النهائي المادي !.

- «لأنك رومانسي مثالي أنت بعيد عن فهم قوانين التاريخ وحركة الشعوب».

وحدثه عن الخزانى والوارثين ، والذين أصابهم عطب نفسي ، عن شهداء عصور الرمل والشعر والصلوات والجنس ، والذين تاهوا في منحنيات القرن العشرين ، كيف فاجأتهم الذرة بأشعتها الخاطفة ، وهم هناك يتدثرون ويتلون في الظلام العميق ما تيسر من آيات أجدادهم فوق قبور موتاهم .

وقال عني بانني لم اتطهر بعد منهم ، وما زال في نفسي حنين اليهم ، كما قال انني احبهم وأكرمهم ولم أعرف بعد كيف انجو من طقوسهم البدائية والصوفية . ودافعت عن نفسي . عن حي هذه الأرض ، وعن جذري المتشبث العصي على الاقتلاع ، وانني أبحث بدمي وروحي وعقلي عن شجرة جديدة تطلع من هذا الجذر . شجرة مضوأة بأشعة القرن العشرين تشق هذه الأرض المطعونة ، التي يهددها مناخيم بيغن والتي لم تُجذب بعد . الأرض التي لا تستحق أن تُهجر وتُلعن .

وقال : أنت لا تؤمن بقانون المادة .

وقلت : أنا أوّمن بالانسان ووحدة الوجود والثورة التي تدمّر العالم القديم . وعسني بانني حلولي . وهذه نظرة صوفية ميتافيزيقية لا تثبت أمام قوانين العلم .

وقلت : أنا ضد التحليل الجزئي لذرات الانسان . فغادرتني يائساً .

نهضت عن الرصيف . سرت وأنا ألوح بيدي . فردت أصابعي في فضاء نصف مظلم وبدأت أدندن .

ومن الداخل داهمني فيض سخرية من كل نظريات الوجود والفلسفات

الحجرية التي جزأت هذا العالم ، واخذت الانسان ذرة مادية تجريبية قسمتها الى موجب وسالب ومتعادل .

- «هل أنا متعادل؟» .

بصوت خفي تخامد على حواف نفسي صحتُ : لا اريد أن اكون شيئاً في هذا العالم الساقط . اريد أن أحيأ فقط .

لم يسمعي أحد . فابتسمت بمرارة عذبة . كنت أقدم احتجاجاً للعدم . وعبرني سيارة مرقت كالبرق . أحد ما لا يبالي بي ، كذلك أنا .

المخلوقات المتحركة تروح وتجيء بطريقة غير ثابتة ، لكنها لا تشبه دوران الجواهر في الذرة . قد يكون هناك قانون فيزيائي وكيميائي يحكم المادة ، أما الانسان فقوانينه تنبع من الداخل ، من العالم الثاني الذي يتمرد على الآلهة والطبيعة ويخرق حدود المطلق . العالم الذي يستقدم في لحظة انحراف جامحة صبيلاً بدل صبية يانعة ، شهية كالمنطق في صيف حارق .

- «هل أيوب السرحان مسوَّغ؟» .

لم أدركم من الوقت مرّ على سرياني في دهاليز المدينة واقبيتها . كل ما أدريه انني مُدّ عرفت مني صرت عدوّاً للزمن الميكانيكي . صار الوقت إيقاعات نفسية تنطلق ثم تتوقف فجأة دون أن تنذر .

لم يكن مسرور في البيت . عاتبني ديانا لعدم حضوري سهرة الاسبوع ، فافهمتها بلا مبالاة انني لا أهوى التعرف على البشر كثيراً . واذ اعتقدت ان في ردّي الجاف نوعاً من الكبرياء ، حاولتُ أن أشرح لها ان التعرف على الناس يحتاج طقوساً خاصة هي في أغلب الأحيان كاذبة ، وأنا لا أتقن مثل هذه الطقوس ، فاتهمني بأنني فلاح لا أعرف أصول التمدن ، واذ قلت ان هذا ليس تهمة ، بل مفخرة بعيدة عن الزيف وأكاذيب المدن التجارية المتأصلة ، جبهتني : انتم متفطرسون ومعزولون أيها المثقفون .

واستطردت لتثيرني : في السهرة كانت هناك نساء كالأقمار . ولوحت رأسها متشفية من غيابي .

وأنا أرنو إلى وجه وعيني ديانا ، أدركني حس الاثم ، ففتلت نحو مسرور والحياة اليومية وصادقتها مع الآخرين .

دخناً . وقدمت ديانا قهوة ، وسمعنا موسيقى . وصمتنا . بين حين وآخر كان كل منا يخون بعينه خلسة .

لم تجب على السؤال ، وهو الآخر لم يجب . وها هو الآن غائب . ذلك الرجل المطارد الذي لا وطن له . فكرت به للتو وأنا أختلس النظر الى جسد امرأته .

هل وجد وطنه فيها فاستكان؟ وهل تستطيع امرأة في العالم ان تشيد لرجل عالماً من فرح معوضة له خسارة وطن؟

لقد قال راني : ان حب المرأة للرجل هو أثمن شيء في العالم . ومسرور قال : تزوج ترض .

وسألني إن كنت أريدُ خمرأ ، فقلت : هل يتأخر مسرور؟

فقلت : ربما .

وتحركت لتصب لي قدحاً .

بعد أن احتسيت بعض الخمر ، عاودتني حالة الأمس ، فرويت لديانا شيئاً عن حالتي ، واذ أدركت وأنا أثرثر محدودية فهم ديانا ، داهمني ندم مفاجئ .  
تذكرت أمينة وأيوب وحادثة الطفل ، فاغتمت .  
قالت ديانا خارقة الصمت : خلافاً لما يعتقد من يعرفك ، تبدو كثيراً في معظم الأحيان .

ابتسمت فأردفت : أقول ذلك جادة .

تحللت الخمرة إلى شيء آخر مختلف تماماً ، وراحت تلوح على الشاشة التذكريات والأحاسيس والآلام الغافية . وجاهداً حاولت أن أتوازن ، لكن الغرفة راحت تتبدل وتدور ، ووسطها تبدت ديانا امرأة حقيقية لها زوج غائب وسط فراغ جهم . كنت قد بدأت أعاند احساساً راح ينمو في ظلام اللاشعور . وبين الرغبة التي تدق لتنطلق بعد أن هدمت الخمرة السدود ، وغياب مسرور ، كان العالم يترنح بضوضاء لا حد لها .

في المسافة التي بيننا ارتمى شعور مبهم ، لزج ، طيني ، انسرب عبر زمان مغفل ، حدوده قاسية ورخوة معاً . وبصفاء سماء خالية من الغيم أجبت بعد صمت : كتيب لانني مختل . ديانا هل تدركين معنى أن يكون الانسان مختلاً من الداخل ؟ واذ رأيت الجذ والتوقع الحاذ في وجهي . انكشيت بذعر . بعد سقوط الكلمة ، أحسست بالاثم فوددت لو سحبتها حتى لا تنجلي قشرة السطح ، لكنها كانت قد قيلت ، وارتمت في أعماقها .

- لماذا تزوجت مسرور؟

بدت الجملة مجانية ، وقعت مني ربما لتنقذ حالتي الهلامية ، ورفعت ديانا كفيها بلا مبالاة وهي تمج لفاقتها : كان لا بد أن أتزوج يوماً .  
- هكذا !

- عندما تكبر البنت في بيت أهلها تصبح شيئاً فائضاً يضايق . اذ ذاك لا بد لها أن تخرج إلى بيت آخر تشعر فيه بالراحة وتريح .  
- أنت مرتاحة في البيت الآخر؟

- مسرور يجني وما أريده أحصل عليه .

كنت أغل أناملي في ثنابا شعرها الذي يلمع الآن تحت الشمس . أنحس جذيراته ، ثم أفرده بين أصابعي فتدغدغني حريرته ودفؤه الشمسي . واذ تتسرب الأنامل نحو عنقها الوعلي ثم باتجاه سفوح ظهرها أحس بجلدها الناعم كحصى الانهار . وبقلبها النابض من ظهرها المتكىء على صدري .

- منى أنا مختل وأنت المشفى .

وتبتسم بشفقة حزينة : من تشد مسروقة قبل السقوط . دعنا نمش . تنهض . وتنفض الرمل فيتناثر شتات منه على وجهي وصدري . أرنو اليها وأنا ما أزال مستلقياً فأشعر في لحظة كالبرق أنها تبعد عني آلاف السنوات الضوئية .

قلت : لكن الانسان هل يتزوج بمثل هذه المجانية؟

وهي تبسم : يتزوج الانسان بالطريقة نفسها التي يموت فيها .

وقالت النفس لنفسها : «حتى هذه التي اخترقت ستائر الدين والتحريمات الدهرية بين المسيحية والاسلام لتطلع مطهرة على ضفة مسرور ، تقول ذلك !»  
لم أكن منفعلاً ولا مشحوناً بأية رغبة . كنت عائماً في حالة ركون . طوفُ خاوٍ فوق بحر .

أبي استحضر جميع الذين أحبهم وهو مستلقٍ على الفراش ، وبوعي تام قال :  
سامحوني يا صحاب إن كنت قد أخطأت . لقد مضى عمر انسان إلى غير رجعة .  
مضى بخيره وشره وودت لحظة الغياب النهائية . الانسان يخطيء ويصيب لأنه غير معصوم وهأنذا أموت بغير اختيار . الانسان ذكرى . وداعاً يا صحاب فالانسان يموت .

واذ صاحوا : لا نريدك أن تموت . أغمض عينيه وغاب بلا احتجاج .

في ذلك اليوم بكيت بكاء مرأً لفراق أبي ، وفي اليوم الثاني خرجت ولعبت الكرة بحرارة طفل يحب اللعب .

أخبرنا مسرور أن يأتي لنسهر معاً . الحَّت ديانا على حضوره ، فوعد بالجيء . حسوتُ كأساً ثالثة . ولما ضوأتني الخمرة ثرثرت لديانا شيئاً تافهاً عن حياتي ، وعن الانسان في هذا العالم . وقلت لها بأن البشر ضعاف يخطئون ويصيبون في بلادنا ، لكن الخطأ ان إنساننا ناقص بحكم التكوين التاريخي والنفسي . الناس

ملوثون ومقهورون ، ولهذا يتميزون بقدرة لا مثيل لها على التمثيل واخفاء الجوانب المظلمة . ارث رسوبي ينغص عليهم النوم واليقظة ، يودون لو يتطهرون منه لكنهم عاجزون . من أجل هذا . أنا كئيب . كئيب أحياناً حتى العنف أو الموت وأنا أشعر بعجز عن فعل شيء ما لهم .

وامتد صمت .

كانت الأشكال تتبدل . تغيب صور وتتبدل صور أخرى . وتاريخ الآن يتماثل مع تاريخ الماضي . فقط كانت الأصباغ تغطي الشاشة ، وكان قلبي يدق بخوف وأنا أرى مرارة هذا التابع . هذا الاستشهاد . وفي النفوس ، تحت كل ما يحدث ، كان هناك حجر ناشب ينمو تحته عجزنا وسقوطنا وإخفاقنا . حجر صلب كان ينبغي نفسه . لكن ذلك كان يحتاج جرأة وضحايا وثورة .

وشعرت بقلبي يرتعش بالحزن .

لم يأت مسرور . ولحمت على محيا ديانا غمامة اكتاب .

- أنت أيضاً تكتئبين .

رنت نحوي بأسى سري ، ولم تجب .

- ما رأيك أن نسير في الشوارع ثم نمرّ على مسرور؟

الخمرة العظيمة تحطم سدود الكذب . تثبت ان عالم فرويد ليس احتمالياً ولا مناقضاً للعلم . بذلك فكرت ونحن نجتاز عتبة المنزل . لفحتنا نسيمات دمشقية ، أشعرتني اني ملك المدينة وأنا أسير مع ديانا . كنا نسير متحاذيين ، تارة فوق الأرصفة وتارة فوق الاسفلت . لم يكن هناك اتجاه محدود . دمشق راقدة كمقبرة ، وفي العمارات النظيفة ترهو أضواء زرقاء وحمراء . وفي هذا الليل الاسطوري رجل وامرأة يترنحان على غير هدى .

فجأة خرقت ديانا الصمت : بماذا تفكر الآن؟

- بك وبهذا الليل !

- بي؟!!

- أجل .

- وضحكت بعدوبة خائفة .

- الا تفكر بصديقتك؟



- الآن . لا .

- أتحبها؟

- هي لا تحبني .

- غريب !

- هل تحبين مسروراً؟

وصمتت .

قطفت زهرة ياسمين ناولتها لها . بعفوية أخذتها .

شمت رائحتها وقالت : عمر الياسمين قصير .

- كعمر الحب . صدرت الكلمة عفواً .

واثنينا في شارع آخر .

شعرت بالزهو وأنا أعبر الشوارع التي عبرتها مع منى ، حاولت أن أشير إلى ذلك فشعرت بسخف ما سأقول ، وكلما اتجهت نحو المكان الذي يعمل فيه مسرور ، كانت تقودني باتجاه معاكس . مارست لعبتها فسألتها : بماذا تفكرين الآن؟

وصافحت وجهي عيناها المتألفتان . ابتسمت : قبل لحظات تساءلت لماذا

لم يأت مسرور؟

- هل أحزنك غيابه؟

أجابت بتلقائية : كان عليه أن يأتي .

وسألتها ان كانت تحس بالحرج لأننا نسير في هذا الليل ، فأجابت بأن الأمر عادي . وتحدثنا عن قوانين الشرق وقيمه والانسان المحكوم ، وقلت بأن الرجل والمرأة لا يعيشان حرية الداخل وان أي انسان لا يخاطر بكسر أول حلقة ، وهو ينتظر ان يبدأ غيره عملية التحطيم ، وقالت : ليس سهلاً أن يخرق الإنسان جدران المجتمع . ذلك يحتاج إلى جرأة نادرة . حاولت أن أفهمها بأنني لا أقيم كبير وزن لتشريعات كانت تصلح للأعراب القدامى . وانني أحقر المرأة أحياناً لأنها جبانة ، فقالت ان الرجل هنا لا يفكر بأبعد من نيل جسد المرأة ثم يدير ظهره . ودخلنا في تعقيدات الثقافة والوعي والحرية الداخلية وضعف المرأة الشرقية ومحدودية فهمها للانسان والعالم . كانت المدينة تشفّ ، ونحن نتوغل فيها ، مولدة شعوراً وجفّاً بشيء ما قد يحدث . وكنا نسير جوار النهر تحت ظلال الأغصان المتهدلة فوق الرصيف . إلى

وجه ديانا رفعت عيني . كان شعرها الفاحم يتأرجح في الريح ، مرخياً كالصفصاف  
فوق وجهها السهي .  
الصمت .

ابقاع الخطوات مع ابقاع النفس اندغما في زمن واحد . احترك أكثر نسيم  
أثري وأشج الأسرار ، وحرك الوجع . بقصد لا شعوري لامس ساعدي ساعدها  
العاري . توجفت . ابتعدت عنها . سبقتني خطوات . وتحت الضوء لمحت ذلك المسيل  
الأبيض المحبوك بإتقان . بيني وبين نفسي تمتت لو أمسح شفتي عليه من منحدر  
الكتف حتى المعصم .

الشوارع نفسها ، والظلال ، والأفكار الجانبية ، ثم المشاعر ذات الطرف الوحيد  
تلهث عن موئل ولات موئل . الأشياء تقرب من ضفاف الافصاح ، فيرفع الزمن  
جرس الانذار .

كنا ما نزال نسير ، دونما اتجاه محدد ، دونما غاية . وفيما مضى سرنا أيضاً .  
ورويت حكايات وتواريخ شخصية ؛ وبفعل الخوف والإحباط القديم الجاثم في  
السراديب ، ركنت الاندفاعات ، وشقت بيننا مسافة . سرنا باستقامة ثم انعطفنا ، كما  
حدث في ليال مضت ، ولم تكن هناك رغبة في العودة إلى البيت . وحكت ديانا  
بعض الأسرار عن حياتها وطفولتها وأهلها ومدينتها . وتوالت اسرار أيضاً . سرّ يفضي  
إلى سرّ ، وكنت فرحاً وكثيراً ، ولم يختزن الليل شيئاً . فقط كانت الذاكرة تلتقط .

تلاشت الخمرة . كنت الآن صاحباً على نحو متفوق ، والشيء الذي لا يبوح ،  
يتفتح كتويج في غسق ندي .

علاقة الانسان بالأشياء تبدو أحياناً عصبية على التفسير، هكذا أنا ودمشق  
وجميع من استوطنها طويلاً.

يقول سامر البدوي : وأنا بعيد عنها أشعر بشوق صوفي اليها . ملعون خالقها .  
تسكن الدم والعصب كأنما وباء استعصى على الشفاء . عندما كنت في بيروت  
وددت أن أعدو نحوها على قدمي ، ثم لومت غباً وصولي فوق ترابها لما ندمت .  
أية مدينة في العالم لا تعوض عنها .

وقلت مبتسماً : المدينة أم النساء؟

ورفع ذراعيه : دمشق امرأة طويلة طويلة ، ممتلئة ، نضرة ، مسكونة بالرغبات  
الالهية وبأشياء أخرى لا تُدرك . ثمة شيء نحسه ينتظرنا أبداً في مكان ما فيها .

وعلى مدى الدهر ، هو الثَّملُ . والخمرة في نفسه قبل أن تكون توقاً  
فيزيولوجياً ليرضى الجسد ويندال .

رغبة متصوف جسدي ، بعد أن يثمل يخرقُ أقسى الجدران ، فيتحول . يحس  
انه صار الهاً ، وان فروعَ وسواني الانهار جميعها تصبّ في بحره الشاسع .  
وان تنبض بكنه الداخل وليكن الطوفان ، أن يقبلك البشرُ بكل ما فيك ،  
لا بما يريدونه ، ان تكون جزءاً من عالم وعصر ، محتجاً ، مبشراً ، ثم ساقطاً ، ذلك  
هو سامر البدوي .

وفي عصره الخائق الجبان ، وشموه باللائخلاق ، ولعجزهم عن الوصول اليه ،  
قالوا : هذا المستهتر!

قُورنَ برامبو والخيام ، ولكنه كان بيرون القرن العشرين القاطن منسياً في  
دمشق ، والذي كان ينقصه ، أوغستا لينام معها . لم يكن شاعراً كبيراً ، لكنه كان

ملعوناً بفطريته الصحراوية وجسده الذي تصيح كل ذرة فيه بعد حسو الخمر : إلي بكل نساء العالم لأنام معهن مرة واحدة ثم أموت .

بعد الخمر تتجسد نبوته المركزية ، يحكي فتسمع له ، وتحكي فيسمع صدى كلماته . واذ تصمت تكون قصص جديدة مبالغة ، مُختلقة أحياناً ، قد ولدت في غار رأسه يروح بتلوها . وفي حوار حول الشعر والحس ، بدا لي في ذلك المساء مقهوراً ، ألمحت اليه بأنه اختار طريقاً صعباً ليس من السهل عبوره ، فتحدث عن الشاعر الذي يكتب بدمه والقارئ الذي لا يتعب وهو يقرأ ، واحتج على الذين لا يفهمون كلماته ، وقلت : ربما كانت المسألة هي غير ذلك ، وما أردت قوله عن الطريق الصعب هو القدرة على خلق فن حقيقي من خلال التجربة الحسية ، فالشعر ليس حياتك أنت ، انه حياتي أيضاً ، هناك ضريبة تدفع على حساب الفرق اليومي ، وحتى يكون هناك توازن لا بد من موهبة خارقة ، وأنت ضحيت بالشعر من أجل الجسد .

ويومها صاح كثور يذبح : أنت ماذا تعرف عن الشعر؟ الشعر والجسد لا ينفصلان .

وقلت مفيظاً : الشعر - الفن . لا الشعر - الانا . أنا لا يعني جسدك . قل شعراً أقل لك من أنت ، وأنت عاجز عن الخروج من جلدك وهذا مقتل .

وباجتياح طاغٍ اتهمني بالغباء والقصور عن التقاط الالتماع الفني ، وتلا علي آيات مكرورة من بيتس وبودلير ولوركا . وكان غضباً ومؤذى . ابتسمت وقيل صمني التهمة .

وكما يمضي النهر والريح والسحاب ، كانت حياتها تمضي . وان توجد أو لا توجد في قواميس علم السكان لم يكن ذلك يزيد أو ينقص . كان بإمكان النسل البشري أن ينجب الملايين ليضيفوا ارقاماً إلى الأرشيف السكاني ، لكن علم الاجتماع والاحصاء ، كانا عاجزين عن إنجاب منى أخرى تدخل تاريخي الخاص . كان ذلك من اختصاص علم النفس الزمني .

في مقهى خاص بعد مقتل زوجها بأربع سنوات ، سألتها لماذا تزوجت ما دامت تكره الرجال وتخاف الأجساد العارية . فأجابت بأن ذلك تم على نحو تلقائي ، وقد أعطت جسدها وأنجبت ميسالينا حتى لا يُقال عنها بأنها عاقر ، وحتى

يرضى ذلك الذي يودّ أن يفاخر برجولته الشرقية ونسله . وسألته إن كان قد حزن  
واغتمّ إذ أنجبت له بنتاً فقالت : كانت ميسالينا في رحمي عندما مات !  
كانت أناملها تنقر سطح الطاولة وهي تتحدث ، واذ رشفت بعض القهوة  
طلبت أن أشعل لها لفافة . وسألته عن حياتها الجنسية بعد موته ، فحدقت في  
وجهي باتهام مبطن . بعد ثوان من الصمت سألتني ان كنت أعرف شيئاً عما يسمى  
بالاكتفاء الذاتي . شيء ما وخزني في الداخل ، وطلبت التوضيح أكثر فشرحت لي ،  
وقلت بأن ذلك يعود إلى الطفولة وقد يكون ردة فعل ضد الكبت ، لكنها أوضحت  
لي ان ذلك بالنسبة اليها شيء مختلف وانها لم تمارسه في طفولتها ، وان الأمر حدث  
بعد أن قررت أن تكون لنفسها . أشرت إلى الألم الذي ينجم عن ذلك ، محاولاً أن  
أنحوض في دقائق الموضوع ، لكنها وضعت كفها على فمي قائلة : هذا شيء خاص  
ومعقد . دعنا منه .

فتحت دفترها الصغير وراحت تقرأ شعراً . كنت ادخن وأنامل ايقاع سطح  
وجهها وهي تتطهر بالشعر . قدمانا متعانتان تحت الطاولة ، تضغطان اثر المقاطع  
الحارة ، بينما مجموع جسدها يرتعش مشبوقاً والشعر يجتاحها . وقالت ديانا رداً على  
سؤال لم أسأله الآن انها تزوجت مسروراً بالصدفة . كان يسكن غرفة في بيتنا . وكان  
يبدو عليه الحزن والبؤس . أحياناً أدخل غرفته فتسلى ونضحك ، وفجأة وأنا منكبة  
أقرأ شيئاً له على الطاولة قبلي ، فوجئت . عاتبته : عليك أن تكون مهذباً في بيوت  
الغرباء . انكسر من كلماتي وقال بذلّ : ديانا أنت لست غريبة عني . وراح يبكي  
كطفل بين يدي . خجلت من تأنيبي . اقتربت منه . ورفعت رأسه ومسحت دموعه ،  
ثم فيما بعد تزوجنا .

كنا ننعطف يساراً نحو شارع آخر ، وديانا تحكي ببرودة كأنها شاهد محايد .  
أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين ، كنا مطوّقين بدمشق . نسير ببطء ، ودمشق متاهة ،  
وضيق ، وأنوار . صمت ، وغياب ، وتوق لشيء محبباً فيها وفيها . الدروب تفضي إلى  
دروب والاقدام ترنّ على الأرصفة بخفوت ، ولا نتعب . اننا نمضي .

- تعبت ؟

- لا .

- نعود ؟

- كما تشاء .

- فلنمضِ .

ومضينا. داخل غسق خاص، في محيط زمني مُفلت، يتراوح بين العتم والنور، بين الصمت والافصاح. كنت أتقرى ديانا تلك الليلة، وأنا أستمع لخفق شفتيها. وكل شيء كان يسري كالريح، وفي غمرة هذه الريح بدت ديانا فضاء شحيح الاعتكار، وكطائر موسمي هجر جزيرته وتاه، كنت أخترق ذلك الفضاء.

[ ]

عندما عدنا كان الزمن قد استرخى في أجسادنا، وفي الداخل سقط الولع. كانت السيارة آنذاك، الحقيقة التي تتحرك، والعالم في الداخل والخارج هلامياً مستكناً. أية كلمة لم تُحك. الراديو يخرق الصمت بموسيقى حزينة هادئة، وواثل يسوق براحة نفسية، ومحاذاته هدى نائمة.

على بوابة البيت رُفَعَت الأيدي لليلة مائعة، وغابت المرأتان في شارع جانبي. دوار في شوارع دمشق، دونما اتجاه مقصود. صمت ولفائف تحترق. ورويداً تصاعد السرعة.

منعطفات لفها بسرعة جنونية؛ أضواء تمر، وشوارع تُعبر، وإسفلت تسحقه إطارات مهووسة، وبقايا سكارى يترنحون داخل أحزانهم التي نشرها الخمر.

- إلى أين؟

- إلى الله!

وتحرك جرح الجريح. هي ذي ريح الوطن والعبث والمضي أكثر فأكثر نحو أحاسيس جديدة، عبر أضواء تبرق في ليل النفس التواق للطلوع من إसार الجسد، من إसार العالم، نحو رؤى ومرافئ احتلت ولم تُفدّها الجراح. ومنى لا تحضر، وفلسطين جرح ناغل في الجانب الأيسر الملاصق للقلب.

[ ]

هي هجرة خاصة من نوع جديد، ليست طيفية أو طوباوية كما تبدو للوهلة الأولى. إبحار عميق لا يكلّ في محاولة للوصول إلى هبولى الأشياء. رحلة ربما، عبر جحيم العربي المعاصر المتلكئ فوق هذه الأرض، هذا الذي يخدع بمشيته فوق الأرصفة، بصّر الناس العاديين، لكنه من الداخل مسكون بالجن والتوق، بالرمل والبغضاء، بالمبالغة والخوف، بالأمل والخيبات، بالخيانة والكذب، بالحضارة والغياب. جحيم حقيقي مدعور بنبيء بعصور الانبثاق القادمة ربما.

- لكن لماذا تقيس جسدي؟

- لأركز في ذاكرتي جيداً حبك الخاص.

وإذ انتهيت من عملية القياس، استلقيت قريباً وحدقت في السقف والجدار المقابل أطبع صورتها هناك. مررت كني من أعلى جسدها حتى رسغها. كانت ممددة في الفراش. بعد حين تغيب وأظلم وحدي مع السقف والجدار، ولو صحتُ حتى الإغماء: إن عودي، لما عادت. أن ظلي هنا، لابتسمت ورحلت. ولو صاححت نفسي بالزمن: دعني أعتقلك فيها قبل أن تغرب الشمس، لقهقهه الزمن مني، وفر.

وبعذاب كنت أسأل: لماذا؟ الغزاة والفاطمون أم طبيعة البشر؟ لماذا هذه

البلاد اللعينة تتأرجح في الريح؟

أي جحيم لا يُفصحُ عنه، أن تحب كل نفس ذاتها في حجرة سرية لا تُخترق، وإن يكون هذا التعس ضحية الزمن الضائع!

وسألت مني: ألم تحزني إذ مات؟

- دُهشتُ. تساءلتُ لماذا يُقتل الإنسان بهذه السهولة؟ وفيما بعد انتابني حس

الغثيان.

- خفت؟

- على ميسالينا التي ستحيا يتيمة.

- لماذا هجرتها؟

وصمتت. طلبت لفاقة. نفثت دخانها في الفضاء بقوة: دعنا نذهب إلى

البحر!

أذكر الآن جيداً كيف عبرنا ثبج الرمل . وكيف جرينا حتى الشاطئ . وخلال جرينا راحت تتعري من ثيابها . وهي تتعري رحت أمسح جسدها بعيني . بالطريقة ذاتها في اللامبالاة ، في غرفتنا الرطبة في حي السبكي ، بدأت تبعثر ثيابها . تحت سطع الشمس لمع ظهرها البهيج ، فضغطت رغبة الطواف بذلك الظهر المورق الذي لم يُمسّ .

على حافة الموج كانت عارية الآن ، مثل سماء صافية . نقطة بيضاء وحيدة عند ابتداء البحر . قطع ثيابها متناثرة فوق الرمل والحصى ، واذ أنحيت اجمع القطع ، سمعت صوت ارتطام جسدها بالماء .

وحلالي أن أراقبها وهي تسبح ، موغلة كلوثة في مياه البحر الصافي . فوق الرمل استلقيت على جانبي الأيمن بينما سرحت عيناى نحو ذلك الجسد العظيم الطافي فوق الماء . الجسد الذي يتظهر الآن من عصور الرداءة في مِصَحِّ الطبيعة الفسيح . كانت تضرب الماء ثم تغوص ، ثم تنبثق كالسمكة مغسولة تلمع تحت الشمس . شعرها القمحي الناضج يلتصق بخديها ، تفرده فتبدو أناملها الرقيقة في أبداع تكوين ، واذ يبرز نهداها لامعين مغسولين كورق قطلب الجبال ، يهبّ في داخلي توق الحلول فيها ، يناديها صوت مجروح تعالي الي ، لكنها تنقلب على بطنها فيبدو نصف ظهرها مرجاً من ياقوت وفجأة تقمس غائبة في اللج الملح . يمر زمن أنتظر فيه خروجها . يداهمني شعور أنني فقدتها . أرى المسافة بيننا الآن ، ولا تجيء . وأنا الآتي اليها على مدى العصور ، ومعها كان الصدع يتسع ؛ وبدت صلتنا كأنما قطعت بمدية أحدّ من الموت ، بترتها الخيبات المتواصلة ، الخيبات المسجلة في أرشيف العرب . ثم هذا المرض الحديد الذي سمّته الاكتفاء الذاتي . اذ تنبثق مرة أخرى تستلقي على ظهرها ، فأشاهد سطح جسدها : الحلمتين النيذيتين ، وجزءاً من بطنها ، وركبتها ورؤوس أصابع قدميها . أتذكر اعياني عن قطع مسافة المثي متر ،



كما أتذكر بمرارة أكثر الفتية الذين عرفوها من الخارج ثم ولّوا عنها موغلين في عروق مدينة دمشق. هي ذي تنتصب بيضاء كحمامة في اخضرار البحر. انها هناك. عارية. مضيفة. مفعمة بالبحر.

بقهر استوطن خلاليه، مذ بدأ يحس هبوب الزمن على جسده الذي يشيخ،  
نهد: اليوم أنا بائس!

تملّيت وجهه الشاحب المعتكر بالعطب الداخلي، فلمحت تحت عينيه نصف قوسين ورّمين أفرزهما الزمن. وأضاف: صوب الصحراء هاجرت هرباً وما استطاعت ان تنسى، وبالأمس عادت إلى دمشق. ألم أقل لك أن دمشق قطب العالم ومن عرفها مرة تسكنه كالوباء. قالت انها حجّت الى الكعبة. دارت حولها وتعلقت باستارها هامة: يا ربّ انسيه. فتصوّر أيها العربي الصعلوك!

- لم تنسَ اذن؟

- ايه.. من الذي يستطيع أن ينسى؟ الحب كجرح الوطن ينغل ويلوب. ينزّ أبدأ وفي فصول الخصب والهياج كالكمأة يشقّ الأرض القاسية. غنّوا لنا غنّوا، انشروا أوشحة النسيان فوق جسد هذا الزمن الحزين.

انشد احدهم قصيدة جديدة فصاح سامر: يا ابن الحرام ما أشعرك!

كان متوجّاً بالحزن، يولّد منه أفراحاً وقتية، وعلى هؤلاء الذين أحبهم راح يوزع نفسه.

عندما انتشرت الخمرة بكل مجدها الصوفي، وبكل الحرية التي تتحدى بها الحواجز، عضّني من رمانة كني. همس لي عقب صراخي: أيها الملعون كم أحبك!

واستطرد قبل أن أفوه: أتعلم لماذا لم تنس؟ كزّ بأسنانه ثم شبّ عن كرسية واقفاً، رافعاً كأسه: نخب الموت!

عندما بدأ الكهف يرمي بالآخرين إلى الشوارع، بدأنا نحس عدوية الخلوة. كان سامر البدوي يدخل حالة خاصة لم أعهد لها فيه. ثرثر لي بأنه لم ينم مع المرأة وكان حدثاً فريداً في تاريخه النسائي، وانه أراد الاحتفاظ بها في بقعة نظيفة من نفسه. وسألته: هل في نفسك رقعة لم تلوث بعد؟ فحدق في وجهي بشراسة عاتبة: حتى أنت تقول ذلك؟!!

واعذرت ، موضحاً بجملة انني أعتقد أن هذا الشر الذي يعتنقه مسوِّغ لأنه رد فعل قايٍم ضد الخير المنحرف والموروث ، وان التكوين السوي لم يأتِ زمنه بعد ، والعصر الزاني يلد بالضرورة ابناء زناة ، ونحن ربما كنا زناة بالوراثة . وقلت له إن امي لم تعرف ، حتى موت أبي ، ما هي اللذة الخاصة بها ، وانه كان يلجها كما يلج الوحش أُنثاه ثم ينقلب عنها .  
وحسونا .

وهو يضع كأسه ، آه بقهره الزمن . مال نحو جاره وعانقه ، ثم وشوشه . قرأ لنا شاعر آخر قصيدة فشارف سامر تخوم البكاء . دق كأسه وقال : نخبك يا أنبل الشعراء .

مع رفع الكأس واندلاق الخمرة في جوفه ، تراجع البكاء . تذكر أن عليه الا يبدو ضعيفاً أمامنا .

- لولا الذين أحبهم لانتحرت .

ونتر مسدسه ، ثم وضعه على الطاولة . اذ ذاك توقف الفرح والشعر ، وتالت موجات النازحين من القبور .

وسأل بدهشة اذ رأهم يهرعون : لماذا؟

همهم جاره بين الفزع والمرح : خوفاً من هذه الآلة الفاشية . مشيراً إلى المسدس الملقى .

ابتسم سامر بهزء : لكنني سأرهنه لأنني لا أملك ثمن الويسكي .

[ ]

في غياب مني حاولت ملء فراغي . وارىتُ الحزن والفقدان . لكن ذلك بدا محالاً مرسوماً على وجهي الذي احترق الكآبة .

كنا ما نزال نسير في مدينة الصمت والحجارة ، ورمقنا حارس يسلي وحدته بالمسير وصفارة الخطر فابتسم ولم ينبس .

- يعتقد أننا عاشقان ، قلت ، وما نبستُ هي الأخرى .

وتحاذينا أيضاً . مسح زندي زندها الأسمر المغسول مرة أخرى . وتباعدنا . لا شعوريا استعيد ذلك ، وكنا نتحدث قليلاً ونصمت . وسألت نفسي : هل لهذه المسيرة الليلية معنى ؟

شارع يصل شارعاً. ورصيف يودي إلى رصيف. الدروب نفسها. رائحة  
الياسمين والليل. ثم الصمت. وخارج المدينة تقوم البراري حيث لا حجارة ولا بشر،  
يقوم الانعقاد من المنازل الشبيهة بالشرائع التي استنت في غيابنا، لأناس متمدنين  
يهفون جميعاً إلى حياة الوحوش والحربة.

هل قلت لها: انني أكره هذا المجتمع الذي يخدع بأنه منظم؟ وهل اجابت  
بأنها تحب الحرية؟ وهل ردت بأن الحرية تُعاش اذ تُحَبَّ؟  
كانت الكلمات ترنمي كما يهطل مطر مفاجيء، كما يأتي نهار يعقبه ليل، وكما  
يجري النهر وتشرق الشمس.

[ ]

مرة. ومرة. مرات. الشوارع أيضاً وهؤلاء الآخرون الذين اخترتهم في البدء ظلاً  
صحراوياً، وفيما بعد رغبة ملعونة للاستكناه. تستمع حافراً في أرض البشر ذرات  
تكومها كخلد الحقول. يرتفع السطح الترابي الذي جافته الشمس. وتقول وأنت تنجف  
التربة: متى تنتهي اللعبة؟

تطوقك الشباك. عنكبوت يريل وينسج. ينسج حتى حدود التلف. ما الذي  
تريد أن تصل اليه عبر النسيج المؤلم؟ هل ستكتشف شيئاً لما يكشف بعد؟ كوناً  
منسياً في مجاهل لم تُرتد؟

وما الذي تستطيع أن تفعله يا موظف الدرجة السادسة، أيها السيد المفقود في  
المحطات، في بلاد رجمت أنبياءها؟ فرسانها اعتكفوا في الخمارات وداخل خزائن  
المال، وفي المواخير، وراحوا يشرعون حراب الفتوح ويمجرون فلسطين واسكندرون  
هناك. بانين للعربي الجديد مجدداً من الضوضاء والعطالة.

سرنا في شارع حلب العريض. كان خالياً من المارة في ذلك المساء الصيفي  
وبدت شجرات الرصيف متوحدة كجذوع ناس صُلبوا منذ مئات الأعوام ولم ينزلوا.  
وثبت في الفضاء. قطفت ورقة خضراء فقهقه سامر: أبوك. تثب كجدي. من  
أين لك هذه الحيوية؟  
- كنت فدائياً!

زعم مستنكراً: فدائي! أنت فدائي. فدائي شرفات يا ابن...  
وقاطعته: لماذا تسقط نفسك علي؟ انا أخلاقي يا أخي. وبأعلى صوته صاح:

اسمعوا يا ناس. اسمعي يا آلهة. قال أخلافي. قال. اذا كنت أنت أخلاقياً فأنا المسيح اذن!

- أي مسيح؟

- ابن يوسف النجار!

وكمتوحشين انطلقت صرخاتنا.

في فراغ ليل المدينة رن الصراخ. تلاشى وضاع في أوراق الشجر والفضاء. في عرض الشارع تارة، وعلى الأرصفة، تمايلنا، تسابقنا عدواً ولهثنا. بخفوت ونحن ندق خطواتنا المترهلة، اعتكر الزمن. ناح سامر «سكابا يا دموع العين سكابا» ومع الترانيم راح يميل بجسده المعنى. شارقنا منعطفاً انعطفاً معه.

- ليلة بلا نساء.

وقال: من أجلها سأكون طاهراً هذه الليلة. أتعلم لماذا لم أنم معها؟ دندنت مطلع أغنية لفيروز. أشعلت لفافة ورحت أترنج.

- عذراء ومخطوبة لصديق بريء كالدمعة وأنا أحبه.

سرنا. لم أعلق، وفي الفراغ نفثت دخان اللفافة. فجأة جرى قليلاً حتى سبقني وانعطف مواجهها. من صدري تناولني بقبضته السبارطية وهزني: اسمع. أعرف ماذا يقولون عني. أنا أرغب أن تحتقروني السائمة. احتقارهم تطهير. وسام أعلقه على صدري. اسمع. العربي مبعده. طرفة نبي كالبعير. أمرؤ القيس غادر الخمر بعد موت حجر الذي لعنه عندما كان حياً: هذا ولد لا خير يُرجى منه. أنا أعرف ان العربي الذي نحدس به لم يأت بعد، واذا يقبل تدبر الخمرة. آه اني أتحدث اليوم كمخمر حقيقي. الموت لنا جميعاً. الموت للكلاب الضالّة قعد الخوارج. وصمت قليلاً. افلتنني من يده القاسية. سار كماخوذ وراح يهلوس: يا اله الآلهة لا أريد شفاعة ولا جنة ولا غفراناً. أنا قايلك الملعون. تخلّ عني فأنا شفيع نفسي يوم القيامة. نحو السماء كان يرفع يديه ووجهه. وتحت ضوء فانوس الشارع بدا وجهه متوهجاً كشهيد وقت الترع.

بعد صمت قال: ينبغي الا نخون بعضنا بعضاً. أتفهم ذلك؟

ومرة أخرى استوى الصمت، استواء جنازة رُفعت فوق الراحات. ومن الشرق

بزغ قمر رائع ، لكنه كان ناقصاً. نحو السماء حدقت ، في ذلك البحر المحذب  
الأجوف. اعترض خط بصري قمة مثذنة فوقها هلال في نصف فراغه الناقص  
نجمة.

هناك كانت رؤوس الأشجار هادئة ، وكنت أسمع هبوط أقدامنا فوق  
الأرض. عبّر الشارع رجل معتم هارحاً إلى الجامع.

في حضني نامت أمينة بعد أن ضاجعتها باشتهاء لا مثيل له ، وكان ذلك يتم  
للمرة الأولى. في فراش واحد كنا كابتين وأمه ، وكانت سمية غافية لصق الجدار.  
بجنان من هدأت شهوته طوقت عنق المرأة ، فأحسست دقات قلبها تخفق برتابة  
واطمئنان في غياب أيوب السرحان المسافر.

كانت قد هيأت عشاء وخمراً ، وجلسنا ثلاثتنا. كابتني اطعمت الطفلة ،  
ورويت لها حكاية فضحكت ، ثم مثلت لها دوراً هزلياً فدهشت من حركاتي.  
وعلقت على ذلك بأنني أصلح ممثلاً سينمائياً. وغمزت بأنني أقبل شريطة أن  
تكون ماما هي البطلة. بفرح مطلق ابتسمت أمينة وهي تلسعي بنظراتها.

على الخوان كنا متلامسين ، وفي مواجهتنا سمية والأيدي المشبكة المشتية تحت  
الطاولة تضغط سائلة : متى تنعس ؟

كان البيت يطل على بساتين دمر ، منفرداً بين غياض يجري خلالها بردى. وفي  
الخارج كان الليل والزوج الذي أقنعه بالسفر لتفقد ما تبقى له من حصة الأرض في  
البطيحة.

صلى الرجل في الجامع وعاد ؛ باشمئزاز رنا الينا ثم تابع نحو بيته. كان  
الانهاك قد تسرب الينا وما قيل تبخر منه ما تبخر ، والذي ينفع مكث في قاع  
الذاكرة.

ودونما وداع ، افترقنا.

كان هناك في ضياء الظلمة يسير ، وحيداً ، منكسراً كمحارب. ومن الشرق  
راح الفجر يزغف.

كم سرت حتى وصلت ، لا أدري. كل ما تذكرته في الليلة الثانية وجع  
معدني وطراوة عشب حديقة السبكي.

ثملت . قالت سمية : أنت تترنح كأبي . ضحكت وأنا أدرج نحو المغسلة .  
التفت اليها : أبوك اذ يترنح يسقط أما أنا ...  
وسريعاً قبل أن أسقط ولحتُ المرحاض .

إلى النوم يا عزيزتي الصغيرة . جميع الأطفال ينامون باكراً . اذا خرجتُ وأنت  
يقظة ما تزالين ، سأحملك عنوة إلى الفراش وأغطيك واطفيء النور . هذا ما ينبغي  
أن يكون . أنت ذكية وتدركين ذلك . لا بد أن اللاشعور يعمل بشكل جيد . هذه  
هي الحقيقة . أنا لست مذنباً . أبوك هو المذنب . أنت ترين ذلك بوضوح . أي اثم  
في ادخال الفرع إلى نفس امك التي هجرها والدك من سنين . جسد امك بحر صاف  
مُلاًلاً ، مسكون باليواقيت والمرجان وأنا بحار مسكون بالفوص وورغائب البحث عن  
الجواهر المخفية في تجاويف الصخور . عندما تكبرين ستفهمين ذلك . لماذا يحزن  
الجسد وتحزن النفس ؟ ولماذا الولوج يطهر البدن وينشر في ربا الروح نسيماً عذباً  
وراحة لا نهائية ؟

الرجل لباس المرأة . أنا غريب هذا مؤكد في الماضي ، أما الآن فأنا ربيع  
الأم في أصياف اليتيم . المسرة والسلام للمرأة التي ولدتك بلا شهوة . اسألني امك عن  
هذا وهي ترتعش وتهتر كما تقصف الأرض اذ يدهمها زلزال . واذا يسألونك عن  
الجسد قل : الجسد أمينة وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . يا أجساد نساء العالم الجميلة  
كوني خالدة على مدى الدهور فلا تشوهي ولا تموتي .

في ذلك المساء اشتعل البيت بالرغبة . مرة . ومرة . حتى الفجر وانما عاريان .  
وفوق جسدها المرمري الأملس المصون ، سبحت . تطهرت في بحر جسدها .  
وللأزمنة القديمة والنسل المنفي خارج جسده ، ثارت . لم نشعر بالليل ، ونحن نتفتح  
كياسمين في ظلام رطب ، داخل بيت منفرد مغمور بالغابات وموسيقى النهر .

وفي تلك الليلة فاحت بروائحها. من كل ذرة شبت الروائح فأنحلت فيها.  
الجسد وحده الذي ثرثر. قام وهبط. توجع واحترق. انساب ثم احترق كالرمح. ثم  
مات.

ثلاثة أعوام ولا ملل. ودمشق سكبنة تنحل في النفس والبدن، يختطف  
الذكريات فتكاد تنسي كل ابن أنثى كوخه الذي هجره، فينسل الماضي كما تُستلّ  
روح على مهل.

وكما قال سامر: مدينة مسحورة تلتف حول بنينا كما يلتف اللبلاب. تحنو  
عليهم. تطعمهم. وفجأة في ليل دامس تخنقهم بلا مقدمات.

هكذا كنا نُقتل كل يوم في مدينة العطاء والسكرارى والمخدولين والشهداء  
والتجار. من مقهى إلى آخر، من رصيف إلى رصيف، ومن امرأة إلى أخرى،  
ومن خمارة إلى خمارة.

دوار يعقبه دوار. من الشيء نحو اللاشيء وبالعكس. ثور أعمى يدور حول  
بئر. جبل اسمه منى: جبل الصعود والهبوط. الجبل اللامحدي. وأسماء راني: جبل  
النقطة الحرجة. في حين كان اسمه في قاموس سامر: الذي لا يملك دفعة الوقت  
والتاريخ في اللحظة الراهنة.

وقلت عنه: ميلونا. قادوم، امبرياليزم، عسكري، عزرائيل. فبقا الانفلاش  
الثوري.

وتقول دمشق: أنا اللغز الذي عجز عنه معاوية وتيمورلنك والسلطان سليم  
وسائر الفاتحين المبجلين.

وظلت قضية وائل الأسدي وأيوب السرحان ومنى وسائر المطعونين دونما  
استكناه، مستترة في مكان خفي من تواريخ المدينة وغزواتها وثوراتها المعاصرة. ظلت  
بلا قضاة ثوريين في عصرنا الحديث.

[ ]

الطريق نحو دمر - بيروت مفتوح ومشجر، يخلف شعوراً بالانطلاق والهروب.  
على جانبه الأيسر يتأود بردى داخل أودية ثابتة بين ظلال الحور والصفصاف. وفي  
الجانب الأيمن قاسيون العاري.

وراءنا دمشق التي تعرت لكل الغرباء وظلت دمشق. والذين سموهم الهكسوس  
الجدد ما زالوا مقيمين فيها. همجيون وخطاة، لكنهم يبدون أكثر انفراساً في جسد

الزمن الدمشقي. بوحشية غير متزنة، يهشمون أنفسهم وسكونية دمشق ورخاوتها. دمشق التي اعتادت على مدى القرون البيع والشراء، الصلاة والمجاملة، الهدوء الكاذب ثم قذف الغرباء عندما تضجر منهم.

دقائق ويوقف وائل الأسدي سيارته بعصبية. فيسمع للاطارات سحج مفاجيء يوحى بحادثة مباغتة. بحركة ممثل، يغادر مقعد القيادة ثم يغلق الباب بعنف ويقفله. ندخل دهليزاً مغطى بأوراق الكرمة. ينبحنا كلب ينهره وائل ثم يربت على ظهره فيشب الكلب بمودّة على قائمته، هاراً بخفوت من عرف القادم.

يخرج وائل من صمته مذ غادرنا دمشق: هرّ لأنه عرفك غريباً. طوال الطريق لم ينبس. كان يدخن ويسوق كالمهووس وأنا قربه لا أعرف إلى أين نمضي.

انعطفنا داخل الدهليز المسقوف بالشجر. فاجأني النهر بهدير زاخر، وتحت انعكاسات الضوء بدا عكراً صخاباً.

لأول مرة أشعر ببردى مخيفاً في هذا المكان الموحش.

كان البيت معزولاً عن مجموع البيوت المتناثرة في الضاحية، غارقاً في السكون. وإذا وضع المفتاح في ثقب الباب وحركه فصرّ، داهمني إحساس غريب مشوب بخوف.

أشعل نور الممر وأنا أمشي خلفه بخشية واتئاد. لم يكن يُسمع غير صوت خطواتنا على بلاد الممر. ولجنا غرفة إلى اليسار. أشعل المصباح. سرير وطاولة وكراسٍ وخوان وأرض عارية. على المنضدة والارض زجاجات فارغة وكؤوس فيها بقايا خمر؛ فواكه ونفايات، ثم الروائح الحامضة.

- ما رأيك؟

غريب وشاعري.

- هناك غرفتان فارغتان. هل تسكن معنا؟

- أنت تسكن هنا؟

- أحياناً.

كان واقفاً يشعل لفافة «جيتان» دخانه الحادّ المفضل. معه كنت أتقي إلقاء



الأسئلة . على الخوان جلسنا . تناولت لفافة وأشعلتها ، وشبكت قدمي بينا راحت عيناى تكتشفان البيت .

كان السرير في حالة فوضى ، وفي زاوية منه منامة نسائية مطوية . سألتني إن كنت أرغب في تناول القهوة ، ودون أن يأخذ جواباً تحرك نحو المطبخ . سرت إلى السرير . رفعت المنامة . كانت ممزقة وعليها بقع من دم . اهتزت في أعماقي توجس . على الأرض لمحت بقعاً حمراء مختلطة ببقع البيض . وعلى الجدار كانت هناك صورة عارية لرجل في حالة تهيج ، يقبل نحو امرأة مستلقية تسترها غلالة تشف عن كامل جسدها . اللوحة زيتية والزمن شفق . وفي الزاوية بحلات نصف مفتوحة . تناولت إحداها فواجهتني أوضاع جنسية كان جزء منها ممزقاً .

لست أدري وأنا أعود إلى مكاني ، كيف تذكرت صوت هدى الذي صرخ في البراري . هاجمتني روائح مرضية هبت من هذا العالم الغريب ، وانتابني خوف خاص مشوب بحزن وغثيان . كنت منقبضاً .

وأقبل حاملاً القهوة . ورأيت وجهه الوسيم وشاربه الأشقر وشفتيه وشعر صدره الكثيف السابع نحو رقبته . بابتسامة مرتعشة قلت : أنت وسيم وائل !

فاجأني : هه . وسامة مشوهة تساوي فرج امرأة . ورحنا نحتسي القهوة . من تحت المخدة تناول علبة دخان أميركية . عرض علي قلت : أنا ضد الأمبريالية . وأشعلت لفافة «شرق» .

قال : بل أنت ابن حرام .

استفهمت منه فابتسم ، وقال إنني أملك رائحة شمّ نفسية . ولم أفهم ماذا يعني . بين أصابعه فتل اللفافة : لو تعرف قيمتها . أنت لا تعرف قيمة التمام . وقلبت شفتي . ووسمني بأني حمار لا أدرك من عالم الإنسان إلا الأمور السطحية ، وإن الحياة في نظري قراءة كتب وتأملات لا صلة لها بالواقع . ثم ختم موعظته : التأمل لا يخلق إنساناً . والتجربة واختراق المحرمات في هذا العصر الجليل هي الأساس يا بهيم .

وقلت : قد أسمع الكثير من الآراء الدونكيشوتية التي تتجلى لك ولكن أفهمني ما هو هذا التمام ؟ قهقهه وراح يشعل اللفافة المقفلة في نهايتها ، ثم عبّ نفساً طويلاً قذف إلى فراغ الغرفة قليلاً منه وابتلع الباقي . شممت رائحة غريبة وزكية ، بينا

كنت أرشف القهوة. امتدت يده إلى زر النور فأطفأته، وأشعل مصباحاً صغيراً أحمر. قال: هذه طقوس لا بد منها.

بدأت الغرفة موحشة، تشبه مغارة قائمة في الجبال. وراحت الروائح تنداح على مهل: مباخر من عصور قديمة توحى بالموت والجنس والعزلة. الأرض والجدران والسياب والفراغ، راحت تنضح. تدخل أنني وتغور إلى الداخل، أحسست أنني مرمي في حفل جنائزي وأني مسحور، ثم انتقلت إلى عالم مفرح، فعالم يوحى بالقتل. تخيلت في هذا الهلام الغريب أن امرأة حضرت هنا من زمن ماض، فرحت، ثم انتهيكت، ثم قُلت. وازدادت الروائح. أحسستها تخرج من لفافتي ومن قدمي، من الكتب والخوان، ومن كل جسدي. كانت هناك تستوطن كل ذرات الغرفة، وكنت كالنقطة يحوطني غلاف من روائح بخورية تخرج مني. وفجأة دهمني انقباض وحالة غثيان، وكان قبالي يحتمي القهوة ويدخن، ماصاً لفاثته على مهل. يحكي أشياء أحاول جاهداً استيعابها، انتهت لكلمة هدى وناديا فسألته إن كان قد رآها بعد تلك الليلة. شتمني وهو يقول ان المرأة الشرقية تؤخذ عنوة. وأتذكر أنني أجبته أنها رقيقة وعذبة كزهر الياسمين وتكره العنف وأن هذا الذي تتحدث عنه مركب نقص في العربي المسكين. وبدأت حدقناه محرورين باحمرار حار، وحاول أن يناقش في موضوع الفحولة والمرأة الشرقية التي تخضع للذكر وهو يقتحمها بشراسة، فقلت بأن هذا المفهوم بدائي لا علاقة له بالإنسان المعاصر، وان المفاهيم قد تبدلت منذ عصور الكهوف والفرسان والصحاري. واذ تناول لفاقة أخرى راح يتحدث عن نفسه وقواه الخارقة في الجنس وضرب المتأمرين في قبو مكتبه. كان في حالة خاصة، ورويداً راح يتشنج ويصرخ ويهدد، وكنت منكشاً أنسحق ألماً عليه. وحاولت تهدئته، فشلت وراح يهذي: كانت الحياة معه تبدو ضرباً من المحال. تصور رجلاً مشوهاً مرمياً على سرير لا يقوى على النهوض. مضى عليه حوالي ثمانية عشر عاماً هكذا. الأدوية لم تنفع وكل الأطباء عجزوا عن شفائه. من الخارج انساب صوت النهر، وتحولت الرهبة والمفاجأة إلى حالة من الحزن والشفقة.

ونفض. صب لنفسه كأس نبيذ ثم جرعه دفعة واحدة: كانت هنا بالأمس على هذا السرير. قالت: أنا عذراء يا وائل. انتبه جيداً. عذراء أيها الكلب. ها. ها. وجرع من الزجاجاة.

- أي معنى أن تكون امرأة عذراء. غشاء كخيطة العنكبوت يُمزقُ بطعنة ثم ينهي كل شيء. صمت قليلاً ثم استطرد:

في الصباح دخلت عالم الحريم. تلوت. صرخت آهتها. هاي. مرحباً آله مرحباً عذراء. عندما تقتحم غشاء المرأة تحررها. آه لو رأيتها بعد ذلك بعد أن فقدت أغلى ما تملك. لماذا لا تشرب. يا... يا... واذا تلفظ بكلمة: إنسان. شعرت أنه ربما استيقظ.

وصب لي: نخب العذارى!

قمة الفرح والبوح. قمة التعاسة ومضغ اللذة التي تُستعاد الآن. وائل الأسدي موسى بكبرياته وطقوسه، وما يزال يدندن عن امرأة كانت عذراء، بينما أتقوس داخل نفسي كسلحفاة مائة دُوهمت بعيداً عن النهر.

وعاودته حالته من جديد. شرب مزيداً من الخمر وتناول لفافة أخرى، ثم حكى عن اغتصابه هدى ثم ناديا بعد أن نعلنا وتناولنا دخاناً أمريكياً خاصاً. وما بان في وجهه إحساس من ارتكب شراً، سوى أنه معجّ لفافة الحشيش بعصبية ونفثها في الفراغ: هذا كهف إبليس. أعرف أنني شيطان من نوع قد لا تقبله. ماذا بهم ذلك. لقد أردت لك أن تعرف الجانب المظلم من حياتي وبعد ذلك ترفضني أو تقبلي فهذا لن يؤثر على مجرى العالم في رأسي. باقتضاب حاولت أن أشرح له أن هذا ليس جديداً علي، وإن الأمر قد يقربني منه أكثر. فلا يكفي أن نتلمس سطوح الأشياء فقط.

وحدثني عن الرغبة في البشر، وأن الإنسان قد يولد بطريقة خاطئة أو مصيبة. المهم أنه يسقط من ذلك الشق القدر ثم ينمو. وفي سن معينة ينسى ولادته. تبدو الحياة مبهجة وفي الإنسان تتوالد اندفاعات. الجسد القوي مشحون بطاقة تريد أن تخرج، ثم الأحلام. المدرسة والبيت يقولان بطريقة أو بأخرى: كان أجدادك عظاماً فتحوا العالم، وتشمخ. كل شيء مبني في الماضي كما ينبغي وعلى أحسن ما يرام، والحاضر استمرار للماضي، والنسل القوي يلد نسلًا قوياً عظيماً. الأجداد زلزلوا أسوار الرومان والفرس، وأنتم خير أمة أخرجت للناس، وقد فضل نبيكم على جميع الأنبياء وكان خاتمهم. إنك ترى جيداً أن الأشياء جاهزة تماماً، كاملة تماماً، نقية كالفضاء الصحو.

- نخب الصحو. رفَعْنَا كَأَسِينَا: نخب العكر. كالطيف العابر

مرّ الصمت . رفّ في فراغ الغرفة كشاهد . كنت أراه الآن بطريقة جديدة ،  
من زاوية كانت مظلمة فيما مضى . كان وجهه الأصفر المهتاج يعطيني إحساساً  
بالنقاوة الصاعدة من قاع شره الخاص . شره المسوّغ ، ربما .

- بعد المرحلة الرومانسية ، بعد أن نكون قد دخلنا في راحة الأشياء  
وطمانيتها : حب . لا مبالاة . فتيات . حرية . خمر . ملذات ساحرة . العالم هادئ  
ومعشوق حتى الهوس . ما الذي يحدث فجأة ؟

وعبر الصمت المنبئ لم يكن يسمع إلا نفثاته الأفبونية .

- كنت حالماً في عالم مسحور . في عالم كاذب . كل ما قبل وما أحسست  
كان فربة كبرى . والعالم مختلّ منخور من الجذر . حتى الولادة كانت خديعة لذة  
عابرة بين رجل وامرأة . نحن ملوثون بطريقة شيطانية . ناقصون ومشوهون وكل  
ما تبقى من العمر سيكون تكفيراً ورأباً للصدوع التي لا دخل لنا بها . والله ذلك  
السادى . يتفرج ويقهقه لجراحنا التي نحاول عبثاً تضميدها . إشرّب . إشرّب . العالم  
لا يحتمل مزيداً من الأحزان . المهم اغتصاب الفرح من غابة الحزن ولو كره الله .  
كان النهر مستمراً في هديره ، والسماء مرصعة بنجوم بعيدة ، وبين لحظة وأخرى تعبر

سيارة فيسمع دويها ثم يتلاشى على الطريق الطويل الملتوي .

وبقدر ما كان منتشياً ، موعلاً نحو رحم الأشياء ، كان موجعاً وتعباً . بدا هذا  
في عينيه وحركة اليدين . بهدوء استلقى فوق السرير وراح يحرك أصابعه ببطء على  
سطح الفراش ، وعيناه الزائغتان تحاولان عبثاً مطاردة أحاسيسه على جسد السقف .  
لست أذكر إن كان صاحباً تماماً أم في حالة نصف الصحو عندما همس وهو يتنهد  
بعمق : آه . . . لشد ما أنا شقي .

ثم دخل عالم النوم بارتياح تام .

هذا الجدار كئيب لا ينفذ منه الحب . يكفي نفسه بنفسه . والعابرون ظلال غيم  
تنسحب فوق هذه الأرض ، ادراكها يعبر حالة من الغفالة . حالة رجراجة ترتعش  
بالمستقبل . يبغون خدش جدار التاريخ والتاريخ مظلم وعكر ، وهذا الجدار كون  
خاص أقامته مسافات زمنية عمرها آلاف سنوات النهب والاستلاب والانتهاك والدم  
الملوث ، فولدت داخله طغياناً من الثأر اللاشعوري الصامت .  
منى .

ومن جميع الفرسان الذين عبروا تخومها ، حلمت بفارس خاص ينسى نفسه  
قليلاً لينشئها ، وبعدها تكون له لحماً ونفساً . وعلى جميع الدروب شاهدت كيف تهوي  
العقريات العظيمة في برك الجنس والتوحد الاقليمي .

ولكثرة ما حاول الطامعون اجتياحها ، فقدت حس الاصطفاء بين الفارس  
والعبد ، بين الشاعر والأمي ، بين الثوري والمغامر . ومع الزمن لُوحيظ أن جميع  
الأطباء وعلماء النفس عاجزون عن شفائها .

وفي حالات من التأمل الخاص كان يخيل إلي أن منى تشبه نقطة ثابتة في  
الفراغ ، متحركة في قاع نفسها ، تنوس بين العبقرية والعادية ، راغبة في قبض العالم  
وتبديده ثم تكوينه من جديد .

[ ]

«أشياء كثيرة يمكن البدء بها . فمثلاً أنا أقرأ كثيراً في هذه الأيام وأكتب قليلاً  
وأفكر بطريقة حدسية . بالتحليل والمراقبة يمكن فهم أشياء كثيرة أو على الأقل  
الاطمئنان إلى قناعات احتمالية . إنني أقول لنفسي : أنت تتعلم بطريقة حي  
بن يقظان .

راني. هل قرأت حي بن يقظان؟ أنا أرى أنه نموذج في الوصول إلى المعرفة. والعرب يمكنهم في هذا الزمن أن يصلوا وجودهم بالعصر بطريقة مماثلة. بالطبع أنا لا أعني اكتشاف الله والتصوف الغيبي السخيف، وإنما اكتشاف نفوسهم في هذا الزمن المحتاح بطريقة عملية. في غيابك وغياب مني أتسلى بمحاولة بحث نفسي وتاريخي عن اثر العربي في الزمن. هل ينقرض أم ينبثق من جديد وكيف؟ يخيل إلي بأن ما ينقصه أن يكون صريحاً في مواجهة نفسه بقسوة كقسوة سيفه الحاقد على أخيه. السيف المبضع الذي يخترق الدماطل فيفجرها. هذه اول عملية تطهير. أنا أعرف أن هناك احديداً تاريخياً كونه عصور الاستلاب والخوف والكذب والخيانة والعلاقات المنحرفة والطغيان والغزو والقمع، ثم هذه الفردية المتوحشة. لقد أودى هذا التشويه المتراكم بفلسطين واسكندرون، وإذا ما استمر فستحول إلى بقايا من الهنود الحمر.

أفكر كثيراً وبمرارة بجيلنا. الجيل الذي قَدِمَ العالم قبل أوان النضج. الجيل الزائع.

دعني أوضح لك، راجياً أن تفهمني جيداً بلا إدانة: لقد أردت مني وأردت نفسي التي لم تكتمل. نفسي التي ورثت من العصور القديمة نقصها الوجودي والتاريخي، فُرَجَّ بي في تيار التاريخ الذي يحاول أن يتمخض عن ولادة شيء جديد، وأنا نبتة طالعة في أرض هذا الوطن تحتاج ماء وسهلاً وشمساً لتنمو وتقوى وتقاوم. إنني أعتقد أن مشاريع ثورات العرب كوكثيل عجيب من الدين والقومية والماركسية المبسطة، والجيل الجديد تائه يمارس أقل من ربع حياته بطريقة طبيعية، وما تبقى يتبدد في السفسطة والاحتجاج السليبي والخمر والنساء والشذوذ، بعيداً عن الماء والشمس والنمو الصحي. دعني أسألك كم من الزمن مضى حتى استطاع خالد أن يكون قائداً لا يهزم؟ قبله كان عصر عنزة وعروة وثعلبة الشيباني. وفي زمنه كان حمزة وعمر وعلي، أما نحن فمن سلالة المستعصم والمتوكل وبني بويه والمماليك والسلطان سليم والملك عبدالله وفاروق وسعود ونوري السعيد وبورقيبة والسراج والكزبري.

إنني أحاول أن أفهم لماذا رفضت مني أن يكون لها نسل وأن يتمتع البشر بنسلها النقي، وإذا اشتبه الأمر عليها يوماً فولدت ميسالينا، راحت تدعوها لتعود إليها، لا لتضمها بذراعيها وتحيا معها، إنما لتعيدها إلى رحمها، إلى وطن الطهر المريمي. أعتقد أنها تؤمن بأن أوان ظهور الإنسان هنا لم يكن قد آن، وأن حالة

الانبثاق المباغته قبل النضج ، كانت لوثة معاصرة مجنونة ومغامرة . إهانة موجهة لها وللأجيال الثورية التي ستأتي فيما بعد . ولعل هذا يفسر رفضها لنا جميعاً . انني أسأل لماذا الزمن الحاضر قائم خارج العربي ، بينما يقيم هو في الماضي ؟ ولماذا كل الإرث القديم التالف يتجلى الآن ، ومن خلال هذه الموروثات يعمر كل فرد مملكته الخاصة ؟ إنك تدري كم نعاني لنظهر بمظهر الأسوياء . أتعلم ماذا قال لي سامر البدوي عندما سأله لماذا تدمر نفسك هكذا ؟

قال : هناك طريقان لا بد لجيلنا من سلوك أحدهما احتجاجاً على هذا العصر الملتاث : التمل والنساء حتى العمى ، أو الانتحار . لم أعقب رغم إدراكي الأكيد للطريق التي تمتد بينهما . الطريق التي حايد عنها سامر وسائر الأصدقاء المطمثون ، بعد أن سحرتهم مدة الإقامة في مدينة منى ، فطابوا نفساً وقرّوا عيناً بالسلطة والويسكي والضوضاء ومنازل الحور العين . إنني أكتب إليك بعد زمن طويل من الانقطاع ، أنت الذي تحيا على شواطئ بيروت وفي أروقة وباحات الجامعة الأميركية .

تمر لماماً على « العمّ سام » و « الهورس شو » فتلتقي بقوافل المثقفين وتثرثرون عن أحوال مدينتنا الثائرة ، في حين ما أزال أزرع شوارع دمشق ليلاً ، ماراً بكل الدروب التي خطونا فوقها ، صاحبياً حيناً ، ثملاً أحياناً ، وحزيناً في حالي التمل والصحو . إنني أتساءل : كيف يُمكن أن يحمل الإنسان كل هموم هذا العالم المضطرب داخل نفسه ولا يُجن ؟ !

ألا يدعو هذا إلى الدهشة وعقد اللسان ؟ لا شك أن هناك طبقة ثالثة تحت اللاشعور لما تُكتشف بعد ، وفي هذه الطبقة ربما تسكن حقيقة هؤلاء العرب بجحيم الآمهم ونفوسهم التعيسة التي دُمّرت وتناثرت شظايا . أشعر الآن بالارتعاد وأنا أطل على تلك الساحة القصية . لكن ما ينبغي الإصرار عليه هو المزيد من محاولات اكتشاف الزوايا الميتة - الحية في الإنسان . هل تعتقد أن هذا تبرير خائف حتى لا أقدم على عمل حاسم ؟

رحلت يوماً مع منى إلى البحر في حلم يقظة . كان هناك ناس بدت أنها مرتبطة بهم هي التي تعرف أنها لم تنتم يوماً إلا لنفسها . لم نصل إلى قرار حول الزواج أو الهرب . عرضت عليها الهجرة إلى الجبال والغابات لنبدأ من جديد . هزئت مني قائلة : أنت مغامر رومانسي . فاكتفيت بالصمت والسباحة وتأمل جسدها

اللائء تحت الشمس ، ثم تظاهرت أمام الآخرين أنني سوي وعاقل ، وفيما بعد اعتذرت عن خطئي واندفاعي الأهوج .

حينني الدائم إلى الريف والجبال يزداد ويقوى ، بعد أن كشفت لزوجة الأشياء وحمامات الدفء اليومية هنا ، والأكاذيب . دمشق مدينة ممسوسة والأصدقاء ينزلقون يوماً إثر يوم . تتلاشى من نفوسهم حيثيات الجرأة ، والمستقبل يلوح عاتماً وغامضاً ، ويبدو أن الإبحار قد توقف إلى ما بعد هذه الجزيرة المريحة ، المفروشة بالبروكار والموسلين وطنافس الملك .

تعرفت على وائل الأسدي : ضابط قوي البنية شوّه أبوه في حرب الـ ٤٨ بعد أن هاجروا من اسكندرون . يملك سيارة فارهة يصطاد بها النساء بسهولة . إنه حالة خاصة : مزيج من الجنون السادي والعبقرية والتدرن الفردي . إنسان عصابي . منى تقول الشعر أو قلّ إنها تتعلمه . لغتها الشعرية فجّة . غير أنها عبر كلمات لا شعورية متناثرة ، تحاول أن تعبر عن الخلل الكوني فيها وفي الإنسان منذ حدث السقوط . في كلماتها الفطرية نزوع مستمر نحو الأعلى . إن مفرداتها تتحدث عن النجوم والغيم والشمس بوجدانية متطهرة ، وفي تعابيرها تستعمل البحار الزرق والجزر المهجورة والغابات والجحيم والمطهر المسيحي . يخيل إلي أنها دون أن تدري ، تحاول أن ترثي من خلال نفسها الجنس البشري الذي هوى من قبة اخلاقيته فوق أرض معفرة بالغبار والدم والإثم . إنها تبدو لي عالين قائمين على أرض واحدة : حياة خاصة ملوثة ، منهوبة ، منحطة . ثم حياة تتجلى في شعر تطهيري معاكس للتلوث يحاول الإنبياء عن أعماقها النقية ، ومن ذلك الداخل تنتحب على نفسها وعلى البشر الذين أصابهم ذل بلا حدود .

لم يعد لديها ثقة بالناس الذين مرّوا في حياتها فأحدثوا لها جراحاً لا تندمل . انتهت الثرثرة عن منى ، غير أن ما لم ينته بعد ، ذلك الخيط الذي يكرّ باتجاه كشوفات جديدة . أعتقد أنه سينقطع عما قريب عندما يداهمني الملل يوماً والشعور بلا جدوى كل ما وصلت إليه . ولكن هل وصلت إلى شيء . هل اقتربت من النسوغ ؟

«سلاماً أيها العزيز الذي يعيش خارج عالمنا المتّهم . اكتب متى أردت» .

أحسست بتعب نفسي مُضنّ بعد أن أنهيت الرسالة فتمددت على الفراش ، لم تكن لدي القدرة على التفكير بشيء ، حتى منى عبر اسمها في ذهني ثم انطفأ



بسرعة. وأنا مستلق على سطح النوم تذكرت أنها كانت قريبة مني منذ لحظات  
وفجأة استدركت أنني لا أعرف أين هي الآن!

هذه أزمته الغربية؟ ربما. أزمته الجنون؟ ربما. لكنها أزمته الذكرى قطعاً.  
ليل. موسيقى من الصمت والوحشة. نساء عرايا في برار موحشة. للأرض طعم  
خاص ولجسد المرأة فوق التراب الحار رائحة الوطن، ولرائحة جسد المرأة رائحة  
التراب.

في ظلمة الليل تشني فوق الجسد الأخضر، على الأرض الخضراء فتحس مجد  
العالم، وأنتك والإله في مرتبة واحدة. هنا في هذه الأفاصي بعيداً عن الناس،  
يملك الحلم. وحيداً ولا من يراك. وأنت ترى نفسك، هذه التواقة للتمدد في بحر  
مطلقها الشخصي، والجسد جامع يود أن يفتح بازدهار لا حدود له في غابات  
الجسد العظيم. وقربك جسد مسي يلوب عن حب. جسد مهجور منذ عصور  
أجدادك الدينين، والإثم ليس أكثر من خرافة نسبية عنكب الزمن عليها داخل  
كهف هجر هو الآخر منذ أعوام ما عدت تذكرها. منى تقول: إذا لم يتحرر  
الجسد فالروح سجينه حتى آخر الدهر.

مزيداً من الحزن. مزيداً من الحرام. مزيداً من لهفة البحث.

وتسأل نفسك لماذا يتم الجنس هنا كما يتم القتل في الغرف السرية؟ ولماذا المرأة  
الدمشقية تطلب أكثر من عشيق، تباهي بهم في محافلها الخاصة ثم تقول: هذا  
الذي انقرض كان عشيقى؟! .

هوذا العشيق الحديد يأتي. راع محروق بالشمس والتعب. مولود من شهوة  
رجل ثمل كان يصلي الأوقات الخمسة وصلاة التراويح أيضاً.

«سميته الشبل وأنا أبوه. درت أزقة القرية وأنا أنادي: يا قوم هوذا الخارج  
من ضلعي ينمو ويتألم. يصير رجلاً بعد شقاء مرير. يخرج علي ويلعني في آخر  
الزمن لأنني أصير في عينه عتيقاً بالياً. يهجر باديته ووحل أزقته، ويتقدم نحو

مدنكم . يحكمكم أعواماً فتلدون من نسله . يطهركم فيكون لذريته دويّ في طول الأرض وعرضها . ذرية مباركة ، في دمها الخمر والنساء والمكابرة والقتل وهجير الصحارى . ومن أجل أن يكون ذلك حقيقياً هأنذا أفصد دمه فوق هذه الصخور . أمّر لحمه على الشوك والرمال الحارة كي يكون صلباً قوياً لا يهاب .

وفي البيت كنا وحيدين . وكان هناك الفراغ والتوجس . وسوسني إحساس أنها خائفة مني . بدأ ذلك في ارتعاشة يدها على مقبض المكواة وفي ذعر عينيها الوعليتين الوجفتين . ورغم إحساسي الشفاف نحوها ، حاولت أن أوازن بين مشاعري وهذا الوجف المهتر .

كانت تتحرك في غرفة ضيقة ، وثوبها الداخلي يحفّ بي أثناء غدوها . وفي تلك الليلة تبدى جسدها تحت قبض النوم في قمة إهماله ، لكنه كان شهياً كما ينبغي تحت رغبتني . وأنا أتملاها سفني الحزن . مرّت ريح الخيانة فوق سهوب نفسي محملة بالأذى والندم المتوقع وقلت : هذه السمكة العالقة في شصّ . وما كان مثلها بين النساء في ستر أحزانها . وإذ بحثُ لها بذلك ابتسمت بمرارة من تخاف الاغتصاب بعد لحظات : الحزن يرسو في الأعماق . لا يُباح به .

وحدثتها عن الشرق المبحر نحو هويته الضائعة ، وكيف يعيش الناس أعمارهم في النسيان واللاشعور خارج الزمن الحقيقي المخصص للجسد والنفس ، وانهم لا يدركون كثيراً المعنى الكبير لوجودهم ، ومن كثرة ما انهم الدهر التحريمي عليهم ناموا تحت وطأة الزمن والمصالحة . وإذ يسأل أحدهم : لماذا أنت هكذا ولست نفسك ؟ يجيب : جميع الناس هكذا !!

[ ]

ديانا عالم سكوني باهت . بحيرة منسية في غابات عذراء . اعتادت الصباح والطعام والتبرج والأماسي الباردة . وبفعل الطنين اليومي هدأت فنسيت من تكون . في الأيام الأولى من تعارفنا بدأ كل شيء عادياً بارداً خلا جسدها الجميل الذي يشبه حجراً من رخام يلمع تحت البصر الناقد . فيما بعد أذكر أن سامر البدوي حدثني عنها يوماً بطريقة مؤذية ، اشتهاها كنموذج لجسد شرقي غريب عن دمشق .

يومها قال عن جسمها : أنه إلهي في تكوينه . وقلت مغيظاً : أيشتهي الإنسان

صفحة من البرونز؟

- هذه امرأة حقيقية أيها الخنزير. أنت فاقد لحاسة الشم الحارة. وفي مرات كثيرة حاولت أن أبوح لديانا. أن أقول لها ماذا تعني بالنسبة لي بطريقة صحية بعيدة عن الخيانة، لكن مسرور كان يتصب بيننا كجدار مهدم عاجز عن تحمل أية صدمة جديدة.

ورغم ما كان يبدو في سلوكها وكلماتها من انطلاق، كنت أتصور أنها موثقة ومحصنة، لا بالشرف الأصيل النابع من أعماقها، إنما بالخوف التاريخي الذي ورثته من المعاشرة والاستهلاك الاخلاقي السائر للخيانة الداخلية.

كان بودي أن أحدثها يوماً عن الامتلاك النفسي، هذا الذي يتم أحياناً بين امرأة ورجل لا يتواصلان فيكون الآخر هو البديل في لحظة الواقعة الحسية، أو يحدث من خلال نظرات حادة في المسافة الواقعة بين البصر والبصر، أو بالتصورات عندما يذكر اسم الرجل المُشتهى في الداخل وتحضر صورته في الذهن. كان يخيل إلي أن تلك المصارحة مهمة جداً في عملية الشفاء التي نحتاجها جميعاً، لكن ما كان يخيفني لدرجة الازدراء، اعتقادها بأن ذلك ليس أكثر من تمهيد لامتلاكها حسيّاً.

ولما طلبت مني البقاء في البيت، خمنت أن خوفها بدأ يتبدد. أحسست بالخرج واتي ربما كنت مخطئاً.

وتساءلت: أليكون مسرور قد خُدع للمرة الثانية؟

كانت عيناها تشعان ببريق خاص، وهي ما تزال تكوي الثياب تحت ضوء ساطع، وأنا أتكى على الخوان أدخن وأراقبها. لا أدري كيف تخيلتها فوق سرير مريح، أو في برية موحشة تحت المطر والصمت واصدء الفراغ البدائي. وكيف تسللت نحو خوفها المترج بالرجاء ثم نحو عالمها اللطيف بالليالي الباردة. كانت هناك على مسافة أمتار من الفرع، محرومة ككل نساء الشرق تشبه آنية من خزف فوق رف منسي.

وبقيت. شربت كأساً ثالثة. طلبت موسيقى. وكانت تروح ونجي. زنداها عاريان حتى الإبط، وتحت ابطها شعر خفيف. تمثلها ذهني خائفة، متشبهة، مسكونة بفرح مجهول. من تحت إبطها تفوح رائحة خاصة توحى بالعري واللذة. الموسيقى تصدح. هي الأخرى لها رائحة. ساقاها المرمرتان تشعان تحت الضوء. تحت القمر والريح. تنفرج شفتاها فتوشك السفلى على الهطول. أسنانها في لون

الثلج. قبض زهري شفاف تحته جسد مني خلقه الله ليكون تاج الرجل وزاده في ساعات الضيق. هوذا وحيد متروك للريح والغفوة. لم يستيقظ بعد لأن الرجل الذي يفتح كل مسامته لم يأت بعد. ولأن الرجل الذي يجيء عليه أن يفتح النفس قبل الجسد.

«وها هوذا الرجل الذي يهب الاطمئنان، ممدد هناك، يشرب ويدخن ويحس بي. وأنا هنا في العالم الذي حلمت به منذ الطفولة وهذا الرجل على بعد متر واحد. ما عاد غريباً كما كان يوم دخل البيت، وما عاد وجهه الممتنع يوحى بالخراب. يا إلهي كيف تتبدل الأشياء بمثل هذه السرعة. الأشياء أم النفس؟ هل الزمن في الخارج أم فينا. أم مطلق أم نسبي؟ وهو هناك بعينه الوحشيتين ولا مبالاة.

قال يوما: المرأة وطن الرجل. لكن كيف تتعري امرأة لرجل غريب؟ هل قلت: غريب؟

ولكنني لا أرغب الرجال. المداعبة فقط. وفي تاريخ الشرق لم يحدث أن تقدمت امرأة من رجل تحبه وقبلته في البدء. لكنه هنا أكاد ألامسه. أشعر بنظراته تعريني. ساقاه ملفوفتان وصدرة مفتوح وشفته محروقتان بلفح شمسي. إن صدره يعلو ويهبط. ينهض. يتقدم مني ويمد ذراعيه. كياني كله يهتز وجسده يلامس جسدي. نرقص. يتحرك بي بحنان. مسحورة، محمولة على جناح غيمة وأنا نفعمة برائحته. يضمني ثم يلقي رأسه على كتفي. أغيب في عالم مسحور. في عالم طفولي يزدهر بالحنان والعدوية والألوان. أغمض عيني حتى لا أفتق من حلمي. بهدوء يسحبني نحو المرمر. أشعر بذراعيه تضغطان جسدي. أنامله تسري على ذراعي. آه. غبطة. شمس تشرق علي. أنفاسه تلفح وجهي لتغفو فوق شفتي. أية حرارة تشيل في شتاء جسدي. فجأة ندخل في الظلمة. أنامله تهوي إلى الأسفل. يهمس: خصص الله للخلق ستة أيام واليوم السابع خصصه من أجل ساقيك. أسمع أنين السرير فأفتح عيني. غرفتنا. لا.. وأندفع من الحجرة».

من البيت إلى الوظيفة ثم العكس . استيقاظ وقهوة وثرثرات . حركات عشوائية وظلال باهتة من الضجر . حياة العربي تشبه الحياة لكنها تسير بقوانين العطالة . يحلم ويعيش في المطلق . يتخيل أنه يُنجز ، لكن الزمن يعبر قربه ويمضي . يقتله دون أن يشعر ويمضي . تماماً كما تعبر منى في رحم دمشق وتظل دمشق عاقراً . ومع الزمن تُخصى الأحاسيس . ترتخي حيوات الناس في هذا السجن الزمني الغارق في حلقة العصور . أردت الخروج من جلود البشر ، من جلد الأيام الضجرة ومن العجز بعد أن فقدت منى ، فاصطدمت بأمانة . وبكل ما ادخر هذا العربي المنهك من ضغط تواريخه وتوقه للتفريغ ، حاولتُ أن أتوازن معها ، غير أن الصدع توضح أخيراً وبدأت لي كلمة تطهير كإعادة بزه للإنسان المشروخ منذ آلاف السنوات ، لغزاً في ضمير اللغة ، ربما يحتاج آلاف السنوات أيضاً حتى يُفهمَ معناه . ولو قلت لأمانة أنني أشفى على تخوم جسدك لأنطلق بعد ذلك إلى الصحة والحركة التي توقفت منذ التار والأتراك والممالك ، لكنت اللغة التي أحدثها هيروغليفية جديدة .

أواه . كم أحس بحاجة إلى لغة .

لهذا ظللنا مصدعين : هي تسرد تاريخها الشخصي المُصاب ، وأنا أرعى جسدها يجوع حيوان لم يشبع منذ وُلد .

كانت تشعر أبداً أنها تخون ، في حين أحس بشيء من الحرية وأنا أرتع في سهول جسمها النامي .

وعندما كانت تسألني : متى نمارس ذلك بحرية وحلال دونما خوف ؟ اجيبها : مانفعله طبيعي . وما هو مهم فرح اللحظة .

تأوه وهي تعانقني كأُم عاشقة : لماذا لم ألتق بك في صباي ؟ آه . كم انا تعيسة . قدرتي هكذا !

- عدنا الى القدر !

- الا تؤمن بشيء اسمه القدر؟

- تؤمن بشيء اسمه أنت .

- وهل انا القدر؟

- أجل . اسمي هذه الحكاية : يوم وزع الله حصص الأرض على الناس كنت غائبا . ولما عدتُ توصلت اليه ان يعطيني شيئا أعوض به عن غربتي . سألتني أير كنت يوم التوزيع ؟ فقلت كنت مسافرا . وسألتني ان كنت قد صليت وذكرته خلال سفري فقلت : كادت عيوني تعمى من السهر وركبتي تمحيان من كثرة ما سجدت .

ارتاح وقال : ايها الغريب لقد ذكرتني وانا لم انسك ايضا . فالله لا ينسى عباده الصالحين . هي ذي امرأة جميلة وحزينة كانت مذنبه فعاقبتها برجل شرير . اني امنحها لك فانعم معها ولتنعم معك . عيشا بمسرة ولا تسبب لها حزنا . هي من خاصتي ولا أريد لها غمًا .

- انتهت الحكاية ؟

- انتهت .

اشرق وجهها بفرح تهلل له جسدها .

طوقتني عندما دخلت الطمانينة قلبها ، فانجابت غمتها . سألتني : ما نعمله اذن بارادة الله ؟

قلت : أجل انه مقدر علينا منذ بدء الخليقة وليس شرا يا عزيزتي أمينة . فاجأتني : يوه . كم انت خبيث وملعون .

[]

حدود التوق البشري هل لها نهاية ؟ والمدينة التي سحرت الجميع في غفلة من الزمن من خلقها وكيف ؟

الليل . الضمير المستتر لدمشق ، ثم هذا الموت البطيء داخل حياة التيبست حتى على الذين يملكون ذاكرة كالبرق . أية روائح تدخل مسام الجلد والنفس فتستوطن هناك . تصير ماضيا حيننا . وحيننا آخر تنبتق كالرعد .

ولما طويتُ منى في ملفات الأرشيف التاريخي ظهرت هذه المخلوقات الغريبة كبثور فوق سطح الجلد .

- جميع النساء اللواتي عرفت كنّ مشوهات .

دُهشت . فتحت فاما مستنكرة : انا مشوهة !؟

- على ما يبدو.

بعد ان توقفت يدها عن الكي ، عادت الى فرد الثياب ولمها . فجأة خطر لي ازعاجها باختبار سطحي : هل تدركين ان شفئك شهيتان ؟  
- صحيح ؟

- وان عينك تلمعان كعيني قطة برية ؟

- في صفري كانوا يسمونني القطة .

- وان جسدك متناسق ؟

- تمتيت يوما ان ادخل مسابقة للملكات الجمال .

- ولكنك معطوبة من الداخل !

فاجأتها الجملة كمن طُعنَ في غفلة ، فاهتزت يدها القابضة على المكواة ، ثم ضغطت بعنف على ياقة قبص مسرور ، ولم تجب .

ويقول ايوب السرحان وهو يحتمي خمرته : لم يبق لي صديق يا أخي . الأصدقاء الذين جثت بهم الى بيتي نهشوني بعد ان شربوا خمري وأكلوا طعامي . سألت امينة يوما : هل تحبيني ؟ فقالت أحب ابنتي وانا اريد مالي الذي هدرته على الخمر . عشرون سنة وانا اجهد من اجلها . بعث رزقي وبيوتي وحفرت الأرض كفلاح لكي تظل امرأة في مستوى لائق بنا . من ورأي جنت آلاف الليرات وخبأتها عني . وذات مرة احتجت بعض المال فطلبت منها فنعته وهكذا وقعت في الديون والخمر . المرأة ابليس اياك ان تأمنها . في البدء تظهر لك ، ولما تحصل عليها تصير افعى . تمتصك يوما اثر يوم ثم ترميك كالنفاية . هؤلاء نساء بلدنا .

وراح يكعّ على نحو يوحى بالاحتضار ، بينما آنية القهوة ترتعش تحت تأثير سعاله المتواصل . واصل مواعظه عن المرأة التي يدللها الرجل فتمتطيه . وقال بأن الرجل الحقيقي من يشعر بانه سيد والمرأة عبد . المرأة هنا لا تحب الا نفسها وثيابها واثاثها ومن خلال هذه الأشياء ترى الرجل : المرأة شر اقول لك الصدق . اياك ان تصدق ان آدم خلقها من ضلعه . حاشا . لقد خرجت اليه من وكر في جذع شجرة بزّي ملاك ولما امتلكته عادت الى طبيعتها الأصلية .

وهجست النفس : لكنك تنسى ذلك وهي تمنحك اللذة وانت تتلوى فوق سفوح جسمها الأملس . بغتة تذكرت أي جسد آخر يتلوى فوقه أيوب البائس ،



فقلت : المرأة مخلوق ناقص ومغبون تحتاج حنانا ورعاية . فقال ايوب : انت لم تجرب بعد . عندما تتزوج ستتذكر كلماتي .

بحرقة يحكي ايوب السرحان . لقد هدمته امرأة . لكنه يحكي كذلك الذي هوى في قبره والذي كان يقول : واذا القلوب تنافرت عن بعضها كالزجاج كسره لا يُجبر . احفظ ذلك .

وأقول : لماذا تريد ان تورثني فلسفتك وخيبتك ؟ الا يكفيك أنك متاً ؟ لماذا تأتيني ابدأ في هذه الكوابيس محمولاً مضمداً وفي عينيك تهمة ؟

دائماً كان يتحدث بالتباعد عن امي وعن الحروب القادمة . حروب العرب واليهود : منذ دخل الاسلام جزيرة العرب وهم يكيّدون له . كان الرسول على حق يوم حاصر بني قريظة وذبحهم . كان علي سيف الاسلام في خيبر . وذات مساء في تلك الخيمة القائمة بين المروج قرب البحر قال : امك ملعونة لا تختلف عن هند التي لاكت كبد حمزة بن عبد المطلب .

- لكن محمداً تزوج من يهودية . كثير منهم دخل الاسلام وأعملوا السيف في اعدائه . لقد انتهت حروب الأديان وابتدأت حروب أخرى .  
«أبي أيها الذي متاً ، انت اعمى في القرن العشرين» .

لا يريد ان يصمت ايوب المتهم . كل الجدران سقطت من حوله وما هو يترنح في الريح ، متكثاً على غلاف خَلَقِي ينسجه من ماضيه . بقرة عجوز تجتر ما مضفته في غروب شمس .

متى يفهم ايوب السرحان ان هذا الزمن الذي ينعطف يحنونه المبرق ، قد اختطف روحه وانه ليس بالحلي ؟

كمنى ابحت عن حب . عن مغامرة لم تخطر ببال بشري . عن امرأة تحب حتى الموت وتكره متى تشاء . تسمع صوت الزمن فتجيء . وتحس توقفه فتدبر . تسير عارية القدمين ، هاربة من مدائن المستنقعات والكذب والأثواب المزركشة . معاً نحو البراري . ننام على تخوم المدينة ، في الخرائب المهجورة ، وتحت شمس الضحى . نبي بيتاً من الحطب القاسي وننام عرايا فوق التراب الحار ؛ نتعاقق لدرجة الحلول ، واذ تضجر مني تهجرني وبعد حين تعود . تثوي في دمي . ننشد اشعاراً واغنيات مع الفلاحين الفقراء والعمّال والصيادين . نبكي ونضحك . نفعل الجنس في الحدائق وعلى شواطئ البحار . في كل مكان نرسو فيه نلد نسلأ قوياً كالصخور ساطعاً كالشمس ، يصلي للعمل والحرية والشعر ، ولا ينسى . واذ نموت بعد ذلك ، نموت بلا ندم .

سامر البدوي الوحيد الذي عرف سر الزمن واكتشف الكذب والأخيلة . قال للطبوف المهومة في سماء العرب : الى الجحيم ! ووحدته أدرك سر المدينة المسحورة ، المصابة ، ففرق في ضلوعها وفي شرايينها حتى وصل النسغ . لقد اختار الوجد الحسي حتى التلف . عنه لو سألت أي انسان : اين ألقاه ؟ لأجابك : في الخهارة او في بيت امرأة . وفجأة تكتشف انه متزوج منذ اكثر من خمسة عشر عاما . زوجته امرأة دميمة من فرط حبه لها سماها : الخفّاش . غير أن ذلك لم يكن يبدل من المأساة شيئاً . ففي اخريات الليل فقط ، كان يعود لينام في فندق زوجته بعد ان يعيا من الدوار .

عالمه فلك يدور . يسلمه زمن الى زمن ، ومكان الى مكان ، بحثاً عن أصله المفقود عبر سراديب التاريخ ، وكل زمن ، كل مكان يرتمي فيه يعتقد انه هو الزمان والمكان المطلوب . انه يرتاح هنا ، والولد الضال تائه داخل نفسه ، داخل حسه

المتوئب . خائف من السكينة لأن السكينة تعني الموت . بعين ذئب ينام وبالأخرى  
يرصد وحش الموت الكهين .

- انا مبتل بجسدي .

- يجسدك أم بتاريخك ؟

- ماعلاقة التاريخ بالموضوع ؟ .

- اعني الارث الناقص .

تحت شجرة صنوبر في حديقة المزرعة ، نرتمي . في السماء الربيعية قر دمشق  
مضيء يشبه وجه منى . يتحرك مثاراً فيزفر : كنت جميلاً في صغري . قالت لي  
امرأة يوما وعمري لا يتجاوز الرابعة عشرة : ابن الحرام ما أجملك . حتى أختك  
تشبهك . آه لو انجبت منك ولداً . بعد عامين لقيتها في البادية وكنت أتلهى بمطاردة  
الحشرات . آه . يا الهي اية افراح وحشية شعرت بها آنذاك . استمر ذلك طويلاً  
داخل كهف عاتم . انني اذكر كيف كانت تعض لحمي وهي تتلوى كأفعوان بين  
يدي . امرأة قاسية شهوانية لا تشبع . كان يدخن بجمرة تلك اللحظات . وهياً له  
الصمت والهدوء الليلي الرطب حالة انسياب ، فبدا وهو مستلق فوق العشب كأنما  
يتمدد فوق كرسي التحليل . يتحدث عن طفولته وابيه القاسي : كان اميراً ذا  
سطوة . لم يكن يحبني . سماني الخارج وكنت اشبهه . كان يضرب امي لانها تحبني  
وتحميني منه . مذ سمعت اول كلمة اعجاب اصابني زهو . يا أخي كلمة اطراء  
تسمعا من فم امرأة تضاهي لبتراً من الويسكي . كان عملاقاً بين الرجال ، له  
وجه مسكوب فيه ضوء القمر . لم يكن يملّ من النظر الى وجهه في المرأة . اغرب  
حادثة عنه انه كان يعشق التحديق في يديه . يمررها امام عينيه ويتفرج على اصابعه  
لمدة طويلة . يا الهي اي معنى لهذا الحديث . لماذا اتحدث هكذا ؟ الانسان حالة  
غريبة في هذا العالم . لغز . ويمر صمت . لحظة من التوجس والطبيعة ساكنة .  
لا ربح ، لا حركة . ضوء القمر ناصع فوق الأعشاب ، وفوق وجهه الأبيض ،  
والندى يتألق تحت الأشعة . ويستمر : آه . هو العمر يمضي . الزمن هذا الحيوان  
المفترس . انظر الى نفسي وانا على مشارف الأربعين فأكاد أصعق . تتتابني حالة  
جنون داخلي . ماذا صنعت خلال تلك السنوات المديدة ؟ هل يمكن ان اكون انا  
قبل عشرين عاماً ؟ لا بدّ أن الانسان حشرة لا قيمة لها .

ويبصق بفهر .

صمت آخر او هو الصمت يتناسخ . منكىء على جذع شجرة . عيناى

راسيتان فوق صفحة وجهه المغضن ، راثياً لجسده المكوم فوق عشب الحديقة .  
الجسد الذي صعقه فأضاع صواب الثورة في نفسه .  
- ضاعت فلسطين وما نحن نضيع . آه . العربي يسحقه القهر دون ان يستطيع  
فعل شيء بالنفسه .

أي ذبول هذا الذي يتم تحت الشمس . نساء . خمر . كلمات فارغة ودوار  
والعمر يتقوض . يهرم الجسد لكن الروح اقوى من الآلهة : عندما يضيق الجسد  
بالروح الفتية !  
ويقوم سامقاً عريضاً كشجرة سنديان ، ضجراً مني ومن نفسه ومن السكون  
الذي خاناه .

ثب عن الحاجز الحديدي : انظر لقد وثبنا بخفة الفهود .  
في الشارع الخالي يدندن ترنيمة بدوية مفعمة بالحنين والكآبة .  
نهضت وفي نفسي رغبة ثقيلها . امسكت زندها العاري وهممت أمرغ شفتي  
عليه . رمقتني عيناها عتاباً ممزوجاً بخوف ، ثم سحبت يدها : لا ينبغي ان يحدث  
ذلك .

من باب الغرفة مرقت كسهم وفي في مرارة . أرتجتُ الباب ثم أسلمتُ ساقِي  
للشوارع المعتمة .

مشيت . مشيت . دخنت وترنحت . ومن اقرب حانة تناولت خمرأ . ثم مضيت  
فوق الخطوات القديمة .

جيل ملتهب . يتشوق قبض العالم . يسأل محاله الذي لا يُطال : لماذا ولدت هنا على هذه الأرض الناقصة في عصر يكبح رغائب الانسان الجامحة كالمهور في فجر فتوتها ؟

وفي دمه يسري الزمن القديم جنباً الى جنب مع الزمن الذي يريد : زمن المستقبل . وفي الأجيال التي اختلطت عليها الانقلابات والثورات ولدت محاولة التوازن حالة انكسار تاريخي لا يُجبر . ومن الفرد الى الجماعة يمتد خط من الاخلاص قرب خط من الكذب والخوف والمساومة والتنازلات المستمرة . بينها سُحقت منى .

- لكن انسان هذه الأرض معرض للانذار . اقول لراني .

ويقول : أريد ان احيا . هذا عصر النموذج .

- انت لا تؤمن بالفدية ؟

- أي سؤال غبي هذا . انك تفكر كقائد سياسي احياناً .

- لماذا لا تقول كجريح ومغتصب .

- هذه مرحلة تاريخية نحن مهزومون فيها لا محالة . كل ما فيها ينسئ بذلك .

- هل توقن فعلاً بالهزيمة ؟

- أيقنت ام لم توقن فالتاريخ يقول هذا .

- انك تتحدث عن الحتمية وانت قلت انك ضد الحتمية التاريخية .

- انني اتحدث عن التكامل . عن الجيل الذي لم يبلغ بعد . الزمن الذي لم

نصل فيه الى حالة النمو الصحي . على نحو فاجعي سنندثر وحياتنا هذه تحمل جرثوم

الموت . ربما تكون تمهيداً للزمن الحقيقي ، فأنا أو من بصراع الأجيال كما قلت

لك ، اما الآن فنحن في النزاع ، ولا ينقصنا الا طلقة الرحمة .

- والحالة الثورية ؟

- هل الحالة الثورية أن نشب فوق الزمن ؟ هراء . هذه حماقة . مكابرة سخيفة . نحن جيل يعيش بماضيه ولم يصل جيل الحاضر والمستقبل بعد .  
- متى تعتقد انه يصل ؟  
- بعد ان تكتمل عصور الانحطاط وتندثر . هذا النقص في فهم الحرية والانسان . هذه الحياة القبلية الدينية ماذا تعني ؟ الانسان هنا لما يتطهر بعد من موروثه الطوطمي .

- لكن الثورة حالة جديدة تغير العالم . رجّة تاريخية تزلزل سكونية الزمن .  
- بالعنف . انظر ماذا يحدث . جيل استلم التغيير يغازل رجال الدين والتجار والبورجوازية . غارق في الانتهازية والسلطة والامتيازات والتقسيمات القبلية . هؤلاء من اين خرجوا ؟ أليسوا منا ؟ انهم يتعثرون لانهم جاؤوا قبل الوقت . في دمائهم قرون من النقص التاريخي والنفسي ولهذا فهم عاجزون عن تنفيذ مهام الثورة . انا وانت عاجزان ايضا . جيلنا جيل موسوم ومنحط . جيل خرع . هذا يقيني .  
وهو يتحدث بألم أشعر بضغط . يكاد رأسي ينفجر . أحرك رأسي الموجوع واتمنى ان يصمت راني أكاد أقول : لا تقل ذلك .  
- هذا مفرع وموئس . انه يعني النهاية .

يهزأ من كلماتي : هيا الى اميتك ياعزيزي . هيا . هناك تنام الثورة !  
شعور قائم يغلف الدنيا . احساس من رُمي في بركة وحيداً وغُودِرَ . بسمق الحصار فأوشك على الصراخ في محاولة للخروج من هذا التيه . من هذا السجن :  
اصحیح ان كون الانسان هنا معطوب الى هذه الدرجة ؟

وكمن ينحتُ باظافره صخراً من صوان ، احاول ان امد جسراً مع مني .  
هذه التي لُسَعَتْ في ماضي وحاضر الزمن .  
لكن محاولاتي كانت تبوء بفشل متواصل .

اقول لها : ليس جميع الناس سلسلة مكونة الحلقات بطريقة فيزيائية .  
تقول : كلکم يشتهي ويقتل . يضاجع ويغتصب ويحقد . بطمع ويكذب ويريد نفسه .

اقول : حتى هذا يختلف من انسان لآخر .  
تقول : جميعا . كلکم يشتهي ويرغب النوم معي . تأكلون لحوم بعضكم بعضا ثم تقتلون باسمي كذبا .

اقول : ولكن . منى انا اريد ان اغني لك في الغابات والأودية حيث لا حقد ولا كذب ولا تلوث وحيث للموت معناه . حيث الأشياء تولد بمجدية مبرأة .

تقول : سنحدر يوماً الى المدن ويعود الكذب والتلوث والاقتيال والخدائع :  
أسير في الشوارع . ادندن اغنية . يتتابني غم وانا ألمح كئاس الشوارع والحارس الليلي وصبي المخبز : الناس البسطاء الذين يقومون باعمالهم ، ثم ينامون سعداء ، ولا شيء آخر .

في العطفة الثالثة من الشارع تكون غرفتي . افتح الباب واعبر الصالون . تفتح رائحة الرطوبة والوحشة . في العتم أرتدي منامتي وعلى السرير استلقي كحيوان انهكه المسير . جميع ما مرّ ، حتى الماضي البعيد يعبر سريعاً ، مقتضباً ، مشوشاً .

[ ]

لم يجبه احد . حتى اخوته كرهوه ونهبوا رزقه ، وحتى زوجته بغضته لصراحته . كان كريماً ، وفي الحق لا يخاف لومة لائم . من طلوع الفجر حتى مغيبه كان يضرب في الأرض . صار بينه وبينها حلول وعشق ، وقبل ان يموت أوصى الا تباع ذرة تراب منها .

كان يقول : الانسان من الأرض والأرض من الانسان . دمه وعظمه وعرقه تغلّ في اعماقها فكيف يبيع الانسان دمه . انظر يابني الى لونها الا يشبه لون دماء الانسان ؟

وكان يصلي لله وللمطر وللمواسم ، وفي أواخر الليل عندما يهدأ الكون وينتهي العمل في الأرض يستلقي في الخيمة ، ويروح ينشد أشعاراً لابن الفارض والمكزون ومنتجب الدين العاني وأبي نواس ، ويحكى قصصاً اسطورية غامضة عن الأولياء وأهل التقى والمتصوفة . هؤلاء الذين كان يقول عنهم انهم يمتلكون إشراقات خاصة ، ترى ما لا يراه البشر العاديون الغارقون في جشع الدنيا وسفالتها . قدراتهم تفوق قدرات البشر لكنها دون قدرة الله . يستشرفون المستقبل لأنهم الصفوة المختارة . لقد شفت نفوسهم يابني وخلصت من كل دنس . تطهروا بالتأمل العميق في الكون فانفصلوا عن تفاهات البشر ودناءاتهم ، فاقربوا بذلك من الباري تعالى حتى صاروا أحبّاءه .

واذ يسأله : ألم يكونوا يعملون ؟ كان يجيب بانهم انصرفوا الى المعرفة وطرق

الوصول . عافوا الدنيا بكل مغرباتها فانتصروا على رغباتهم وبذلك نجحوا في امتحان الباري لهم ، ودخلوا المطلق . وبخشية كان يسأله ان كانوا يشربون الخمر فيرد بجديّة صلبة : الخمرة طريق من طرق الوصول الى المعرفة ، عندما يشرب المؤمن خمرة الله الباطنية ، تصفو ذاته ويدخل عالماً آخر لا يعرفه الا الذين أوتوا نور الكشف في نفوسهم .

واذ يرد بخوف : لكن الخمرة محرمة في كتاب الله ؟  
اذ ذاك كان ينهدُ مستويّاً داخل الخيمة السهلية المظلة على البحر ، متأملاً النجوم التي تلمع في سماء صافية : الخمرة التي يتناولها المؤمنون يا بني شيء آخر غير هذا المزيج الأبيض الذي تراه . هذه أمور خفية لن تعرفها الآن لأنك لم ترشد بعد . وفي غمرة حلولية منتشية يدندن مطلع قصيدة : « لا تشرب الراح الا مع أخي ثقة موحد عارف بالعين والميم » ، وعبر الفضاء العاري والسهول الخضراء يتماوج ذلك الصوت الصوفي الشجيّ .

[ ]

من اين أتى هذا الماضي المغرق في القدم والنسيان ؟ ولماذا أتى الآن ؟ هو كان صوفياً لانه متدين عاش الحياة من خلال ما اعتقد . عبد الله والأرض ، وسكنته القوى الخفية . وانت تؤمن بشيء آخر اسمه الانسان . والانسان مذهب ما يخلق والله حكاية قديمة جسدها العجز القديم عن تفسير ما وراء الظواهر . وانت مسكون بمنى لانها التغيير ونقيض الثبات ، ولكن منى لا تؤمن بك وتقول عنك : مسكون مثلهم بالإرث والنقص تلا الزمن عليك حكم الاعدام .

صديق قديم قال لك : اذا جاءك الأرق فتخيل نفسك على شاطئ بحر والرياح تهب ناعسة رخوة . تصور انك محمول على بساط مخملي نحو جزر بعيدة واصوات نوارس البحار رخيمة حزينة تصوي في اذنيك . آنذاك ستنام حتماً .  
لكن سامر ووائل وهدى وأيوب وديانا ومسرور وامينة وراني ، كيف بنام من يتذكرهم في جميع الليالي ؟



الوظيفة . هذا المستنقع البيروقراطي ، تغطس فيه منذ الصباح فلا تستيقظ الا وانت على شاطئ التلف . يلوث نقي العظام فيك . ومع نسخ الأيام المتشابهة تتحول كتلة آلية بلهاء مشتقة من الكرسي او المكتب . للكرسي والمكتب رائحة زنخة فقدت انتشارها من كثرة ما عششت في الخياشيم ، والداخلون الخارجون دمي تأتي وتنصرف بطقوس تشبه طقوس المصلين الوافدين الى الجوامع والكنائس في ايام الجمع والآحاد .

واحد . اثنان . ثلاثة . عدّ حتى تسقط اعياء فلن يتبدل شيء . تلف يومي . تفسخ زمني يسحق البشر ولا جدوى . استرقاق يشد آلاف المواطنين الاستهلاكيين . يوثقهم الى الكراسي والمناضد ، كأنما محكومون يُساقون منذ الصباح بآلية الأيام نحو غرف الغاز ذات الروائح النفاذة ، روائحهم .

بمرارة أضحك وانا اذكرك ان ايوب السرحان وظيفة امينة وقد أحكم ذلك الشرع الشريف ، في حين كانت زوجة سامر البدوي وظيفته ، لكن أحداً منها لم يكن يداوم في عمله .

سألت سامر البدوي يوماً : لماذا تصدعت الحياة بينك وبين زوجتك ؟

سخر من سؤالي وقال : المرأة قطعة غيار تلف من كثرة الاستعمال .

- لكن الشرع يقول : المرأة رفيقة العمر !

وينخر : بالنسبة للذين صارت احساسهم ماخوراً .

- ولكن انت الم تتزوج بحب ؟

- بلى . ولكن هل الحب مستمر كالسهم باتجاه واحد ؟

- لماذا يحدث الانحراف فيما بعد ؟

يقول : الطبيعة البشرية كالبركان . بعض البراكين تثور مرة واحدة ثم تخمد .

والبعض الآخر يظل في ثورة دائمة . الشعراء براكين ممتورة عندما تخمد يكون الموت قد

أقبل. تزوج أبي ثلاث نساء جميلات والأخيرة كان عمرها لا يزيد عن سبعة عشر عاماً بينما ناهز هو حدود الستين.

- ألم تخنهُ؟

- كان رهيباً قاسياً يتمتع بطاقة جنسية لا تُحَدِّد. رغم كبره كان يتصرف كشاب فتي. كانت مدللة يمضي في فراشها جُلّ وقته وكان يرضيها. ضحكت: الولد طالع لأبيه.

في خلاياه تمددت غبطة سرية، وفي عروق وجهه سرى الدم. دم ينسب عن فيض جنسي ووثوق وراثي أصيل.

[ ]

ذلك الماضي السحيق وحده يلوح مطهراً من الرجس. يشبه اكليلاً أبيض في ليلة عرس وفوقه تحفّق حائم بيض. وهم يسرون فوق مروج خضر ومزهرة والسماء ناصعة كبحر رائق. بذلك الحلم الذي مضى ويعود الآن، وفي جميع الأيام السود، كانوا موثقين. أخذهم ماضي آبائهم وطفولتهم التي مضت، وعلى الدروب المسدودة والمفرقة والمحرقّة. كانوا يتقدمون ببطء سلحفاة في العصر النووي المدهش.

وانا اغادر سامر البدوي بعد ان التف حولہ اناس لا طاقة لي بالبقاء معهم تساءلت: لماذا يكرر العربي مجده الغابر؟

كنت أسير في نهار دمشق تحت سماء توحى بالمطر.

وكانوا قد بدأوا الحديث عن السفر والطعام والثياب والسيارات والمنازل المؤثثة والنساء وأنواع الويسكي، ثم تشعب الحديث عن الحيات الشخصية وما مرّ في حياتهم من نكات ومفارقات وبطولات طفلية، وكان سامر نجم الحضور. تألّق الجانب اليومي وتواترت حكاياه المختلفة. استطالت حتى غمرت الموجودين. فانسحبت حتى لا أكرهه.

كان الناس يعبرون الأرصفة بمجانبة نهر يجري، واختلطت ابواق السيارات بطقات النرد ورشف الشاي في المقاهي المنشورة على ضفاف الشوارع. كان الوقت عز الظهيرة.

سرت بين الناس. وحيدا حيناً ومع سامر البدوي حيناً آخر. كيف يكون متوافقاً مع الناس ثم شارطاً لقوانينهم في آن؟ كيف يخدع بعض من احبوه وما دروا انهم مرايا عاكسة. محطات راحة للذي يهوى ركوب القطارات فلا يمل من هجراته؟ هل كان يبحث عن شيء مفقود؟

لقد قال لي في ذلك اليوم : كان ابي يطيل النظر الى المرأة . يسافر في وجهه  
ثم يمسه بليونه وشغف . احيانا كان يتعري تماما ويتفرج على ذاته لقد رأيت ذلك  
بنفسي . يومها كان في اقصى حالات التمل . وما أحب أكثر من دمشق .  
- دمشق مركز العالم . كان يكررها كآية محفوظة .

وفيهما كان يهاجر من جسد الى آخر . من امرأة الى أخرى . ولم يكن يبحث  
عن شيء . كان يفرغ رغباته فيها ، رامياً خلفه كل اللوائح والشرائع التي استنت في  
غيابه . ثملاً الى الأقصى داخل جحيمه الأبيقوري قبل ان يدهمه الموت المفاجيء .  
وفي جميع الأيام كان يبدو تعباً ، لكنه كان يولد من التعب طاقة جديدة  
للبدء بالسفر من نقطة المركز الى اية نقطة من محيط الدائرة .

واذ نبدأ اللقاء مع الحسوات الأولى للخمر ، يهاجم الضعف الجسدي في  
الانسان . يرنو باحتقار الى جسدي النحيل ويقول هازئاً : انا اشك برجولتك  
الجنسية .

فأستفزه : التجربة تثبت .

يتقزز فيهاجم : منحط . منحرف . ديوث . ثم يندحاسياً كأسه : امتصتك  
امينة ولم تترك فيك غير العظام . انظر الى نفسك أهذا جسد ابن آدم ؟  
- وهل جسدك جسد شاعر ؟ انت مخلوق لتكون مصارعاً .

ويصيح : وهل ينبغي ان يكون الشاعر هزياً شاحباً كي يحتاز مواصفات  
شاعر ؟ المهم الحيوية النفسية .

- لا . سيدي . لا . للقوة النفسية حدود . انا أرى ان الرومان من أعظم  
الشعوب . في هذه المرحلة على العرب ان يكونوا في قوة الرومان ليحرروا وطنهم .  
- يا أخي انت بليد ومغفل . هل الرومان اعظم من اليونانيين ؟

- هذا ليس عصر الفلسفة والأدب بالنسبة لنا . نحن أمة مستباحة ومهددة  
بالانقراض . لسنا بحاجة الى أرسطو وأفلاطون وكازنتراكي . اسرائيل ثكنة مدججة  
بالسلاح تذكر بألمانيا الهتلرية ، ومن اصل اقل من مليوني نسمة هناك حوالي ثلاثمئة  
ألف مقاتل على استعداد للإنقضاض علينا واجتياحنا . وانا أشك ان تستطيع الأمة  
العربية مجتمعة تجنيد مثل هذا العدد الآن .

- يا إلهي . تحدث بطريقة لا مثيل لها في الغباء . ألمانيا كان لها فلاسفتها  
وأدباؤها . نيتشه وفخته وكانت وغوته . اسرائيل ايضاً لها فلاسفتها وعلمائها . بهم تبرر  
وجودها وتقعن العالم .

- هذا عصر القوة لا عصر الفلسفة والشعر. نحن ممزقون سياسياً ونفسياً،  
مانزال نعيش على اجماد طارق والحجاج وعقبة بن نافع. هراء. منذ عصر الانحطاط  
ونحن في حالة دفاع عن الذات. لم تُخلق بعد في نفوسنا حالة الهجوم. حالة  
الهجوم فينا تفرغ عن طريق الكلمات. فتى تنتهي حالة الثروة اللابجدية هذه؟  
- على اية حال المواطن هنا لم يتشكل بعد. غير ان هذه الأمة اقوى من  
الموت والانقراض. قد تستمر اسرائيل ردحاً من الزمن، لكن اي انسان يفهم روح  
الشعب العربي وتاريخه ويحلل، يدرك ان اسرائيل بتكوينها العنصري الديني ستزول.  
- هذه الأمنيات الدونكيشوتية لا تكفي، هذا العصر ينبغي ان يكون عصراً  
اسباطيا بالنسبة للعرب، وانا افهم ان الحزب الثوري هو المسؤول عن ذلك. هكذا  
حدث في الصين وهذا ما يحدث الآن في الفيتنام.  
من سماء دمشق انقضت الغيوم وماهطل المطر. كنت قد شارفت بيت مسرور  
الكائن في حي المزرعة. شردت احلامي نحو عالم منى: كيف استرد هذه التي  
استلّت مني دونما ذنب، آنا المعطوب ام البشر الذين يحيطون بنا؟ أم هذه  
الدمشق المنزلة كسمكة من أيدي جميع الصيادين؟

- « الى اين يمضي بك اللاشعور ايها العاشق الفاسق ؟ » .

الخطوات تضرب جلد الأرض ولا تتوقف . تسير وتسير وتتقوس ثم ترتمي وتقوم . متعباً فارغ الفقرات وتتابع الجري على الطرقات ذاتها . الايقاع نفسه للأرجل والتصورات الداخلية المشتبكة في الذهن المريض حيناً والصاحي أحياناً . مع الناس ثم وحدك تحاول معرفة وحدة الانسان متمسكاً بقوة البصيرة العجز والقصور ، يسبح في بحرهما طفل تائه رمي على حوافي التاريخ بعد ان انسل من نور الماضي وسقط في ظلام الحاضر . لقد ارتبكت وانت تسير فتقوّست العظام من جراء المشي المبكر . وفي زحمة هذا التفجر الميكانيكي والعقلي ضيقت أباك . تصبح بلوعة من ضلّ طريقه في سرداب ملتوح حالك : أين انت ايها الأب القديم ؟ اعطني بصيصاً . ولا يأتي البصيص وترفض قطع جبل السرة رغم انك لا تسمع الا صدى صوتك الجريح .

وتبدو منى وحدها الضحية في هذا العالم المشحون بالعواطف الكاذبة . وبقينا كنت شبه عاجز من استرداد ثقتي بي وبالبشر المحيطين بها ، لكنني لم أكن يائساً بشكل مطلق . كنا مانزال نلتقي في بيتي وبيوت الأصدقاء خلال فترات متباعدة قبل ان ترحل . نثرثر عن الأحداث اليومية التافهة وكان هذا معذباً . فأمامها أبدو ممثلاً يثير السخرية ، وانا أرمي كلماتي وهي تدخن مبتسمة ، لاقّة ساقا فوق أخرى بينما لحمها المحرّم يتضوّأ تحت بصري . احاول إثناءها عن الرحيل لأن ذلك سيسبب حزناً وكآبة . بلا مبالاة وسخرية تنبضان من ذرات شفيتها وبريق عينيها ، كانت تجيب على شفاعاتي بهزات من رأسها الصغير ، ثم تتمدد على السرير راسمة بلفافتها دوائر ، تأملها وهي تتصاعد نحو سقف الغرفة ثم تبدد .

وأ تأملها وهي ترفع قدمها اليمنى على الجدار . تحركها ارتفاعاً وانخفاضاً كأنما تكتب برؤوس اصابعها . واذ ترفع ساقها أكثر ، ينحسر ثوبها وتحت الضوء ينساب

فخذها الوردى .

- بماذا تريد ان أشفع اليك كي تبقى ؟

تبسم : بك .

- بي أنا ؟

ونومئى وهى تمص لفافتها ثم تنفثها .

أهقه : لماذا تهزئين منا جميعا ، منى ؟

- أنا لا أهزأ من احد .

- لكنك تسخرين منى الآن !

- أبدا يا عزيزي . انتم الذين تفعلون ذلك بي وبأنفسكم .

- منى . انت لم تحسنى الاختيار . ألا تعتقد انك فقدت القدرة على

ذلك ؟

- أنا لم اختر يوما الا مرة واحدة وقد فشلت . انتم اخترتموني فيما بعد .

- خسرت مرة فقط .

- هذا يكفينى .

- لكن الرجال ليسوا نسخة واحدة .

- تريد ان تقول انك تختلف عنهم ؟

- المسألة ليست على هذا النحو الفردي تماما .

- ولماذا حدثت بشبق رجل نهم الى ساقى ؟

- لأننى رجل محروم وناقص !

- انت كالأخرين تبغى أكلى . كلكم ينشد صيده ثم يمضي .

- منى اسمح لي ان اقول لك انك مؤذاة . ربما كنت ابغى جسدك . لكننى

اريد ان تمكثى بقربى وفي داخلى الى الأبد . نحن مرتبطان بأقوى من الجسد وانت

لا تريد ان تدركى ذلك . عندما اقول لك انت شيء خاص موثق بتاريخى فى

الحاضر والمستقبل فأنا اعني ذلك فعلا . انا بدونك لاشيء . نحن بدونك ضباب .

ينبغي ان نحرق ماضينا ونتقدم فى التجربة حتى الأقصى . بدون أب بدون أم بدون

أخوة حتى ولا أصدقاء الآن . نحن بداية هذا العالم هذا ما أحسه معك أبدا .

برية وحذر تملانى ، وفي وجهها الماضى والجرح يتصالبان مع الخوف . كان

رحيلها يفرعنى . فى هذه المرة سأفقدما ربما الى الأبد وهذا يعنى استحالة بناء صلة

جديدة من هذا النوع .

في دمشق تعلمت كيف تفكر المرأة وكيف تعيش. البيع والشراء وتبديل الرجال كما تبدل الأحذية وحقائب اليد. وما كان باستطاعة امرأة ان تفرس في نفسي كما غرست هذه الطفلة التي نمت خارج المستنقع. كنت أقول لنفسي علي أن أوطئها على الاقتناع محاولاً بكل ما تبقى في داخلي من صفاء ان اشفيها من حالتها، بعد ان و طنت نفسها على العزوف عن الالتصاق بالمغامرين والانتهازين.

[ ]

بافترة عادية استقبلتني ديانا، مفسحة المجال لدخولي وكأنني زوجها أو أخوها. سألتها عن مسرور فقالت انه خرج منذ دقائق. كانت ترتدي تنورة ضيقة تظهر تقاطيع جسدها الموحى بالاثارة، وقد اکتحلت، وفي شعرها المرح المثنى حول عنقها غرست زنبقة بيضاء. - أكنت تتأهين للخروج؟

وقالت بأكذوبة بينة: لا. ثم استطردت: كنا سنذهب الى السينما وفجأة طلب مسرور الى العمل.

هبطت على الديوان، وجلست هي بقربي. اشعلت لي سيكارة وكان وجهها قريبا. وجه قمحي ناعم وشفتان تلمعان بومض شهوي. خامرني احساس مفاجيء بضم وجهها بين راحتي كفي، وان اتملاها علي اكتشف ما وراء هذا البهوت الراقد في عينيها، واذ تحركت ذراعي بتلصص نحو الأعلى، اصطدم بصرانا. بغتة رفعت رأسها وتهاوت على الكنبه المجاورة. وسألتها: لماذا غادرت الديوان؟

فابتسمت ببرود: عيناك هائجتان.

كذبت: أنا معجب بزنبقة شعرك.

- وأردت أن تلمسها. هاه؟ ضحكت.

نظرت اليها: كان عطرك مثيراً.

غنجت: عطري فقط؟

ولم أنبس.

ورمت رأسها بحركة مزهوة الى الورا ثم نفخت دخان لفافتها في الفراغ. كانت تنورتها منحسرة الان وفخذها سائبين، ولم تحاول سحب الثوب ولا ضم ركبتيها، وبدا ذلك عفويًا، وكان ثوبها الداخلي المخرم يبرز قليلاً. في

الكنبة كانت غارقة والكنبة تضمها ، تستوعبها تماماً ، والمسافة بيننا قريبة بحيث لوخطوت خطوة واحدة لصرت في حضنها . وكانت تتنفس بسهولة ، وبدا ثدياها ناهضين يخفقان على مهل وعنقها مُتلعاً . كالتمثال بدت امرأة حقيقية ، كاملة ، مثيرة ، عابقة ، متوحدة ، لكنها كالحجر هناك .

وحدث شيء آخر . تحول لامرئي بدل مشاعري . حدث ذلك آنيا كما تفجر شرارة دوئنا ضجة .

ولم أستطع رصده تماماً رغم انبهاري به . أذكر انني بُهتَ وأنا أتصور الحالة وهي تشرق في ذهني .

وكنا في غرفة النوم وهناك جثم سريران أبيضان وخزانة رمادية ، وجلست على أحد السريرين واعتقد اننا كنا عائدين وكان الغروب باهتاً ومؤسباً في ذلك الصيف الحزين ، وفي رأسي كان المثال عن امرأة رائعة ذكية وجميلة ، تحب الوحدة والشعر والجنس والبراري . وكانت هناك اسطوانة تدور بموسيقى حزينة مفعمة بالروائح والتذكريات ، وكانت الستائر زهرية ومسدلة فوق النوافذ ، واحسست طراوة السرير فتمددت فوق الغطاء الابيض المصنوع لعريسين ربما . وافعمتني رائحة جنسية لذيذة فاحت . من المخدة . كنت أضع رأسي فوق رأسها ، واذا انتشرت الروائح داخل نفسي وجلدي رغبت احتواءها . وسألتها آنذاك : أتنامان منفصلين؟ فأجابت : أكثر الليالي . وقلت : كم مرة نمت عارية معه؟ فقالت : مرة واحدة . واذا ذكر انها كانا متزوجين منذ عام ونيف . ثم سألتها : هل تجردت من ثيابك تماماً؟ فأجابت : كما ولدتني امي . واهتجت متلذذاً بالأسئلة : وكان عارياً هو آخر؟ .

فقلت : أجل .

- ومارستما الجنس؟ فأومأت . وبدا في وجهها امتعاض .

وقلت : كنت حارة ثم ابردت بعد ذلك؟ ونفت استنتاجي . فسألتها : لماذا؟

واذ قطبت حاجبها ظهرت تقاطيع صدغها : كان جسده مخيفاً . وسألتها عما أخافها في جسده فنرفزت : لا أدري .

والححت : بل تدرين . هيا قولي . فصرخت محاصرة : كان جسده مغطى بالشعر . لقد بدا كقرود .

وقلت : وكان محموماً متوثباً .



- أجل كان ذلك مخيفاً.

وبنشوة خاصة سألتها: وأنت ماذا تذكرت؟.

وقالت: لم أتذكر شيئاً. كنت كالحجر ولم أشعر بشيء. لقد مارس هو الفعل.

- وبم أحسست؟.

وقالت بضيق: بسكين تحتزني.

وارتفع صوتي: كان يغتصبك اذن. ووثبت ممسكا زندها العاري فنترت ذراعها وابتعدت: دعني. وصفعتها: أنت مريضة. وصاحت: انتم مفتصبون لا تختلفون عن الوحوش في شيء. وانفلتت هاربة في المر الضيق. وتوقفت الاسطوانة. ثم سمعت نجيبها هناك.

[]

ها أنتذا تعود ثانية. تراوغ نفسك وهذه المرأة المتأبية. رافضاً ما حدث في الماضي البعيد. تحاول الوثوب فوق الوقائع المرضية التي اعتقدت انها أحابيل لتغطية مراسيم الخيانة. لقد حدثت الخيانة في الذهن وانتهى الأمر. وذلك الرجل الذي ادرك بالخدس بعض قوانين الانسان يقول: النية تسبق العمل. هو الذي فسر الخير والشر والحلال والحرام بالشرع الشريف وما فهم قوانين الرغبة، والتزف الداخلي للطبيعة البشرية هذا الذي يقصف الاعمار في منتصفها ان لم يجد مسرباً حراً.

وفي مساء ما غالى راني برد الفعل فقال: قتل طفل ولا قتل رغبة.

قرع الجرس، فنهضت ديانا تفتح الباب. وولج البيت رجل جهم طويل يشبه رجال الاساطير القديمة. في وجهه جهامة وهيبة ويرتدي عباءة.

سلم مصافحاً اذ وقفت لاستقباله، فشعرت بكفه العريضة تسحق أصابعي.

خرجت ديانا من الغرفة لتدخل ما حمل الرجل معه من حاجيات، وبقينا وحيدين.

سألني عن مسرور فقلت بأنه في العمل ونحن بانتظاره. بين حين وآخر كنت أتملى وجهه الغضب المخدد، المعجون بقسوة قديمة.

لم يلزما وقت طويل للتعارف، وانصبت اسئلتي عليه. اسئلة عادية بدا

خلالها مزوحاً على غير هيئته، وبدوت وأنا اثرثر معه انساناً في منتهى اللطف والاستماع. عندما خرج ليغتسل من وعشاء السفر، أعربت لديانا عن دهشتي به. فقالت بانه قاسى كثيراً قبل خروجه مع اسرته من فلسطين وغمزتي أن أكون حذراً أمامه لانه زميت لا يفوت صلاة.

وقلت: أعرف ذلك. لكن لا بدّ انه يعرف أشياء كثيرة عما حدث في الماضي. فقالت: أرشيف. قاتل في الجبال في عام ١٩٣٦ وفي الـ ٤٨. وقد قتل كثيراً من اليهود والانكليز.

واذ عاد استأذنت منه. ودعته فلم يعترض لخروجي بهذه السرعة.

□

في اعتقادي انني لم أكن مريضاً. ربما كنت مخطئاً في هذا الظن. لكنني كنت واعياً نسبة عالية من حالتي. وما تبقى كان مشوشاً، وبين حين وآخر كان يعاودني وسواس المرض. يصل بي درجة ان أعرض حالتي على طبيب. ومن أطرف الامور انني كنت احضره في مخيلتي ثم أبدأ حوارى معه، وخلال الحوار كان يسألني عن طفولتي فأسرد له حوادث عادية مرت. لكنه كان يلح علي أن اتغفل أكثر واتذكر الحوادث الاستثنائية. اقول له لا اتذكر إلا هذه. لكنه كان يلح، وعبثاً احاول الابحار. يسألني مم تشكو؟ فأقول: فقدان الرضى في النفس والجسد. واذ يتسم بعذوبة من يدرك ذلك يسألني: ومن هو الراضي في نظرك؟ فاشير نحو البشر السارحين تحت الشمس، لكن الابتسامة تعود اليه ويقول: هل تعتقد انهم راضون عن حياتهم؟ لكل حالته المرضية الخاصة به. فاسأل: حتى الاطباء يا ترى؟.

فيرد بهدوء واثق: حتى الاطباء ليسوا بناجين. وبارتكاس ذاتي أعترف له بالجوع والملل والقبول والرفض وحس التميز والعادية، ثم هذا النوسان بين الأحاسيس النفسية والتوضع المادي للأشياء ثم أقول: أليس هناك تعارض بين هذه الامور؟ فيقول ان الانسان بطبيعته ملول والنفس الانسانية مزيج من التناقضات وهذا يعود الى الطفولة والتربية والوراثة والثقافة.

وافصح له قليلاً علني اثيره: ترى لماذا أرغب قضم لحم الجسد الانثوي عندما اعجز عن الارتواء منه. يفكر قليلاً ثم يقول: هذه عودة داروينية تثبت صلة الانسان باجداده أكلة اللحوم.

اقول : لكن أنا من سلالة امضت جل تاريخها في الصلوات والتحريمات وممارسة الحب في العتم بعد منتصف الليل . سلالة معطلة . شفاها بدل القبل . تحتسي الخمر والشاي ، وايديها بدل العناق والعمل انخرقت نحو العادة السرية ، وركبها امّحت من كثرة السجود . عيونها تراقب النجوم والسماء والمطر وتنتظر هبوط مطلقها منها . يا عزيزي الطبيب هذه السلالة اعماقها ساحة حرب بلا هدنة منذ العصر الذي قتل فيه طرفة بن العبد لانه هجا عمرو بن هند الملك حتى عصر الثورات المجيد هذا .

ويتسم قائلاً : علم الوراثة احتمالي . هناك بين الشعوب المتحررة والتي قطعت أشواطاً في الحضارة حالات مرضية مشابهة واكثر حدة في الاستثناء . ثمة حالات مشتركة بين الانسان لا صلة لها بالتاريخ الخاص .

واذ لا اقتنع كثيراً بما يقول ، أسرحه . أمضي في الطرقات مهلوساً بوطن حر ، بانسان يحيا بعيداً عن العقد والتشويه والمخاوف . وطن بلا خيانة . وطن حرّ وغير جائع ، وطن لا وجود له إلا في مخيلتي المهترئة .

وأنا امضي احاول التغفل نحو احلامي الآتمة والاضطهادية . مشاعري اللاشعورية نحو ديانا وسمية وكل النساء الشهيات اللواتي يعبرن شوارع دمشق ، اعربهن في ذهني دونما خوف من الشرطة الاخلاقية وآيات الله البيئات . واذ تشرق مني داخل هذا العالم المائل ، اشعر بالشفاء والهدوء .

- وهل تعتقد ان هذا كل الازمة؟

- أزمة من؟

- ازمتك .

- ماذا تعني؟

- قد يكون ابوك برجا هوى ولا خير منه لكن ...

- ماذا تود أن تقول؟

كان يحرق الآن في وجهي بكل ما في عينيه من شراسة وانتهاك .

وسأله : لماذا تضربهن قبل العملية؟

يفتعل الغياب . يضع يده على صدغه : لا ادري . أشعر بحاجة ماسة لان

أضرب . عندما تقوم بذلك تحس بانك افرغت شيئاً من قواك ولا تلبث هي أن تمنع . أحب المرأة هادئة مستسلمة في الفراش .

وكحيوان عطش دلق الويسكي في جوفه. وكانت هناك موسيقى صاخبة.  
وراح هياجه يرتفع. وسألته: هل تحب الموسيقى؟  
فابتسم باحتقار ولم يجب.

وقلت مازحاً: هل تسمع موسيقى خلال عمليات التعذيب في القبو؟  
كأنما صعق: لماذا تسأل ذلك؟

وقلت: مجرد سؤال خطر لي.

كل جسدي راح يطعنه بنظرات ذئبية وقال: هل قال لك أحد بانك انسان  
قدر وابن عاهرة؟

وضحكت: لا اعتقد. ربما سامر يستعمل شيئاً من قاموسك الجبان هذا.  
على أية حال ربما اكون قدراً بحكم التصافي بك هذه بدهية. لكن امي مع  
الاسف لم تعرف غير ابي فلم تكن لها اية أحلام وكان أبي حنبلياً في قضايا  
العرض. انتهى تقريرى. هل لديك اضافات أخرى؟  
- أنا اشك انك ابن شرعي.

ولم يكن قد ثمل بعد. وارتفع حسّ الالهانة: أنا لست ابناً شرعياً أما أنت  
فابن شرعي لهذا العصر. رجل قوي يتسلط على النساء والرجال. يملك سيارة  
ومركزاً حساساً. تنظر الى شاراتك في المرآة فتزهو وتمس بان العالم تحت قدميك.  
لكن هل نظرت يوماً في مرآتك الداخلية لترى ماذا أنت؟  
- ماذا تريد أن تقول؟

بهزء: لا شيء. محض دردشة عن الاولاد الذين جاؤوا سفاحا والذين هبطوا  
خطأ من صلب آبائهم. هذا كل ما في الأمر.

وقهقه مزدرباً: تبدو عالم نفس يا عزيزي الصرصور.

- هاه. انك ترى جيداً كيف تنظر الى الناس. هم في مراياك ليسوا اكثر  
من صراصير. تعتقد جاداً انك تحكم العالم أليس كذلك؟  
وبفوقية قال: انني احكمك شئت أم أبيت.

وضحكت مشفقاً: بل ربما كنت المحكوم ولا تدري. تحكم نفسك داخل  
غرفة مغلقة يفوح منها الرعب والجبن. فيها تمارس العابك. صدقني أن أحداً

لا يخافك خارج القبو، ويؤسفني أن أقول لك انك مهشم وأجوف وشمسك مشرفة  
على الغياب.

ودخلنا في حوار جاد. أنا على الأقل لم أكن أمزح. خيل إلي انني قد أمضي في  
التعربة حتى النهاية. وإذا رأيت عينيه ارتختا، حضرتني شفقة واعية. كنت حنقاً من  
هذا البنيان الكاذب الموشك على الانهيار. وددت القول: أن هذا خطير وقاتل!  
فأدركت ان هذا لا معنى له.

استقبلت وجه منى ببشاشة. دهمني غمة مفاجئة وهي تقول: هؤلاء هم  
أصدقاؤك. شعرت انها كتمت صفة: النهمون.

صححت لها: هذا تعميم خاطئ. ينبغي أن تميزي بين الظل والحقيقة. بين  
المبدئي والمرحلي. احكامك قاسية منى.

وفي ذلك الزمن العصيب كنا نتأرجح أنا وهي عبر تيارات جارفة، شديدة  
الانحدار، وما كان بالامكان أن نتماسك لينقذ أحدهنا الآخر. وكان النهر عكراً.  
تسبح فيه هوام غريبة بعضها جائع والبعض مهووس، والقسم الاكبر كان محمولاً  
فوق حطب طاف يتشمس وينام على الاطراف وفي الفجوات البعيدة عن  
الاصطخاب. وروت لي كيف عرفتهم جميعاً، وكيف اعتنقوها زمناً. حوّموا حولها  
وهاموا بجسدها لكنها قدمت لهم الازدراء واللامبالاة وختمت حديثها قائلة: كانوا في  
النهاية ممثلين هزلين يثيرون منتهى السخرية والمرارة.

ولما قلت: ولكنك اصبتني برذاذ احتقارهم دونما ذنب. انعطفت نحو ميسالينا  
فحككت عنها بأسى عميق. ولأول مرّة سألتني عن ابني القادم من امرأة أخرى ماذا  
سأسميه؟ فقلت بانني لست راغباً في الزواج. والحّت بمزاج جدي: لنفترض انك  
تزوجت واعطتك زوجتك غلاماً؟.

فقلت: لا ادري. سمّه معي.

وضعت اصبعها في فمها ثم نظرت نحو سقف الغرفة: آدم!.

سخطت: أنا معقد من الأنبياء.

ردت بعذوبة: آدم كان انساناً مثلنا. وغمزت بعينها اليسرى: اعني مثلك.

انفصل عن والده وجنته وماضيه من أجل امرأة. واردفت: يتزوج آدم ميسالينا  
ويبدأن من جديد كما تحب أن تعبر. ما رأيك؟.

وقلت : ولكن كيف يلتقيان؟ هي في القاهرة وهو في دمشق وبين القاهرة  
ودمشق مسافات شاسعة صعبة العبور؟.

واستطردتُ : أنت فعلاً شاعرة ذات خيال ولا أخصب منه .

وقالت بعفوية : كما التقينا . أتذكر؟.

(حدث ذلك في غروب خريفي في بستان مشجر معشب ، المكان كأنه  
ضاحية من ضواحي المدينة . كان هناك سواقي يجري فيها ماء صاف وتحت المياه  
حصى ابيض ورمادي وطحالب خضراء . وبدت كأنها قد شردت عن أهلها .  
وراحت تثب فوق العشب كظي آمن . واذكر انه كان معي بندقية صيد .  
وفجأة كأننا انبثقنا من جلد الأرض وجهاً لوجه . ودهشت . سألتها عن اسم المدينة  
فسمتها . وقلت : هل انت منها؟ وماذا تفعلين هنا؟ وأين أهلك؟ ونظرت نحوي  
عجبة من اسئلتي ثم ابتسمت . وجثونا على ضفة ساقية ، واذكر انني كنت فرحاً  
بوجودها وتأملتها . لم الملح خبث المدن في وجهها وراحت تداعب مياه الساقية  
برؤوس أصابعها . كان لحمها نقياً لا غش فيه ، وصلباً . وابتدأت تتحدث دونما  
خوف . وقلت في سري : ربما كانت هذه هي التي تبحث عنها . وقلت : لورآنا  
أهلك معاً؟ امسكت عوداً يابساً وكسرتة وقالت : ما علاقة أهلي بذلك؟ وقلت :  
نحن شريقيون . وضحكت حتى كادت تقع على ظهرها . انحسر ثوبها ، وراح نهذاها  
الصغيران يرتجان بجوية تحت بلوزتها الخضراء ، وخصلات من شعرها الاصيلي  
تسكب فوق وجهها حاجبة قسماً من عينيها المشعتين بومض غريب . وسألتها لماذا  
تضحك فنهت : قل لي . هذه ضحكة غريبة أم شرقية؟ مرت لحظة صمت . كان  
الماء الصافي يغمر بعض ساقياها . وسألني من أين أنت؟ ولماذا تحمل بندقية؟ وهل  
أنت صياد حقيقي أم تمثل دور الصياد؟ فأجبت بانني لم أتوغل في الصيد بعد .  
واذكر انها تحدتني ان كنت صيادا فعلي اثبات ذلك . وقلت : ما جائزتي؟ على  
شفتيها وضعت سبابتها . هدلت السفلى ثم مدت عنقها نحوي . فرح طاغ اجتاحني  
وخفت السقوط في التجربة . كانت البندقية في حضني وأنا افكر بكيفية التجربة  
وهي تنظر نحوي متحدية . وفجأة خفق فوقنا طيرا يمام كانا يطيران بسرعة عادية .  
لست اذكر الآن كيف حدث ذلك وبمثل تلك السرعة المخاطفة . لقد هوى  
احدهما كما يهوي حجر فوق العشب . وكنت أنزع الطلقة الفارغة بينا الطائر يمزقه  
الأم هناك ناثراً دمه على الأعشاب . واستطال زهوي اثر ذلك حتى بلغ شفتيها .  
حدث ذلك كله كالبرق ، كانت واقفة اذ ذاك على ضفة الساقية وفي عينيها سكون

ودهشة. وتحركت قليلاً نحو الطائر حملته وهو في نزعته الأخير ثم رمته الي.  
ولم تنبس. سرنا معاً فوق الاعشاب وتغلغلنا بين الأشجار ثم -رجنا من البستان وتهدنا  
في برار فسيحة. ولم أعد اذكر شيئاً).

[ ]

فما بعد حمد الدهول، اختلط الشهود بالمثلين، والصيادون بالقتلة، وعادت  
دمشق إلى سكونها القديم، تتابع سيرتها في البيع والشراء، في الضحك والصلاة. كما  
عادت منى غريبة في هذا العالم.

شيء خاص حدث خلال سني التحول والارتكاس. لقد سكتني تلك المرأة  
على نحو يقرب من العصاب، في الوقت الذي بدأت فيه انهياراتي النفسية تشارف  
حدود الرفض لجميع الآخرين.

ها أنذا أحس بهم في لحظات الصحو النفسي وهم يمضون. وأحس بها وهي  
تقبل (أبكون هذا تعويضاً شخصياً مختلفاً ضد الوحدة والخوف من الانقراض  
المرفوض). احسهم تاريخاً عابراً، حفر على جدران ذاكرتي لكنه عصي على  
اللمس. متمرد على التكوين السوي. بينما تتقدم منى بيهة موردة كالشفق،  
وهم يمضون بأعمارهم وتواريخهم الملوثة بالوحل كأنما اخذتهم غيبوبة.

(ها هم هناك مفلتون بلا ذاكرة. غارقون في مستنقع التاريخ. لقد ولدوا في  
عولم مختلفة متناقضة. عولم فردية. جاؤوا من بلاد قصية مطرودين، ملهوفين،  
مسكونين بالاحلام والمجد والظما. وهنا عاشوا بحنين لا حدود له لماضيهم وللرحم  
الذي انسلوا منه يوماً، بعد أن نسوا أن يبنوا مدن نفوسهم في صحارى مقفرة  
يحددها الانقراض من الجنوب والاعتصاب من الشمال ومن الغرب البحر ومن الشرق  
الرمل. وتحت جلودهم كل وشل التاريخ).

من ثارات الجاهليين وغاراتهم في الليالي الدامسة، وصرخات الثقي اني لأرى  
رؤوساً قد أبنعت، حتى الانقلابات الاقليمية التي تميد بها أرض العرب،  
ولد جيل الثارات المعاصر. جنس يمارس كالقتل. انقلابات. واتهامات تطعن  
كنصل خائن في الظهر، بينا فلسطين موطوءة ما تزال ترفرف في سماها نجمة داود.  
ثم تقول لنفسك: الرجل الجاثي خلف مكتبه سيد قومه، والسيدان العابران فوق  
الارصفة أحدهما أرسطو والآخر لقمان الحكيم، والذي يخترق الشارع بسيارته الفارمة  
موسى بن عمران. والفراغة يتجددون في العصر الحديث، بينا السائمة تعبر مغولة



محكومة بالنفي والخروج بعيداً عن حركة التاريخ. ولكن من أين جاءت هذه الآلهة المزورة؟.

- منى أنا لست سيداً ولا بطلاً ولا نبياً ولا فيلسوفاً. لست أكثر من مارق فقير بلا أب وبلا أم، سقطت خطأ هنا. أعبّر وحيداً قلب هذه الصحراء الملتهبة المخبونة نعثاً عن قطرة ماء.

- ألم تلتق بنبعك في الخهارات وفي جسد أمينة وناديا وتصوراتك المحرمة؟.  
- أبحث فيهن عنك.

تفهقه: أي تعويض خسيس!.

وتبدأ تحدثني عن هجرات نائية وعن أوطان لا كذب فيها ولا خيانات. مدن مغلقة بالشعر والعمل يسكنها اناس بسطاء يتسمون كالأطفال. يأكلون الخبز الناضج من عرقهم بدل لحم اخوتهم. يشربون النبيذ المصنوع من كرومهم التي زرعوها بدل دماء الاوردة. في تلك الأوطان يقطن الحب المقدس والعمل المقدس.

كانت تديننا جميعاً نحن نسل النقص والحاجات العضوية. بعد أن خبرتنا شهوراً وسنوات ولم تتغير. ويوم ارتضت دخول غرفتي بمجانبة لم أتصورها تحدث في بلاد الجوامع والطوائف، صحت من فرحي: منى أود أن أقذف بك نحو النجوم ثم اتلقاك عارية. أوسدك اضلاعي وبعدها أموت بلا أسف. ويومها تعانقنا بحرارة ما يزال طعمها في جسدي. فيما بعد أغلقت أبواب منى واستعصى علي الولوج. وفي لحظات انتهازية، وهي تقدم جسدها كحجر، كان الاحتقار يغمري فأشعر بالتساوي مع سائر الذين عبروا هذا الجسد العظيم.

يقول راني الحزين: أيام عصبية ستمر. أيام أشد حلقة من عصر هولاء كو وتيمورلنك. السبي. العربي هذه المرة. يشيل الغضب في أعماقي: نبوءتك تثبط العزائم. من أين تأتي بهذه اللوائح السود وهذه الأكفان؟ يتحدث عن العلاقات اليومية للناس. عن الكذب والصلاة والغش والأرصدة والنيمة والتبطل الذي طغى: احدهم يمضي سهرة لمدة ثلاث أو أربع ساعات وهو يثرثر عن الخضار واسعار اللحوم وآخر أنواع الطبخ، ثم ينتقل نحو الالبسة والازياء وانعدام الشرف العربي، ثم يحكي عن أسعار السيارات وغلائها بعد منع استيرادها. ينتقل بعد ذلك ليعدد مناقب زوجته وقدرتها على ضبط مصروف البيت وجودة ترتيبها للمنزل ونظافتها. تصور هذا النوع من العلاقات يتم في زمن تهدد فيه إسرائيل بسحق العرب واعادتهم بدواً إلى

الصحارى. هذا مثال من ملايين الأمثلة الأخرى. وبعد ذلك تقول لي من أين لك هذه الأكفان السود؟!.

وأقول: المواطن ما ذنبه. لماذا لا تعيىء الدولة شعبها؟ المواطن معزول!.  
- قد تكون القيادة مسؤولة. والقيادة كما قلت من هذه الامة. لكن المواطن هنا لا يهتم بغير تفاهاته الشخصية: وظيفة. أكل. سكر. رشوة. وساطة. مضاجعة. جمع الاموال بالطرق اللاشرعية. ثم شتيمة الدولة في الاماكن الخاصة. هل تضع لكل مواطن شرطياً أو موجهاً سياسياً?!

- أنا أرى أن مرحلة التحول الاولى للمجتمع، خاصة المجتمعات المتخلفة تحتاج نوعاً من الضبط القاسي الموجّه. تغيير المجتمع لا يتم بمثل هذا التسيب. نحن نعيش في مجتمع متسيب. مجتمع ما يزال محكوماً بقوانين بورجوازية من الاسفل الى الأعلى. ينبغي تغيير القوانين والتشريعات البورجوازية الدينية قبل أي شيء.

- على أية حال. تغيير التاريخ والانسان لا يتم قبل مرحلة زمنية تستهلك جيلاً أو جيلين هذا ما أفهمه عن صراع الاجيال والتصاعد نحو الافضل، وخلال ذلك لن تنتظر اسرائيل. انها متقدمة علينا مئات السنين العقلية. وهذا الزمن زمنها.  
- اسمع أنا أقول معك بفكرة الأجيال، لكن الثورة يمكنها أن تختصر الزمن. عندما تكون هناك ثورة حقيقية يولد شعب حقيقي. ويكون الزمن لها لا لاسرائيل. هذا هو قانون الارادة والشعوب.

نحو بحار أخرى ينعطف الحديث. يبدو راني فرحاً على غير عادته فيحدثني عن لينا وروايته. الرواية التي مضى عليه أربعة أعوام وهو ينحت فيها مثل فلاح يضرب في أرض مجفرة. لكنه متفائل بها رغم القسوة التي يعاني منها: من الصعب أن تنشر هذه الرواية في وطننا. هذا ما احسه دائماً. سوف تفهم بطريقة مختلفة. كل ما في هذا الوطن مؤنس ومحزن. ينقبض وهو يتناول كأسه. يحتمي منه فيعتقد حاجباه ويلوح العكر في مشيئة عينيه: لو كنت شاعراً لرثيت هذا الوطن بأبداع من مراثي أرميا وأنا أراه محمولاً على الراحات مضمخاً بالدم يوارى فينا. لقد قتلناه. نخبك ونخب الاوطان القتيلة.

بعد انقضاء السهرة في النادي الصيفي، نسير فوق أرصفة الصالحية. ننعطف باتجاه شارع أبي رمانة. يضرب راني الرصيف وحيطان الابنية برأس حدائه. يخرج شبابه وينوح. يصير الليل مرثية. ننعطف. على نعم الناي يوصلني الى بيت أمينة.

يقول : سأجلس هنا على الرصيف اغني لك وانت تنام في أحضان خليلتك  
ما رأيك؟  
اعبر البوابة الحديدية السوداء بهدوء. اطرق الباب بينما ترتفع موجع الناي في  
قلب الليل الجليل.

لقد أحب تلك السهول بالشغف نفسه الذي أحب فيه الله حتى صار جزءاً منها. حتى في الشتاء بنى كوخاً احاطه بورق قصب السكر الجاف وطيلة الفصل القارص نام فيه. وكان ينام معه على صوت الريح والمطر ودوي البحر. في تلك الليالي الموحشة روى له أموراً مبهمة عن الطبيعة والله والانسان والروح الحية في الاشياء واندماج الاشياء في حركة واحدة، وروى له أن روح الله قائمة في الريح والانسان والحجر والماء وهذه الروح خالدة لا تفتنى.

وفي جميع الأضياف كانت السهول مخضرة. أراضيها والبحر. كانت لها رائحة خاصة شديدة الجذب، واذ كان الصيد والسمر الليلي والصراع مع الثعابين والوحوش تذكر، كان اسمه يثب عفويّاً الى ذاكرتهم وهم يسمرون على حافة الساقية، يدخلون التبغ الرخيص ويتحدثون عن المواسم وعطش الأرض والاقطاعيين القساء. من الغرب يلوح الافق البحري، وبين حين وآخر يسمع زقو النورس، هذا الطائر الذي لا يتعب من النواح والسفر من الجزر الى الشطآن ومن الشطآن الى المراكب التي أوقدت مصابيحها، وراح بجارتها ينشدون وهم يرمون شباكهم وصناراتهم المطعمة.

وفي تلك الليالي البعيدة الهادئة، كان يعبر فوق السهول وفوق خيام الفلاحين، طائر الكروان وهو يغني بعدوية وحنين من فقد صديقه. وكان يسأله عن هذا الطائر الحزين الذي لا يعبر إلا ليلاً فيقول له انه يهاجر صوب الصحارى. ولا يذكر انه رآه يوماً. صوته كان يثن في أذنيه في أخريات المساء، وظل في نفسه شوق عميق لان يرى يوماً طائر الهجرات هذا.

ويسأله لماذا يهاجر في هذه الأيام فيقول: في الجزر التي يعيش فيها، تأتي طيور غريبة شرسة في مثل هذه الأيام، تحتل مساكنه وأراضيه بعد أن تقتل فراخه

وتطارده، فيهاجر خوفاً منها نحو الصحارى وهذا النواح الذي تسمعه هو بكاؤه على فراخه وأرضه الخصبة التي هاجر منها.

كانوا يتحلقون تحت الخيمة يحتسون الشاي التي أعدها لهم، يستمعون اليه في أمور الدنيا والدين بينما يتناول خمرته على مهل. ويسأله أحدهم: لماذا تركه بأنيك بالعشاء وحيداً في الليل؟.

فيجيب بثقة: عليه أن يواجه الحياة لوحده. هل أدوم له؟.

- ولكنه طفل، والقطف في الليل يزرع الفزع في قلوب الرجال.

ويقول: في قلوب اشباه الرجال. ثم يضيف معترفاً: هذا من صليبي. نسلي لا يخاف. جده قتل الذئب خنقاً بيديه وأنا قتلت الضبع بالعصا بينما البندقية معلقة في كفي. ابن الفلاح الاصيل لا يهاب الموت لأنه يعيش مع الموت.

وكانوا يعرفون تلك الحوادث، ويعرفون انه روى ذلك أكثر من مرة على مسامعهم. وعندما كان يشمل كان يُصاب بحالة من التصوف لا مثيل لها. وعرفوا عنه احتقاره للضعفاء من البشر والنساء والجناء. كان يبدو قاسياً جباراً وهو يروي لهم حوادث قديمة عن الشعراء والقديسين، ويدافع عن أبي نواس كأعظم متصوف رحماني، وكان مثاله في القوة المتنبية. واذ يسألونه لماذا يحبهم كان يتسم باحتقار: لم يكونوا كذبة مثلكم ومثل شيوخكم الحرامية، ولا جناء وتيوساً لا يفهمون من دينهم ودنياهم إلا ما تفقهون يا بُهَمَ السواحل الكسالى.

ثم يردف بصحو وثاب: ورب الكعبة بامكاني الآن أن اخلق أفضل منكم. الاقطاعيون الكلاب يسرقون الماء والأرض أمام أعينكم. يبيعونكم ساعة الماء بمئة ليرة وأنتم كالخشب المسند لا تتحركون. انظروا الى هذه الأراضي كيف اصفرت ويبست أمام أبصارنا ولا نحرك ساكناً.

- ماذا بيدنا؟ لقد اشتروا الماء من الوقف فصار ملكهم. هل تلاطم العين مخزاً؟.

وبحق: الدولة! الوقف! هذه مياها يتركونها تجري الى البحر وارضينا تحترق من العطش. بشر نحن أم حجارة؟ ونحن لو فينا ذرة دم لتحركنا. أنا اشارط اذا كان الدم يجري في عروقكم.

ويقول أحدهم: وماذا نفعل يا شيخ عبد الله؟ الاقطاعيون معهم القانون ونحن ما معنا شيء.

- معاولنا تشق الصخر فلماذا لا تشق رؤوس الاقطاعيين ومن معهم؟ الانسان لا يموت مرتين. نموت اليوم لنولد غداً. الحق يؤخذ بالقوة والفلاح يظل مسحوقاً حتى يثبت انه قوي.

واذ كان يشرف على ربع السهاري والخيمة، من وراء التلال القريبة، ويرى الفوانيس المعلقة، يرحل خوفه فيكف عن الغناء. يشعر بأنه قوي فيقول في سره: أين أنت يا ضبع طريق السهول الذي أفرعتني أمي منه؟ وكالرعد يأتيه صوت أبيه، كأنما حدس بقرب وصوله، فيرد بقوة من اطمأن الآن: ها أنذا!.

- هيا يا شبلي هيا. أنت خائف؟.

- لا... لا. أبداً. مازقاً صمت الليل. يحس لصوته رعشة قادمة من صميم القلب. اذ ذاك ينظر اليهم شامتاً. يحتسي جرعة من كأسه ثم يقول بعنجهية مخمورة: هذا الشبل الصغير عندما ينمو سيبي بناتكم ويدمي أولادكم العمش. بصمت يرنون الى وجوه بعضهم البعض. يهزون رؤوسهم وفجأة ينفجرون بالضحك.

من الطرقات البرية الضيقة المزروعة بالغبار والشوك والحجارة، الى شوارع الصالحية وأبي رمانة والمهدي بن بركة. ومن الضواحي الفسيحة والازقة المسكونة بالحرية والوحل ورائحة العشب والتراب، الى ضفاف الارصفة العامرة بالبيوت الفخمة والفنادق والمقاهي والخمارات وأوكار النساء.

كذلك الحال من انطاكية وصفد الى بؤرة الثورة: دمشق الحبيبة، المتألقة، الثملة، الوضاحه، العاطية، فردوس الحالمين بالمجد والخلود، اختلط العالم واشتبك الوهم مع الحقيقة.

سطح حياتها كان يبدو رائقاً. وخلال لقاءاتنا لم يكن هناك ما يوحي بالقلق. لم تكن تمضي دقائق إلا ويضحك مسرور على نحو يوحي بالسكينة النفسية، واذ ذاك كانت مراسم البلاهة تتضح. كان وجهه يوحي بهذا الانطباع، بينما تتسم حركاته بارتباك ظاهر، تكاد تنبيء عن خشية باطنية من وجودي.

سألها: أيقار مسرور؟.

فردت هامسة: من الطير اذا عبر فوقى!.

- أخاف انه يقار مني؟.

- لا أعتقد.

- سأقول له ذلك جهاراً!.

كان مسرور يبدو فرحاً بهذه اللعبة. لم يكن يصدق انه اصطاد سمكة رائعة وان هذه السمكة له وحده وانها هنا في اناء تحت بصره. واعجب ما كان يثير الدهشة فيه انه لم ينس يوماً بحرف عن فلسطينه التي هوت.

واذ دخل جبهته: غازلت ديانا في غيابك. ببلاهة مبتسمة يرد: خذ حريتك. أعرفها اكثر منك لا تعذب نفسك. نصيحة أخ لآخيه لا تعلق.

- لكنك تركها وحيدة وأنا آتي في غيابك.

- يا جبل ما يهزك ريح.

- نمشي ساعات في الليل وأنت غائب.

- تسرد لي كل شيء.

- يعني رابط حقك بجميزة؟.

- الراعي وحده يعرف النعجة الجرباء من الصحيحة.

- أنت حر. لقد أعذر من أنذر. اذا ندمت يوماً لا تقل طعنوني في الغفلة!

كانت ديانا تبسم خلال الحوار، وتدخلت أخيراً: لا تهتم مسرور، هذا انسان فضائحي بالكلام فقط. لقد حاول لكنني صددته. وغمزني لترى رد الفعل. وانتبه مسرور نافرأ: ملاعين. أتعلمونها في غيابي. ديانا. نحن اسلام هاه، وعند الحزة رقتك تُحز. وهرهر ضحكة صفراء.

وقلت: لا تغطها. بيئت. يعيش التقدمي الثوري المعاصر. يا...

واشتركتنا معاً في الضحك.

[ ]

في مساء ذلك اليوم قال الرجل التاريخي والد مسرور هازئاً مني ومن مسرور الغائب: أهذا جيل يحزّر بلداً؟ هذا جيل نساء وفليئة وحكي.

كنا نجلس في ساحة الدار. وكان هناك عشب وجدار مرتفع وديانا تتشع بغلالة شفاقة ممددة على كرسي من قش، مادة ساقيا العاجيتين. وفي وجهها حزن خاص.

وتابع الرجل القديم الجاثي قربي : عبد الله خان . هاه ! قاد جيوش العرب  
ثم طعنهم في الخلف . طيب آمنة . اخواننا هؤلاء الذين زحموا الدنيا بالاصوات  
والتحرير لماذا لم يحرروها . اسمع أقل لك ؟ شهاب الدين ... عيب نكمل في حضور  
الحرمة . بدا نزعاً وهو يلوح رأسه بيأس . في جبينه بان غضب وراح يهاجم بصراحة  
مدهشة . بصدق من جرحته المأساة وخيل اليه انها اندلعت وهاهي الجراح تفتق .  
حكى عن المآسي التي وقعت والمذابح والمؤامرات والخيانات وحرب القسام ضد  
اليهود والانكليز . وقال انه عصي في الجبال شهوراً وحاول الانكليز أن يرشوه ليكف عن  
حربهم ، أعطوه مرتباً لكنه استمر في مهاجمة المصفحات والدوريات ببندقته التي  
استولى عليها من العصابات اليهودية ، وكانت معه «شبرية» ذبح بها ضابطاً انكليزياً  
برتبة كومندان . كان الانكليز يتقدمون نحو القرى والجبال بحثاً عن الثوار ووزاءهم  
الدوريات اليهودية . كانوا يسلمونهم فلسطين قبل خروجهم . واذ كانوا يفشلون في  
العثور على المجاهدين ، يهاجمون القرى الآمنة يدمرونها ويذبحون الاطفال والنساء كما  
ذبح النعاج .

وسأله : لكن الارض لماذا بيعت ؟ .

واحتد : كلكم يسأل عن ذلك . الذين باعوا الأراضي عائلات اقطاعية  
هاجرت من سورية ومصر ولبنان كآل سرسق وغندور وسلام والحلي ، أما الفلاحون  
فلم يبيعوا شبراً واحداً ، لقد أرغموا ودُفعوا على الهجرة بالقوة . قُتل من قُتل وطُرد  
الباقى . أنت لم ترَ الارهاب الصهيوني والمذابح ومعسكرات الاعتقال .  
وفجأة كشف عن صدره : انظر . واراد أن يكشف عن ظهره فاستحيا . ولاح  
صدره ممزقاً بأثلام عميقة بدت وكأنها التأمت لنفسها . كان الآن في قمة غضبه  
وقهره .

وسأله : لماذا استسلم ؟ فقال : لقد طوقوني ولم يكن معي خرطوشة وقد تشتت  
شمل الثوار . ثم أردف وهو يزورر جلبابه : في الماضي كان يوجد رجال أما الآن .  
هه . أين الرجال ؟ يا ابني عمري الآن ثمانون عاماً . اعطني بارودة من هذه التي  
تسمونها «الكلاشينوف» . لا ادري ما اسمها وسوف ترى . في الـ ٣٦ حاربنا بينادق  
من حرب الـ ١٤ من أصل خمس طلقات واحدة تطلق ، وبعد أن تحمي تشلح  
الرصاص على بعد متر .

وقلت : لكن هذا العصر لم يعد عصر البنادق . أصبحنا في عصر الصواريخ  
والنابالم والمخابرات .



فانتزق عاقداً غضبه : ماذا يفيد كل هذا أمام شجاعة الرجال . في كل العصور الرجال هم الأصل . صرنا في عصر الحریم يا ابني . المرأة هي التي تأمر الرجل والرجل ينفذ .

انجلت غمة ديانا فحاولت التدخل : ما دخل الحریم بفلسطين؟ انت رجل خرف لا تدري ما تقول ! .

نظر نحوها ثم تحول الي : اسمع كيف تخاطبني . أنا كجدها وتحدث معي هكذا . فكيف اذا ما خاطبت زوجها . أهذه زوجة؟ هذه فرعونة أجازنا الله منها . المرأة في زماننا اذا ما تحدث الرجل تصمت . يقول لها موتي تمب . أما الآن فالعياذ بالله . اجرنا يا رب العالمين من هذا الجليل . وتمم وهو يدرج لفافته : لا بد ان القيامة على الابواب .

كان الألم منشوراً على مجباه ، بينما حاولنا مشروع ابتسامة أنا وديانا على كلمة فرعونة .

□

هو الحزن ثم اليأس ، يزحمان نفساً قوية كالتيار ، متوهجة كالغضب ، عندما الزمن يأخذ بعقل كل الانفعالات ، محولاً الرجال المتأججين الى مجرد خرق مرمية في جبانة التاريخ . غير انه مكابر يحاول أن يخترق الزمن ويخطو . ومذ تشوش ذهن العربي احتفى بردود الفعل ، وطعن أخيه ورمي الخسائر في ظهره ، ما عاد هو في هبوب الزمن . ويقول محسوراً رافضاً : لست المنهزم . انما انتم الذين أوقفتم دائماً اطلاق النار عندما توقف العقل عن حيويته . وعندما تحولت الشجاعة الى تعويض صاحب ضد الاستعمار والاستراتيجيات والتحضير الثوري الطويل الأمد .

وهم الآن يقهرونك لأن دفة التاريخ بيدهم . وأنت ضعيف وفقير في هذا الوقت ، تسكن الطوابق السفلى في حين يسكنون الطوابق العليا . يقولون للأشياء : كوني تكن . والذي يحصد خسران الوطن أنت ، وبك أيها المخدوع الصغير تتمسح كل هزائم التاريخ ، والذي قاله سامر البدوي عن روح الشعب صحيح . لكن الشعب كما قال راني غائب . وروح الشعب تسكن في الالم والتحدي . ولكن هل في تاريخ العالم ما هو أكثر ألاماً وتحدياً من هذا الذي يحتاج وطن العرب في هذه الايام العصبية؟ وحتام تنتظر هذه الروح حتى تخرج من منفاها؟ وهل ثمة لعنة مست تلك الروح فارتجت دونها الابواب حتى كادت تحتق؟ .

ولأن تلك الأم كانت قاصرة وغبية كان يحتقرها. كانت حكاية النسل تعذبه. ولذا منذ بدأ يحسن المشي فصله عنها. كان يرفض أن يكون من نسلها الغبي القاصر. ولينشئه على هواه، روى له حكايات عن الصيد والقتل واختراق الوديان والليالي الثلجية. كان يصطحبه معه بعيداً عنها الى البراري والسهول، ومنذ بدأ يعرف التسديد اشترى له بندقية ودربه كيف يطلق النار على الطرائد، وكان يردد على مسامعه: النساء كالافاعي اسحق رؤوسها جيداً.

انه يتذكر الآن بوضوح كيف كان يضربها بكل قسوة ووحشية، بينما يتمزق ألماً اذ يراها مكومة تحت جسده المنحني. قبضته تنهال عليها بلا شفقة، وعيناه تبرقان لاهثاً كحيوان طعن للتو.

يجسده الصغير يحاول أن يحميها، وهو يبكي والضربات تنهال فوقها. واذ يتوقف، يسب ويبصق ثم يخرج الى أقرب خمارة لينفث ما تبقى من غضبه. في ذلك الزمن العميق المنسي، كان الصدع يبدأ شعيراته الأولى فوق زجاج النفس، وبين الشعيرات كان الخوف والمقت، يرسمان معالم تهشيم الماضي والصلة المقطوعة بينهما.

وفي يوم قانظ طارد أفعى في حقل الذرة فقتلها قبل أن تصل وكرها. أفعى سوداء اصابها في وسطها فانثلت وراحت تتمللمل بوجع مادة لسانها الاحمر. بوحشية ضربها على رأسها مرة ومرة ثم تناول حجراً هرس به رأسها حتى خمدت لكن ذيلها بقي يتحرك. وتذكر كلمته بان حركة الذنب لن تتوقف حتى يطلع القمر.

بعد ذلك أمسك بذنبها وقاسها على جسمه. كانت أطول منه. سحبها الى السياج المجاور للخيمة ونشرها فوقه كقطعة جبل فبدت كأنها لم تمت. يومها وهو يعود الى ظل الخيمة شعر بخوفه وقد انكسر، وانه الآن رجل في نظر ذلك الفلاح القاسي الحكيم.

جيداً كنت أعرف تاريخها من الجميع . ويوماً ما لم أسألها عن التفاصيل .  
لكن أحزن الأشياء تخيل كل واحد منهم انه ما زال يحبها في الوقت الذي يخونها  
مع كل مشرق ومغرب شمس .

لقد تجاوزت حزنها حتى الاهمال ، وكانت تنبئ عن ذلك بقولها : الأوفياء  
الخونة يتحدثون عني في مجالسهم كسلعة في سوق النخاسة . يتاجرون بي ليستمروا .

وفي تلك الأيام تحدثنا بجملة عن العلائق والزمن . وقالت بأنها كتبت قصيدة  
رمزية عنوانها الفصول . وقلت لها اقربي لي شيئاً منها . وبسخرية مرة قرأت المقطع  
الأول :

« في الخريف تبدو الاغصان جافة ،

كذلك الأرض

وفي الصيف تغور الينابيع تحت جلد الأرض

وإذ يقبل الشتاء تشتعل الذكريات

وتنبثق

لكن الربيع يظل خديعة كاذبة لها روائح

سريعاً ما تبدد .»

وسألتها : هل تدركين جيداً ماذا تكتبين؟ .

فردت : لست ساذجة كما تتصور . كل ما في الامر انني احاول بالشعر التعبير  
عن ألمي المكبوت . وقلت : بان حالة الشعر عندك فطرية لا واعية بحاجة الى شيء  
من الوعي . تعابيرك تتسم برومانسية ذات طابع طهري والعصر الذي نحياه عصر  
متأرجح .

وقالت : قد أكون مثالية . لكن قل لي : ماذا يكون الانسان بعد أن يفجعه الواقع ؟.

- شيئاً آخر غير الارتداد الى النفس والدوران المركزي حول الذات .

- مغامرة أخرى ؟.

- أبعد من المغامرة .

- لكنني ابتليت بالمغامرين . هل أعدّهم لك ؟.

وقلت : لا . أعرفهم . ما قصده حالة جديدة من الصحو والاستيقاظ أبعد من السلبية واللامبالاة وعشق الذات .

وقالت بغضب : عشقت وعشقت بما فيه الكفاية ، حتى صرت مومساً على شفاه هؤلاء الناس . في جميع الفصول خبرتهم وماذا كانت النتيجة ؟ ابنة مرمية في الجنوب وزوج قتيل ثم عشاق سكارى ونرجسيون يبحثون عن ملذاتهم ، سفلة وسفاحون غارقون حتى رؤوسهم في امتيازاتهم . وجوه متشابهة . كلمات متشابهة . ساحات حرب . زيف . كذب . ضوضاء . بيع وشراء . وبعد هذا تسألني عن الحب العفوي . الحب النابع من القلب ؟.

كالريح تعبر البحيرات ، مكونة خلال هبوبها أمواجاً . كالبط يهاجر موسمياً من مناطق الدفء نحو المناطق الباردة ، هكذا تبدو رحلة العبور فوق دمشق المسحورة : وطن منى والخيبات .

وغير الروائح ، غير الماضي المورق بالحزن ، وغير العجز ، لا يبقى خلال هذه الرحلة .

هوذا المطر . شوارع مبتلة وشجر عارٍ إلا من الأغصان الشبيهة بالأضلاع ، تشفّ تحت المطر المضاء ، وفي الذاكرة تذكرات تمضي . صور وأطباق للحظات عبرت لا تعود . حزن باتساع هذا الفضاء ولا شيء آخر . وعن الفرامل تُرفع الأرجل فتمضي سيارة وائل ، والزمن القاتل هو السيد بلا منازع .

كان مضيئاً مثيراً للشجن في تلك الليلة الممطرة . المسّاحتان تتحركان بآلية رتيبة مضجرة . مُسهبان فوق إسفلت زلق على طرفيه أشجار . وكعادته كان موثقاً بماضيه المستلقي في قرارته . في ذهنه مليون حكاية حدثت أو هو مستعد لاختراعها ليثبت أنه شيء خاص متفرد في هذا العالم . وما كان في ذهني أي شيء إذ ذاك يستحق الاهتمام .

وخرج عن صمته . تحدث عن القذارة والخيانة والجنس كيف يسد بوابة الإبداع في الإنسان العربي ، ثم السياسة تفریباً عن حالة الجنس المحترقة . كانت سرعة اندفاع السيارة أو تباطؤها بتناسبان مع الحالة الشخصية . وبدا مدركاً على نحو غوغائي القصور العام للأشياء ، لكنه لم يستطع أن يوضح ذلك . تناول الحزب والدولة والإنسان وقال : لا جدوى من كل ما يحدث . يبدو أننا مكدوعون ومسوقون كسائمة في تبه ليس له تخوم .

وسألته : لكنك تستمر وأنت تدرك ذلك ؟ وإذ فجأه السؤال ابتدرني :  
ما العمل ؟

وحوم في الذهن السؤال : من القرية إلى دمشق ومن دمشق إلى القاهرة ،  
ومن حطين إلى عصر الانقلابات الصاخبة : ما العمل ؟

كان الجواب غامضاً بقدر ما هو واضح . ممكناً بقدر ما هو مستحيل . ولوهلة بدا وكأن العرب بانتظار معجزة كتلك التي حدثت يوماً في صحرائهم في الزمن القديم . لكنها لن تكون سماوية هذه المرة .

وسألني : جيلنا هل يستطيع ذلك ؟

- في أي جيل إذن ؟

- ربما في جيل آخر سيأتي .

وتحرت رافضاً أن أكون ضحية . وقال : نحن ناقصون .

وقلت : يمكن سد هذا النقص . لسنا أكثر نقصاً من الصينيين .

وقال : حتى يسدّ هذا النقص نكون قد مضينا .

وقلت : عندما تكون هناك ثورة تحدث المعجزة . ينكسر زمن ويبدأ زمن

آخر .

تأفف : إنك تتحدث أبداً عن الثورة ، ما هذا الذي نحن فيه إذن ؟

قلت ساخراً : وما قتلوه وما صلبوه لكن شُبّه لهم ! .

[ ]

جدّ جدّ جدّه ، هزم الرومان والصليبيين والأتراك والاطليان والانكليز والفرنسيين .  
- والأميركان والصهاينة . هل يخرج لهم خالد وصلاح الدين وعمر المختار وعبد القادر

الجزائري وحسن الخراط من القبر؟

ومن محيط الوطن إلى خليجه ، كان البسطاء يدركون كيف يمكن أن يُهزم الغزاة ، لكن القليل من المنتظمين لقيادة العصر والإنسان كانوا يدركون أين يمكن سوس الإنقراض !

وهؤلاء بالذات ، كانت حبال السلطة قد أوثقتهم وحرمت عليهم تخطي الحدود بغير جوازات سفر موقعة من المؤسسات التي اخترعوها لتكون السد بين العربي ووطنه . لقد انعطبت ذاكرتهم .

منذ سبعة عشر عاماً وهو ملقى . قعيد البيت منسي . مسجى على فراش وثير ، حاملاً بين ضلوعه المطعونة كل الحزن وكل القهر وكل العجز .

- وائل ...

ويهرع إليه . يسأله : من معك ؟

فيجيب : صديقي شبلي .

- دعني أراه .

ويطلبني .

ولأول مرة في حياتي أراه . غمرة من الرهبة والجلال والحزن العميق تنتشر في داخلي . جاهداً يحاول النهوض ليسلم فأرجوه ألا يفعل .

أحس بقبضته القوية تجمع أصابعي تكاد تحطمها فأسحبها . ويطلب إلي أن أجلس قربه .

المطر يزرخ في الخارج بخفوت يثير الوجد ، والرجل الذي بدا صحيح الجسد وهو ساكن ، يتسم ويسألني عن أحوالي وصدائقي مع وائل وأحوال الوطن . باقتضاب أجيب وأنا أتملى وجهه الخابي الوميض وعينيه الواسعتين وشاربه الكث و صدره العريض .

كان نصفه الأعلى مرفوعاً قليلاً يستند على مكدتين بينما النصف الأسفل ينساب تحت اللحاف ، ومن طرف خفي كنت ألمح ذلك النصف الميت .

من السرة حتى الرأس كان يتحرك ، ويتحدث بحوية رجل صارع الحياة وما خاف العواقب . وقال بمرارة : لكن الإنسان يقع أخيراً كما ترى . الجسد يخون الإنسان في النهاية .

وسألني إن كنت قد خدمت في الجيش وفي أي مكان ، فقلت بأن خدمتي كانت في القطاع الشمالي من الجبهة . شعرت بنظراته تخترق جدران الغرفة ، بينما لاح في وجهه ظل من أسى قديم . وقدم وائل ومعه القهوة . وقال لوائل : دخن . دخن ، وقدم لصديقك مع القهوة . وقال وائل : لا عليك بابا .  
والح عليه أن يدخن ففعل محرّجاً وقدم لي ، ودهشت أنه لا يدخن في حضوره .

لم أكن أدري كيف أثيره ليحكّي لنا شيئاً من ذلك الماضي الذي عاشه في معارك حية ، رغم أن وائل حدثني قليلاً عن ذلك وفي كتب التاريخ والبيانات السياسية قرأت حتى أتخمت .

وقال وائل : بابا . صديقي يعرف عنك قبل أن يراك !  
وهز رأسه دهشاً : وماذا يعرف؟ وقلت بسرعة : أنك أحد أبطال فلسطين .  
وقال : بل قل أحد الضحايا .

ومهمت : الضحية بطل مزدوج .

وهز رأسه : ولكن ما الفائدة !

وسألته : هل تعتقد أن فلسطين ضاعت بالخيانة أو الجبن وهل تعود؟

وبيطء رفع نصف جسده . لم يكن ينظر إلينا عندما بدأ يروي عن بداية الحرب ، والتقدم المتواصل بلا مقاومة من جسر بنات يعقوب إلى كعوش ونجمة الصبح حتى صفد . حقول الألغام تفجرها أجساد الرجال . أصوات : الله أكبر يا فرسان العرب النصر لكم تقدموا فاليهود يفرون أمامكم .

كانوا يخلون القرى والزحف مستمر . كنت قائد فصيلة مشاة ، والأسلحة قليلة وكذلك الذخيرة ، لكن عزائم الرجال وإيمانهم كانت من فولاذ . بنادق من مختلف الأصناف . خناجر وبواريد صيد وفؤوس لكن كان هناك رجال بالمعنى الصحيح يأكلون الأرض ويخيفون الموت .

كان يضغط على الكلمات محرّكاً قبضته أحياناً وفي عينيه بريق ولدته الآن ذكرى المعارك . وروى كيف دخلت الجيوش العربية في أيار من ذلك العام الأسود .

العام الذي أصبح تاريخاً كعام سقوط القسطنطينية وبغداد، وأن دور المجاهدين أصبح ثانوياً بعد دخول الجيوش العربية.

تفاءلنا. أصبح النصر مؤكداً. أربعة جيوش بدأت زحفها من أطراف فلسطين وقائدها الأعلى الملك عبد الله وقائد العمليات كلوب باشا. وتواردت الأخبار وانتشرت بأن اللقاء سيتم في تل أبيب وانتظرنا. وكانت النتيجة ما حدث. وبدا الآن حزيباً منهكاً. طلب لفاقة فأشعل له وائل فزفر الدخان بغضب. عندما كان يحكي لم تكن له ملامح مميزة. وجه حزين ومقهور، وبصعوبة كان يتحرك. وخلال ذلك كان وائل صامتاً كحجر يعصر يديه ببعضها البعض، زافراً تنهداته مع دخان اللفائف التي استهلكها، ومظم الوقت مطرق نحو الأرض وسأله: لكنك لم تجبني تماماً عن سؤالي. أعني الجبن أم الخيانة؟ وقال بوثوق: كنا بحاجة إلى فصيل انتحاري عندما اصطدمنا بحقول الألغام ولم تكن لدينا كاسحات الألغام. كان لا بد من شق طريق للجيش المتقدم عبر هذه الحقول. تصور أي نوع من الرجال كان أولئك الذين تطوعوا وهم يعرفون انهم سيموتون. بالرتل على عرض متر كانوا يتقدمون. اثنان اثنان على خط متواز. وبدأت الانفجارات وشظايا القتلى تتطاير مع أصوات الله أكبر. هذا ماذا تسميه؟

- بسالة خارقة ولكن هل هي منطقية؟

وقال: معارك بيرل هاربر وانقراض الطيارين اليابانيين على الأسطول الأمريكي في الباسفيك منطقية أم لا؟ ثم هل كان لدينا كاسحات الألغام في ذلك الوقت ونحن بأمس الحاجة إلى خرطوشة؟

- لكن كانت هناك فوضى لا مثيل لها. لقد خيضت تلك الحرب على غرار حروب الجاهلية القديمة. الحرب لا تكسبها الشجاعة فقط.

ورد: هذا صحيح. لم يكن هناك تنظيم. كنا نقاتل بفصائل وكتائب لا ارتباط بينها. ولكن كانت هناك الخيانة والأسلحة المتخلفة والفاسدة. كانت القيادة العليا متواطئة مع الإنكليز واليهود. فكلوب باشا سحب قوات الجيش الأردني التي كانت مرابطة في اللد والرملة بحجة الهدنة الأولى التي تمت في (١١) أيار، قبل عشرة أيام من الهدنة لئيتيح لليهود فرصة التأهب لاحتلالها. لكنه أخلف



وعده عندما استؤنف القتال في (٩) تموز فسقطت اللد والرملة. وكان القصد من ذلك تنفيذ أوامر الملك عبد الله الذي أراد توسيع حدود مملكته على حساب تقسيم فلسطين مع الصهاينة، ولكي يحقق ذلك لم يسمح للجيش العراقي بالتدخل، فبني مجدداً حتى غادر فلسطين. وتحققت هزيمة الجيش المصري بعد تسليم اللد والرملة حيث انكشفت ميمنة هذا الجيش. كما سحب عبد الله الكتيبة الأردنية التي كانت ترابط في النقب ففتح بذلك الطريق أمام الصهاينة ليحتلوا العقبة، وعلى هذا النحو عزل الجيش المصري في منطقة الخليل وقام سور من القوات الصهيونية بين مصر وما تبقى من الضفة الغربية، لقد عرف الصهاينة تطلع عبد الله لحكم المنطقة الباقية من فلسطين، وطلبوا منه المثلث مقابل اعترافهم بالوفد الأردني متكلماً باسم الجيش العراقي في مباحثات الهدنة برودرس، وقد قبلت الحكومة الأردنية بذلك. وهكذا استطاع الصهاينة البقاء في القدس واحتلوا اللد والرملة وتوسعوا نحو الجنوب فاحتلوا العقبة بعد النقب. خلال أيام تمكنت الجيوش العربية من احتلال القسم الأكبر من فلسطين، لكن هدنة الخيانة أضاعت كل شيء فيما بعد. أنتم تعرفون ما تبقى. وبقسوة سحق عقب اللقافة في المنفضة.

كيف تذكرت منى. ووالد وائل الأسدي يسرد التاريخ الأسود، لا أدري! كان المطر ما يزال يهمني، وجو الغرفة مغلف بالدخان والأسى العميق، وتنهيدات وائل المقهورة تصاعد بين حين وآخر.

عدلتُ عن سؤالي الأخير: هل تعود؟

وأنا أرى منى منفية عن دمشق، ووائل يضرب بعنف وجوه وصدور ورقاب الرجال. والنساء على السواء دون شفقة. وإذ خيم الصمت وثبت إلى مخيلتي صورته محمولاً فوق محفة نحو مركز إخلاء الجرحى، ثم حضر وائل.

لم يكن يسمع صراخهم. وجهه قان مهتاج. والوجوه والصدور والأرجل تشنج ثم ترتعش ثم تسقط اعباء وأحياناً تودع الحركة إلى الأبد. جرحى ومشوهون وموتى. خرجوا من تلك الأقبية المظلمة. بالأكف والعصي وأشرطة الكهرباء والأسياخ المحماة، ضربوا. وكانت أصواتهم تتخامد وتمتصها الجدران. الحجاب يحدتهم الذين أذلهم رعب ما يحدث، سمعوا الصراخ. وكان هو هناك على كرسيه لهزاز بين عشرات معدات التعذيب وآلات التسجيل والهواتف والأرائك المريحة،

يدخن ويحتسي الويسكي ويسمع الموسيقى ، كان هناك بوجهه القاسي المعجون  
بالفطرسة ومرارة الماضي . لا يعرف الابتسام أبداً .

كان الإتجاه الآن شوارع المدينة التي لم تُرتدِّ بعد، أسفل قاسيون حيث يفترض الأمان من العيون. وما كان أحد ليصدق أن فرق عشرين عاماً بين كل منا نحن الثلاثة يعني الأمومة أو الأبوة. وعبر الشارع الخالي بدأت سمية تنط كأرنبة اجتاحتها فرح آمن.

نلج شارعاً آخر خافت الضوء مسيجاً بالياسمين والخلو الإنساني. في الظلمة نحاذي عرائش الياسمين. أمسك أصابع يدها اليسرى. أضغط فتضغط وبهزني وجع جسدي، فأهفو احتضانها في هلام الظلمة مثاراً بعبق الياسمين. سمية تقبل واثبة امامنا فتتحدر ذراعي عن خصرها. تقطف زهرتين تناول أمها وتناولني. تنفج قربنا: سنسمي هذا الشارع... ماذا ماما؟

وتضحك أمينة. ترفع كفها خبتاً: لا أدري. سمّه أنت! وتضغط أصابعي فأقول: شارع الروائح. يفتر ثغر سمية فتقول: لا. شارع العشاق. ثم تقفز مبتعدة. الشارع ذاته سرنا فيه. في هذه النقطة حاولت تقبيلها. كنت أرتعش من الخوف وضوع الياسمين وذكريات منى. أذكر أنني أوقفها قرب هذه العريشة، ورحت أتملى وجهها الناعم العذب وشفيتها المندفعتين بتحدٍ سافر نحو الأمام. كان خذاها بين راحتي كفي. وعيناي مثبتتين مباشرة في عينها المتقددين في الظلمة، وكان نحرها يلمع تحت انعكاس الرغبة. وفي تلك اللحظة كنت أحبها، وفي تلك اللحظة لم تكن هناك خيانة. فقط كان الخوف من شيء مجهول سيسبب ألماً في المستقبل. كانت بشرتها حارة تحت أصابعي، وثدياها يرتجفان خوفاً وشهوة وتوجساً. وتمنى كل منا أن يحدث ذلك الشيء الخاطف العذب. وفي تلك اللحظة تبدت عاشقة باستسلام لا صفة له. كان كلانا يرتعش. وكان تعارفنا طفلاً لم يعرف الملامسة بعد. بدونا كأنما نولد في هذا العتم الخاص. وتمنى كل منا لو يعود سنوات إلى الوراء. يدير

عربة الزمن نحو الاتجاه الصحيح . كنا صامتين في مدار الزمن . وفجأة سرنا كما قبل  
الثواني التي عبر فيها هذا البرق ، وبيننا مشى الحزن .

ها نحن قرب سفح قاسيون ، أمام حديقة نفتش عن مكان للتسلل داخلها .  
أطلب من سمية أن ترصد حركة الحارس الليلي . تقول سمية لنشب فوق السياج لكن  
أمنية تحس بالخرج . . وتتوقف .

دمشق تحت أبصارنا . مرج من الضوء المملأ والسطوح الحجرية . أقطف زهرة  
أناؤها أمينة . تشمها ، ثم تقبلها . وبخو عاشقة تنظر نحوي وتتأوه . أرفع بصري إلى  
وجهها المغضن وجسدها الصلب فيتابني حس الاثم . أحدثها عن السفر فتقول بأنها  
على استعداد للسفر معي الى أي مكان في الأرض . أقول بأن أمامي مستقبلاً  
ولن يطول غيابي . فتلقت مذعورة : هل ضجرت مني ؟

أكذب . معها كنت أكذب عدا لحظة المضاجعة . لا أستطيع أن أفهمها معنى  
الضجر ، ولا معنى خيالي في دمشق . ومعها اشعر بأعياء اللغة . ولو قلت لها : بأنك  
صدفة . مجرد اعتراض مرضي اعتراني في غياب مني . لفهمت مني بأنها شيء  
لا قيمة له . وكان ذلك كافياً لتحطيمها . وستقول أيضاً : هكذا الرجال إلى أن  
يحصلوا على المرأة عبيد وبعد ذلك يلفظونها . كلكم كلاب وسفلة .

كان صعباً حتى الاستحالة إفهامها معنى النقص الحسي والنفسي في الرجل  
والمرأة . وإذ غرقنا في حديث السفر والرحيل عن دمشق شككت بأن ذلك تبطين  
للهرب منها . وما كان ذلك صحيحاً تماماً . فقد بدت الأيام الأخيرة مشحونة  
باليأس . وعادت الأفراح القديمة حول الاغتراب والاكتشافات الجديدة خارج  
الوطن ، تدندن . كان ذلك حلماً قديماً عشته زمناً قبل أن تفد دمشق . وكانت  
أمك تسميه : الموال الذي يدوم في رأسك وستغنيه يوماً .

لقد عاد الموال القديم . أحسه الآن يزغف من جديد طالعاً من جدران  
الذاكرة ، مدفدفاً كاللوج بعد أن باشرت دمشق انسحابها وبدت الاكتشافات وآمال  
الذهن ومنى . مجرد أسطورة صاغها خيال طفل ربي مهاجر ، كان يبحث عبثاً عن  
أمان وينايع وحب وحرية وشموس لا تغرب .

هي ذي أمينة تحفّ بي . سمية تجري فوق الرصيف . تقرب حيناً ثم تبعد  
عنا . نسير بصمت . من بعيد تلوح مدن غريبة . مدن فيها ناس يحملون وجوهاً

جديدة أود أن أعرفها، لغات أتمنى لو أتعلمها. حضارات، علائق وقيم مختلفة، وكتب لم أقرأها. بعنف كنت أهفو للخروج من هذه المدينة العتيقة، لأن أجري صوب تلك المدن الغريبة.

اكتشفت سمية ثغرة في سياج الحديقة فهولت تخبرنا. ودخلنا. كان الناس يمرون رانين بدهشة إلى هذه الأسرة المستلقية بلا مبالاة فوق العشب.

وقالت سمية: الناس لماذا يحدقون فينا وكأننا لصوص؟

وسألتها: أنت ما رأيك؟

وأجابت مباشرة: الناس سيئون.

قلت دهشاً: سيئون! لماذا؟

- لأنهم يشكون بالاخوة.

وقلت: ولكن. هل نحن أخوة؟

قالت باستغراب: نحن أصدقاء وأهل فلماذا يأكلوننا بعيونهم؟

ضحكنا معاً: عيونهم جائعة. ساعحيم سمية!

وخرجنا.

اتجهنا نحو البيت. صوب جامع أيوب السرحان حيث يقيم طقوسه مع الخمر والزمن، منتظراً عودة المرأة التي أخلصت له كل سنوات ما قبل اليقظة.

[ ]

عندما احتوتنا الغرفة في تلك الليلة، كانت حية راغبة، لكنها كانت خائفة من الشكليات، وكنت مصمماً على إيقاظها. وفي تلك الليلة حكمت لي بأنها محسوبة على رجل لا هم له إلا الخمرة والدوار خارج البيت. رجل منحرف يعاشر سفلة الناس في الأماكن المشبوهة والخارات. يبدد أمواله على ملذاته ولا يعنيه بيته. وأذكر أنني قلت لها أنت إنسانة ولك حياتك لا تبالي به، عيشي عمرك كما ينبغي لامرأة جميلة مثلك. حدث ذلك في الشتاء، والمطر يرز على النوافذ والريح تنفق بالستائر الحمر فتواجهها على نحو عذب مثير. وكانت قبالي، وجهها متألق بفرح جديد، وجسدها مستلق داخل ثوب النوم المشجر. جسد خيل إلي بعد أن روت

حكايته المؤسفة مع زوجها ، انه قد مضى عليه دهر من الاغفاء ولم يلمس . وقلت بعد أن شربت القهوة : أمينة أنت امرأة فاتنة ومظلومة . وابتسمت بخفر خافضة بصرها نحو الأرض . في الليلة ذاتها عانقتها . في البدء مانعت كأبي امرأة شرقية ، ثم استسلمت بكل الريح المحتبسة من قرون داخل جسدها . حدث ذلك وأنا أودعها خارجاً . ضغطت على أصابعها فضغطت هي بدورها . تراجعتم عن الخروج . بهدوء سحبت كفي . وضعتها على كتفها ثم ما لبثت أن انزلت نحو ظهرها . كنا نرتعش وقد صار جسمها الآن بين ذراعي ، وكنت أحس ارتعاد جسدها الطري الأملس تحت أناملي ، وإذا دخل وجهي تحت دغل شعرها المنساب ، والتصق خداننا ، هبت رائحتها الأمومية المهيبة .

على الخوان قبلتها بشغف وعدوية ، على شفيتها وعنقها وخلف أذنها . وفي تلك اللحظة بدت مسحورة ، ملتية كحجارة الصيف . كانت تتنفس وتئن بكل جسدها الذي هُجر . وفيها بعد منحت كما ينبغي لامرأة عاصفة تعرف العشق لأول مرة .

[ ]

هكذا دمشق المدينة التي لا تنسى . المدينة التي تحن إليها بعد أن تغادرها بزمن قصير . امرأة عذبة حارة لا تعوض كما عبر سامر البدوي ، كاهن الجنس : تسحبك يوماً إلى مخدعها ، تعطيك ما ترغب ، وفيها بعد تصبح ممسوساً . ثم لا تلبث هي أن تبدأ بالانسلاخ والهجر بحثاً عن فريسة جديدة فتية .

ولم يكشف أحد السر .

وقبل مملكة أيوب السرحان تقوّضت ممالك .

وقالوا أنها ملعونة أبد الدهر .

وقالوا أن دم هايل يصرخ .

وان أرواح الأنبياء الذين هلكوا في مغاور الجوع تهمُّ في ظلال قاسيون مطالبة

بالنار .

وقال ذلك الفلاح الحكيم : انها لعنة . رأيت في الحلم أصابع يدي اليمنى

الخمسة وقد قطعت بفأس ، قطعها يد أخي ، وسألته لماذا فعلت ذلك ؟ فقال تنفيذاً

لوصية الجد الأكبر . قبل أن يموت لعنا وتنبأ لنا بأيام سود ستباع فيها الأراضي

ويكون اقتتال ويكون جوع وجور وقلة دين وسأموت مسموماً. أنظر إلى هذه الأراضي كلها كانت للأسرة. باعوها واشتروا بأثمانها خمرًا ونساء وزندقة بعد أن هاجروا وسكنوا المدن. وفي معظم الليالي كانت روحه تحوم فوق هذه السهول. وقبل الفجر يأتيني بعمامته البيضاء ووجهه الحزين. كنت أرى السمّ واقفاً تحت جلد وجهه.

لم يكن يحدثني. كان يقف فوق رأسي كشاهدة قبر وأنا أرتجف. سمموه بسرقة الأرض. اكتفى بلعنهم وهو يخرج من منازلهم. في الطعام وضعوا السمّ ولما أحس بسرّياته عبر دمه صاح بخادمه: هيا يا شدّود. هيا. على الرف يوجد دواء داخل زجاجة خضراء تأتي به وتعود كالبرق. ما عاد بإمكانني أن أسير. خذ الزرقا يا شدّود وسابق الريح. وقال شدّود: ما الأمر يا سيدي؟ وقال جدك لخادمه: السمّ يا شدّود. هيا. الكلاب سمموني.

وانطلق الفتى يخترق الريح. ودّ لو يطوي الأرض.

وهو يروي كان حزيناً. قال بعد صمت: مات جدك هناك بين الأعشاب. عندما عاد شدّود رآه وفي فمه حفنة عشب وتراب.

كانت له رؤى القديسين. لكنها كانت قديمة ومشوشة. كان يتحدث وهو بين النوم واليقظة عن عوالم غريبة كأنما يخاطب أرواحاً. يحكي في صمت الليالي تحت ضوء القمر عن أزمنة غبرت. الخير والشر. الحلال والحرام. الكتب السرية ونبوءات المستقبل. كان يقول بأن قطع الأصابع الخمس تعني شيئاً آخر غير الأصابع. فالأصابع تشير إلى الوقت، وقطع الوقت يشير إلى الغياب، وأول إصبع قطعت هي رأس الحسين في كربلاء، والثانية تشير إلى الكتب التي رُميت في نهر دجلة. عندما تنمو وتكبر اقرأ أبا نواس وابن عربي وابن الفارض وابن سيرين. وسألته عن ابن سيرين فقال: عالم جليل يفسر الأحلام بغير ما تظهر في الرؤيا.

إن ذلك ليبدو الآن مثل ضبابة. أحاول استعادته فيتزلق. محض طيوف تشبه طيوراً لا تُعرف أسماؤها. كان يهجس عن رجل غريب يخرج من عين الشمس ومعه رجال قلائل. رجل لم تعرف الدنيا مثله. عندما يأتي يصبح بالقوم صبيحة يسمعون أهل الأرض والسماء. يكون ختم اللعنة وسيف الله. ذلك الرجل سيعيد الحق إلى نصابه. يجمع الشتات ويكون له في الأرض دوي. يمتطي فرساً بيضاء

وعليه جبة خضراء. يعبر الصحراء شاهراً سيفه والقوم وراءه. بسيفه يقتل الأعور الدجال وفي الجبال والسهول يتشتت شمل اليهود. يختبئون وراء الصخور والأشجار فتصبح كل صخرة وكل حجر: يا عبد الله. هذا عبراني وراتي. ذلك يكون نهاية عصر التسمم وبداية عصر مضي فتعم المسرة والسلام أرض الأنبياء إلى الأبد.

[ ]

صرح السيناتور ميناحيم بيغن (لينيويورك تايمز): «لم يعد هناك ما يسمى بفلسطين بعد الآن. فأرض إسرائيل التاريخية لا تتسع إلا لشعب واحد هو شعبها اليهودي، وعلى هذا الشعب أن يعيد مجده القديم بقوة جيش الدفاع الإسرائيلي وعلم النفس.

- ماذا تعني بعبارة علم النفس؟

- الفهم السيكولوجي التاريخي للعرب. أعني النشاط الفعال لشعب حيوي خلاق مقابل الكسل والضوضاء اللامجدية لشعب مؤهل للانقراض.

- هل تعتقد أن بالإمكان إزاحة ملايين العرب من أرض جذور حضارتهم فيهاراسخة وقديمة؟

- إنني أسألك بدوري كيف أرحم الهنود الحمر؟».

وفي مساء ما تطور الحوار بيني وبين ديانا حتى شارف حدود البوح. وفي ذلك المساء أعلنت رفضها الحاسم لأي تماس مادي بيننا. وأحسست بأن ذلك الرفض لم يكن نابعاً من الضمير الأخلاقي المستكن في نفسها. فقد بدت الخيانة غير مجدية وهي ستؤدي إلى الكثير من الغم والتأنيب الاجتماعي. وإذا حاولت مهاجمتها بأن العلاقة الكاذبة بين اثنين تبدو أكثر خسة من الخيانة الحسية، اكتفت بالقول: مسرور إنسان طيب القلب ويقدم لي ما أريد.

ولما تحدثنا عن الحب، قالت بازدرء أنها تمقت حتى الموت تلك العملية التي وصفتها بالقذارة. ثم أضافت بأنها نوع من الافتراس الحيواني. وأوضحت لها أن في الأمر خطأ، واننا في الشرق ربما كنا نمارسها بشكل وحشي، لكنها في أساسها ليست هكذا. ونحن لما نصل بعد إلى فهم الاتصال الجسدي كطقس طبيعي يشعر



به الإنسان ويقوم به كما يقوم بالاستحمام أو الطعام أو شرب الماء بعد ظمأ، وأنه يعطي إحساساً مغبطاً بالراحة والصحة.

وسألتها: أنت مثلاً امرأة كل ما فيك ينضج بالاشتهاء والعذوبة فأني ضير أن يشنني مسرور النوم معك فتواصلين معه بمنتهى العفوية؟

وقالت بان مسرور شديد الهياج وهو يطلب ذلك دائماً وأنا أشعر بألم حقيقي إذا عجز عن بلوغ حالته.

- لكن من الصعب على كل رجل أن يفهم حالة الفصام هذه. يريد من المرأة أن تكون امرأة بالمعنى التام للكلمة.

وصمت. وضعت راحة كفها على خدها، وبدت في سهوم وضيق.

- هل تشعرين بمرض ما. قولي ديانا. عليك ألا تنجلي مني؟

- لن تقول له؟

- لا.

- أنا أنتشي بالمداعبة فقط. عندما يقترب ذلك الشيء اللعين أشعر بالاختناق، أرى مسرور وقد تحول من إنسان طبيعي إلى حيوان. تنتفخ عروقه وهو يلهث. يهجم علي كأنما يريد افتراسي. في رأسي تدور الدنيا فيتجسد أمامي وحشاً بأنياب وأظافر. ويبدأ ألم لا حدود له يمزق جسدي. ذلك لا يطاق. لا يطاق!

وتبدى في حالة غريبة مماثلة لحالة الفعل ذاتها، فأحس بأنها أفصحت أكثر فأشعل لها لفافة. ومرة أخرى يرتمي الصمت. على الجدار أرى الصليب فوق خزانة الكتب يهتز داخل غشاوة عيني، وتبدو المرأة العالية في الشفق ممددة على الصخور في حالة نزع.

أحضر كأساً من العرق أمزجه بالماء وبهدوء أحتسي. يومها كانت غارقة في الكنية مستسلمة في ذهول خمنت أنه نوع من التأنيب. بعد لحظات تحدثنا عن الماضي والأهل الذين غادرتهم، ومدينتها والبحر. وبشغف خاص راحت تسرد ذكرياتها عن الطفولة والبحيران وأبويها والغربة.

حكايها عادية تشبه شروق الشمس وغروبها. وأيام متشابهة بين بشر متشابهين.

كلمات وحركات لها بدء ولها نهاية وبين هذه الحكايا كانت تسرح. زواج. طلاق. اعتراضات طلبه مراهقين يرمون كلمات غزل. وصديقات يثرثن عن الفساتين والأحذية ويهزان من المراهقين. ومع الزمن يتراكم هذا النسيج كما تتراكم الطحالب فوق الصخور البحرية.

ذلك كان وجهاً آخر من عالم ديانا التي اقتلعت يوماً عن شاطئ البحر من بين أسرتها لتكون زوجة وفيه لهذا الفلسطيني التائه.

[ ]

في جميع الأمكنة كان الشرق بشطريه الرومانسي والواقعي، شبيه سراب في صحراء شاسعة. يستغرق العمر ولا يُطال. والجبل المنبتق يحاول أن يكون، فيتجزأ في بحثه عن الأمان والسرية. عن امرأة هي الأرض حيناً وحيناً آخر المطر أو العقيدة. وإذا بتصعد يعود مقسوراً، فيمضي ما تبقى من العمر كذبة ضائعة في سفر الزمن الخادع.

- كله كذب في كذب.

وأقول لمنى: لا. منى. لا. شيء آخر. ربما كان البحث عن الهوية المفقودة في مطاوي التاريخ.

فتقول: أبدأ تكذبون. كلماتكم. سلوككم. ثيابكم. جلودكم. ماضيكم مستقبلكم. في دمائكم يجري الكذب. تأكلون الكذب وتشربون الكذب. وتنامون في مخادع كاذبة.

أتمم: إنما نحن أطفال يا عزيزتي منى نبحت عن أب!

الماضي يختلط بالحاضر، كذلك الكذب بالصدق وتوهم أننا نحيا. نجبن عن الانتحار إذ تفلت منا الحياة الحقيقية وتتبدد كرمل البحار.

ويجهد. راني لأن يحيا حياة داخلية مُنارة، مطلقها بلا حدود مع لبناه في إطار خاص مرتعش بالخلق.

- الرائحة هي ما نبعيه. هناك يكمن السر الأعظم.

ثم يقول: ولكن من منا يستطيع أن يصل منطقة الروائح!.

وبعد منتصف الليل تعبق دمشق تحت المطر والسكون والخلو. تلمع الأشجار

كذلك الأرصفة والجدران. للصمت صوت وللتذكريات. لحفيف الثمل إيقاع من الشجو. إيقاع من الألم. دمشق.

نسمع خطو الزمن داخلك فيشف العالم. بصحو. تقول الريح: أنت كئيب. وحيد كحجر في صحراء. وفي ليل عام يصاعد أنين امرأة. حفيف ثوب من الدمقس على سرير منفرد. ناي بعيد، بعيد، يتأوج مقبلاً من برار مهجورة. أصوات حاملة كل بؤس العالم. كل قهر الزمن الطاعن بلا شفقة. صوت سامر البدوي وهو يشق اهاب الشرق علّه يكشف الهوية التي ضاعت. صوت وائل الأسدي الموغل في مرايا الثار عبر أجساد البشر الذين تخلّوا عن أبيه في معارك العرب الخاسرة.

- بماذا تفكر؟

- بالجنس مدخلاً صحياً لمعظم بلاوانا.

- أليس هذا مبالغة؟ والجوع؟ والحرية؟

- ما أعنيه عن الجنس مطهر. يبدو الإنسان هنا مصاباً بأصفر ما في حياته، ليس حرّاً لأنه غير موجود أساساً.

- أنتقد جاداً أنني مريضة؟

- إسمي ديانا. سأقول لك شيئاً لا أدري مدى إدراكك له. أنا أعتقد أنك

مصابة بالثشت الحسي. في جسدك مناطق منسية لم تهيج. مناطق هجرت عبر الزمن فعجزت عن استقطاب الأنوثة بحيث ظل المركز الرئيسي مهملًا. التثيت حدث في المناطق الثانوية ولهذا تثارين بالمداعبة في هذه الأماكن.

في البدء دهشت. ثم افترت هازئة. سألتني: ايه. ثم ماذا أيها المحلل العظيم؟ قلت: ولهذا أنت لست سوية. أنا جاد فيما أقول.

قالت ساخرة: يبدو لي أنك أنت المصاب. أتعرف بماذا؟

- بماذا؟

- بمرض اسمه فرويد.

ابتسمت: لكن فرويد كان طبيياً.

- بل كان مهووساً وقد أورثكم هوسه المرضي.

لست أدري كيف التمع في المخيلة التاريخ الشخصي ملتحماً بالتاريخ العام.

ترأى ذلك ككهف في وادٍ عميق رائحته زنخة، مسكونة بالعظام الحيوانية  
والإنسانية. وسوست النفس: هل لنا شمس؟ هل لنا مشفى؟

فجأة تمزق سحر ديانا. من جسدها فاح نتن حضاري حملته الريح من  
مستشفى كبير يمتد من بدء الشرق حتى نهايته. بدا لي غاصاً بأناس يرتدون ثياباً  
صفراء يفوح منها الكلوروفورم، يتحركون بطريقة تثير الغثيان، وتثير الشفقة. وطراً  
على جميع النساء تحول جديد. اكتست فيه أجسادهن شعراً كشر الماعز والقردة،  
فتبدلين بقرون كبيرة وأظافر تفوح منها رائحة حموضة، ورحن يرقصن رقصات  
همجية مفعمة بالتفرز والسخف، وحوهن جموع الرجال تتحب دونما صوت  
مسموع.

كان قلبي منقبضاً الآن. حزيناً كما ينبغي، عاجزاً عن فعل أي شيء حتى  
الحركة.

---

## الفصل الثالث

---



مستمرة هذه الهجرة، والحزن مستمر، وتاريخ العرب ينجلي شيئا فشيئا عابرا  
عصور الانحطاط التي تجهد هي الأخرى لتستمر، والجبل المنبتق آكلا ذاته يود أن  
يصرخ: لا !

في الطريق يقع. على الشعرة واصله الماضي بالحاضر، وهذا الوقوع ربما كان  
إنباء بوطن آخر. بخلاص ربما. لكن هذا المطعون يرفض أن يكون الجسر.

وتسأل: كيف بينى وطن حقيقي اذا كانت منى مفصولة عنك؟ وتقول ديانا  
بلا مبالاة: مات زمن الحب. وما فائدة الاشياء كل الاشياء عندما يموت الحب  
أو ينحرف، وما مسوغ وجود الانسان؟

واذ تسألها تقول: هكذا العالم!

غير أن راني القادم من بيروت لا يعتقد ذلك. مغمم بالتوقعات العذبة  
والخصب المستقبلي، يزرعه في أرض لنا العذراء. أرض الاكتشافات والذرات  
المستعصية على النظريات، ومرفاً طفولته المغتصبة.

عائد، وكله يقين من تجربته والفتوحات التي لم يصلها بشري.

بفرح يسألني عن منى وأمينة واللبالي التي مضت. وعن دمشق.

فأجيب: منى سترحل، وأمينة تحلم بالزواج منى، وأنا تائه في التمل اعتنق  
الحزن والمرارة والفوضى والبحث، ولا نقطة. ودمشق هي دمشق. نثرثر عن بيروت  
ودمشق. عن الناس والاحزاب والشعراء والافلام. عن الموت والابداع والقضايا  
الصغيرة.

نسكرك احتفاء بلقائنا الجديد، ويبدأ الدوار داخل جسد المدينة وتشيل الحكايا  
المخبأة في السريرة. الحكايا التي اختزنها الغياب.

- من كل الآخرين أنت ولينا. أنا وحيد وضعيف لم أبح يوما الا لكما. آه.

عندما يخون احدنا الآخر يجب أن يتحرق. ليس سهلاً موت الام. قل لي: هل تحب امك؟

- لا !

- كانت تخون؟

- كانت غبية وحمقاء نكره أبي. كان يقول لي: من العار أن تكون أمك!

- كان أبوك قويا وسليماً؟

وأومئ أن نعم فيند متأسياً: اتعرف معنى الا يكون الاب سليماً؟

- .....

- أحاول أن أعوض عنه فأشعر بالفشل. لينا تستطيع اكمال نقصي. لينا الاب والام والصديق. آه أنت لا تعرفها.

ويتابع: هذا مخزن إلى أبعد حد. يا لينا الحبيبة كم أنت عظيمة وخالقة. تصور انها تعتقد أنني لا أحبها كما تحبني.

اعذرنى اذ أقول لك انني أعبد التراب الذي تدوسه. أرجو ان تفهمني. أرجو ذلك بكل جوارحي.

على جذع سنسرخت تستريح جبهته، وفوق أثلامها يمرغ وجهه ويبدأ بدندن حيناً فيروزياً، يمتد عبر الليل وجعا غيبياً للمرأة المستوطنة دمه. المرأة التي ماتت بين يديه ذات مساء بهدوء ومحانية.

دمشق الرائعة مستلقية فوقنا وتحتنا. صامته كالحجر.

وفي الذاكرة تترك تجربة سامر البدوي وعشقه القديم لزوجته الحزينة، وعطف ديانا على مسرور التعس، ثم ايوب ومملكته المقوضة، فأتمنى أن احمي راني من هذا العطب الساري في النسل. اثنيه عن السفر نحو جزر السراب المسكونة بالقيظ والملل. وأستيقظ غباً غيبوبة اخذتني بعد حوار حاد مع منى. فأتذكر بانني حدثتها عن الحرية والاختيار والعربي الجديد الذي يحرق ماضيه الآسن ويتقدم فوق ارض من رماد نحو ما يريد، نحو ما ينبغي أن يكون، وأن فقدان التواصل بيننا يأتي من طرفها هي التي لم تكسر بعد جدار ماضيها ونحرق هشيمه. وأتذكر أيضاً بانني صارحتها بأن هذه الهوة القائمة بيننا وسعتها حالتها المرضية التي تبدو مستعصية ومهينة، واذا ما استمرت



يجب أن نفرق ، واذ حاولت أن تعيد اسطوانة الاتهام ، فاجأني غضب مسدود دفعني الى تحطيم الزجاج وقذف ساعتى اليدوية فوق جدار الغرفة .

من الصالون يأتيني نسيجها . أخرج من الغرفة فأراها مستندة الى الجدار وفي يدها محفظتها . تبدو لي في حالة تعيسة مهانة ، أمسح دمعاتها براحة كفي فأشعر بسخونة خدها . اسحبها الى الغرفة وبهدوء اجلسها على السرير . الشيء اللعين الذي يطعن الجلد كلما انفردت بامرأة ، يموت في تلك اللحظة . تنزاح المرارة ويولد حب خاص يشبه نمو العشب تحت الثلج . حب ملون عميق ودافئ . أضمتها الى صدري ، وبتكى رأسها فوق قلبي الذي يخفق ، فتدهمني رغبة شق ضلعي واحتوائها .

- كنت تبكين اذن؟ ساحبيني .

ورويدا يتخامد - نحيبها ، يبدو وجهها وشفتاها بعد البكاء قانين . اقبلها فوق خدها فتبدأ الطمانينة بالصعود من قاع البحيرة التي اعتكرت ، وعلى وجهها الارجواني يرتسم صفاء صامت .

- نحن نحب في عالم مات الحب فيه . كفكفي هذه العبرات ! ويمضي زمن قصير . لكنه مديد في بحر النفس وفي وحدتنا المفصولة عن حركة العالم . الطفلة التي اغتالها الزمن قبل أن تنمو ، تجلس قربك ، هادئة ومحرورة . وانت رجل نصف صادق ونصف مخادع تمثل طراز عصرك . تحاول أن تخرج عليه فتعثر بملايين شباك العناكب وقد نُصبت على الدروب التي تخرقها . دروب مفخخة قبل سقوطك من الرحم المنجس . وانت تريد الكفاية والصدق المطلق والحرية ، واذ تفتقدتها يرن الكذب النسبي فتراجع عن الانتحار ، وتبدأ تنسج حلم الغابات والبراري والعودة الى عري الاجداد القدامى .

- انما نحن سيئون بالاكراه . اغفري لي . منى . ربما مثلت دوراً لا أريده ولا أصلح له .

وتهمز رأسها : ما فائدة كل هذا العذاب . نهلك أنفسنا بالالم والعالم لا يبالي . حالة حرب تفني نفسها بنفسها . وتطلب لفافة ثم تتكى على الوسادة . تدخن وتحرق في السقف .

واسألها : هل تعتقدين أن الفطرة سيئة الى هذه الدرجة؟

تنفث الدخان ببطء : لا أدري . ما عدت أمايز الاشياء .

أحدثها عن النقاء في عالم يختنق بالتسمم ، وأني بدأت أشعر بالانهيار وعدم القدرة على المتابعة ، وأن الانسحاب رغم لا جدواه يظل الحل الابغض الى النفس : قد يعطي بعض الطمأنينة والعزاء لكنه مغفرة فردية مردودها سلبى . وتنهض عز انكائها . تطفى اللقافة في المنفضة : لو قلت لك اني احبك ماذا يعني هذا؟ نحن اثنان فقط والناس هنا حيوانات بحكم الحاجة والعلائق القائمة . وانت وانا لستنا انبياء أو آلهة لنفني كل شيء ونبدأ من جديد بصنع ذرية غير ملوثة ، وحكاية نوح اسطورة قديمة ، ولو افترضنا انها حدثت فما الذي حدث بعد الطوفان؟ ما نفكر به لا يعدو وهم شاعر بائس . انا محكومون داخل مصيدة قدرة وهذا التسمم يحتاج الجنس البشري منذ الخليقة .

على الارض كانت الشظايا ، وخارج الغرفة في مكان ما من المدينة ، كان ايوب المحطم ، وكانت هناك المرأة التي دُوهِمَت ولما تبلغ سن الرشد ، كانت هي الاخرى محطمة ، وكانت منى صغيرة عندما تهشم رأس زوجها بسكين اخيه الجشع القاسي الراغب جسد منى العصفوري ، وعلى بعد من هؤلاء يستلقي مسرور المطارد منذ عام ١٩٤٨ وقد أرسى سفينة فلسطين المهاجرة على شواطئ ديانا : الهة حبه التي صادته وهو منك .

[ ]

ارغب ان تكوني لي في جميع الثواني والدقائق والساعات والايام والاشهر والسنين . لكن لحظة ملل ستمر يوما بنا واذا ذلك ما فائدة كل الحب . سأتحول الى ما صار اليه سامر البدوي سدين الخمر والنساء الاخريات والهجرات الليلية . انا انسان ملول يا عزيزتي أمينة .

وجه راني يشرق شفافا بالحب الذي لم يتحطم بعد : لينا تختلف . شيء آخر يا صديقي . في كل ثانية تفتح عن عوالم جديدة ، لينا كون خاص . أتدرك معنى أن تكون امرأة كونا؟

- لا . عزيزي راني ، فهمي محدود في مثل هذه الامور . هات حدثنا عن الاكوان المؤتلفة .

- أنت مصاب لا بدّ كأبي .

- ربما . لكن انت عاشق بائس على ما يبدو . بائس من نوع عظيم .

ويترنح فوق ضفة الشارع ، مأخوذا بكشوفات لينا . وفجأة يلتفت نحوي :

يشير باصبعه : أنت ماذا تعرف عن الناس المطعونين . عن الناس المهزومين في الارحام؟ لينا مجد شخصي وتاريخي بدونه أنا ذرة في هبوب الريح . سكون موتي . المرأة وطن خاص . تاريخ مفقود . سلام في أزمته الحرب . بحر وضوء في هذا الظلام الروحي الممزق لقلب الانسان الوحيد . وبصوت يرج الشوارع والجدران والصمت يصيح : أيها المتوحدون كذئاب في الصحارى . أيها المهجورون والفاشلون . يا قوانين الزمن العلمية هأنذا أبصق في وجوهكم جميعا . أين انت يا سلام العالم الروحي . أين أنت أيتها الموسيقى . اعزفي . المجد للشعر في الارض و في الناس الكآبة والموت للعقل .

ص ت كالقبر . فراغ . ألم . وليل أصم . ثم راني الذي ركه جنّي .  
حتى النفس الانسانية في ختام هياجها تصير الى ورق ذابل . الزمن وحده بيد المخلوقات يتمرد على طبيعة الاشياء ، لا يولد ولا ينمو ولا يعشق ولا يعتاد لا يمل ولا يموت .

- أنا اعرف منك بالمرأة . ويستطرد سامر ملك المدينة بلا منازع : المرأة الدمشقية صبوة مغلقة . بياض يشبه الكفن ، فصوت حان خجول . سماء عذراء ترغب ان تحتويك لكنها وهي تعانقك تسأل : أين البروكار يا حبيبي؟ كل جزرك واكوانك مسكونة بالعلق والضفادع والمقايسة . انتحب حتى يتمزق قلبك . وحتى اذا ما ذهبت الى الحرب فأنت تموت كما الكلب . متى تدرك أن العالم يجري بقوانينه الضاحكة والباكية ، القوانين التي تدوسك وتمضي . قوانين المادة كما يقول ماركس . قوانين السلعة . حتى القيم الروحية تخضع في مدينة دمشق لمبادلات الربح والخسارة .

وفي ذلك المساء تحدثنا عن وائل وحالته . وقال عنه بانه ليس تافهاً كما ترى . فقط هو انسان كئيب يريد ان يدفع عن نفسه هذه الكآبة التي تهترنا . وثرثنا عن الفصام والتعويض والطفولة المنتهكة ، وقال : انت تبحث في نظرية التقويض وتريد اثباتها وهذه قضية معقدة وضد الوجود البشري أصلاً . انا مع الانسان بخيره وشره . وانتبهت الى التهمة فقلت : أنا لا أبحث عن شيء . فقط ألاحظ وأضع اشارات بعد اسئلة؟

- ابدأ . انت تحاكم البشر وانا لست مع الادانة . لماذا يكون الانسان مُداناً في العالم؟

- حكمك نعني. الامر اني اود ان افهم الانسان بدوافعه الداخلية المستبطنه وهذا لا يعني الادانة. ما اود قوله هو: لماذا العربي ثابت في حركة التاريخ العامة؟  
- ليس ساكنا تماماً إنما متباطئ. والسؤال هو: لماذا يحدو بإياله في عصور الالكترن والصواريخ والكومبيوتر؟

فوقنا كان القمر. وكانت هناك غيمات تطارده. كان الآن مُتَرَعاً من عالمه الشخصي. واذ سألت: ولكن لماذا ينشد نحو السماء كثيراً؟

قال: مأساة العربي انه يبحث عن الحالة التوفيقية بين الغيم والارض. واستطرد: في عصور الاجداد كان هناك اطمئنان. الله كان اماناً ومنتكاً. الجيل المعاصر ممزق برصاص التاريخ وضربات التغيرات الجديدة. السؤال الاساسي هو: كيف نقيم قيماً معاصرة مطهرة من التحريبات الدينية المنقرضة مبنية على اساس دوافع الانسان الطبيعية؟

كثيرا ربما ينبغي التفكير بديانا: الهة الجنس المنحوتة من رغبات مسرور وتوقه الخائب. والقائمة في ساحته كحجر بارد. لقد قال عنها يوما: ان الذي هوى من رحم أمها بعشقتها فكيف بي أنا؟

ولكن: أين تكمن الموقظات الحسية لهذا الجسد الرخامي العظيم الميت؟  
ولو سألت مسرور لأجابه: وأسفاه!

حزين كما هي حزينه فلسطين المحتاحة الآن بعد ان استوطنها الغزاة من جميع اصقاع العالم: كيف نحررها مسرور؟

- انت تعرف جغرافيتها؟

- تمزقته بين الجغرافيا والتاريخ.

وفي الرأس تشيل الاصوات. قديمها وحديثها. الدينيون والاصلاحيون والبرجوازيون والخونة. ثم الثوريون المعاصرون. اصوات تعزف الوتر نفسه مع بعض التنوعات المثيرة. وتر شارف الامحاء والقطع من كثرة ما ضربته الأنامل.

- ما رأيك مني؟

- كذبة وجبناء. عشاق سلطة وانتهازيون.

- مسرور. ألاستطيع ان تفعل شيئاً؟

بتمدد على الاربكة ويغمض جفنيه . هكذا يبدو الجواب المجسم في لحظة الصمت .

قربي ديانا ربة الجسد المختل . ساقاها المرمريتان تتأرجحان ، ووجهها اسيل ، وعيناها ليل بلا اسرار . هادئة ، وحيدة ، مغتصبة . قليلا ومحذر يفتح جفنيه كأنما بتوجس خيانة ، فيرى أرض الموت والخيانة والغزو . أرض المسيح والتي أسرى إليها محمد . المرأة التي خانت بعد ان غادرها زوجها الشرعي تاركا جسدها للنوء والحزن .

اثر لقاءات متواترة مع مسرور اكتشفت فيه رجلا مسلما يغار من الريح اذا ما هبت على ديانا ، ينازع ان يكون معاصرا كيلا يتهم بانه متعصب عتيق .  
- سأذهب . بامكانك ان تبقى مع ديانا . وهو يهم بالخروج من الغرفة يلتفت : عزيزتي لن يضايقك ذهابي هاه . سأعود .

يرسل اليها قبلة في الفراغ ويمضي . في فضاء الغرفة ينسحب احتقار دفين . تبدو ديانا تمثالا من جبس ليس كثيبا ولا فرحا . وثن صامت . من قاع اللاشعور ينهض احساس غريب . توقع ينوس بين الشك والثقة . يتغلب هبوب المراودة . اختبار آخر .

أراوغ فأنظاها بالخروج . تصر أن أبقى .

يصير المستشفى غرفة موشاة بستائر من حرير اخضر . منورة بضوء خافت ورائحة امرأة خرجت للتو من حمام . في الزاوية سرير مغطى ببياض مغسول ومعطر . وفي الخارج مطر . الدنيا ظلال وروائح جسد يتعري . جسدان في لحظة النداء الوحشي العذب . والجسد موجة مندفعة نحو شاطئ حار . الدنيا بحر حريري في غسق حريري . رجل وامرأة يستلقيان فوق جسد البحر . إنه العربي في المطهر والشمس على كتف المغيب . ألوان زرقاء وبنفسجية وخضراء . ألوان حمراء مغسولة بالرغبة والشوق السري القديم تنهد فوق السرير ، فوق حرير البحر . والغروب قوس قزح . الالوان تمتزج بحركات تشبه سقوط ملايين الشهب داخل ليل أخضر .

الرجل يدخل كهف البحر تدخل هي فيه . جسدان من توك حريري لامع وصاف . الجسد في البحر والبحر في الجسد . يتلامسان . ينحلان . موج من ألم . موج من عدوبة . يصيران الموج . يرتفعان معه وهبطان . يتقدمان . يتراجعان . الحرير في الحرير . الاشياء خضراء : البحر والسرير والستائر . الشمس والليل . ثم الرغبة

والمطر، كذلك البحر والجسد. الجسد والبحر. بحر ممتد أخضر لا نهائي. بحر  
حريري تغوصان فيه. تتلاشيان. سكينه. البحر مقبرة.  
وأطلب كأسا.

تقدمه.

أحتسي بطريقة وحشية.

عن امور نافهة تثرثر.

وعن امور مباشرة أتحدث.

تنحرف نحو امور اخرى.

أدخل بوابة التمل.

تدرك حالتي.

أقول: الخمرة هي المشفى.

قليلا تشرب.

أشرب. الشيرازي يقول: اعطني الكأس في مرآته نبصر احبابنا الغائبين.

نبتسم وهي تصب الخمرة.

أفكر بأخذها.

تتحرك في البيت.

تثيرني الخمرة فأشتي ربله ساقيا.

تعود.

احدق فيها.

تضع ساقا فوق أخرى.

- يا الهي أية امرأة أنت!

بغرور تبتسم.

- المرأة كهف الرجل وبحره.

تلتمع عيناها.

- هل قال لك أحد أنك امرأة كاملة؟

تغير ساقها بحركة غريزية .

اشرب .

بابتسامة شهوية ترنو إليّ .

- ومرغوبة من الرجال .

وجنتها تتألقان .

أذكر . آه . البحر .

قلبا يخفق رعباً من الخيانة الحسية ، ويعود البحر مولداً موجات اخرى .  
يخبو العالم وتتضوأ غرفتها ، أتصورها تتحرك وقد استيقظ سبات جسدها . وتدق في  
جسدنا طول أفريقية ، سريعة الايقاع ، متوحشة .

- تأتي متأخراً مخموراً؟

- حبيبي .

- لا تقبل إلا ليلاً وتريد دائماً ذلك الشيء اللعين .

- جسدك كعبي .

- ولكنني خائفة ان يفاجئنا يوماً .

- مفاجاته خمرة .

وتأوه تحت ضغط جسدي .

ظلام . غرفة معزولة عن البيت والطفلة ترسو في بحر أحلامها . في الظلام  
نلتحم .

امراة كاملة محرومة . ورجل مخمور بلا عزاء .

بحار . بحار والدنيا غسق .

[ ]

كل الأوطان منهوبة . يقول راني : مرحلة تاريخية . الكل ضعفاء . وضييف  
الآخر : وجبناء . امراة بورتجوازية تافهة تحضر السهرة فتترق : أنا أكره الفلاحين :  
أجلاف ووسخون !

أقول : أنت من سلالة أيوب . واضييف بعد الكأس الخامسة : لكنني أنبتك

بأنها سلالة في طور الانقراض. ما عاد لها زمن. بالمناسبة هل تعرفين السيد أيوب السرحان؟

تثور بحقد: أوه. أوه. يا للاجلاف!

أقول: قد نكون رعاة وأجلافاً لكننا لسنا من سلالة التتار.

- لماذا قدمتم من قراكم؟

- لافتداء مدينتك المفتوحة للبيع والشراء والجواسيس.

- حرّروا فلسطين أولاً.

- ولكن من الذي قال لك أن التحرير لا يمر فيك يا عزيزتي؟

ينعقد غضب يتلوه صمت. كراهية تطوف فوق المرأة الموشكة على الاختناق.

تتحرك بدوية سامر القديمة: أنت جميلة ربما، لكن اسمحي لي أن أقول لك انك تافهة بما فيه الكفاية.

ويصمت راني. على الجدار تتصلب عيناه محذقتين الى سر الضعف البشري.

يقول أحد الحضور وهو يرفع كأسه: أيها السادة نخب النساء البرجوازيات المتدفقات في أواخر الليل.

بينما ترفع الكؤوس، تغص المرأة. تشرق دمعتها. تبدو محاصرة في حلقة جيل

جديد يحتقرها ويشتمها.

ومن غيابة الذاكرة تنبثق فلسطين كالرمح المدمى، ثم يأتي معها العربي

المشارف انقراضه، والعربي الواصل الأصيل. هنا في بيت مسرور يتوهج الصراع

مكشوفاً. انها يصطدمان على نحو فاجعي. ديانا صامته كقبر ما عاد فيه غير

العظام، وفي الداخل ثارات. قهر قديم استكن في النفوس يشب الآن.

مرة أخرى تأتيني فكرة تجتاحني كريح صرير. أود أن أهر راني: لماذا تريد

أن تنجو؟ دعنا هنا نفتش عن أوراقنا التي ضاعت في شقوق الأرض. بدوي

صوت مزمن لا تعرف بدايته. يشهد المرأة المخدولة وهي تنشج ماضيها المحطم.

ماض خلق يقعي في بيت أيوب السرحان، بعد أن خانته زوجته واستلبه الفلاحون

أرضه، فأحس بتاريخه القديم وقد تمرغ وانتك. تتمم المرأة المخدولة: أنا غريبة

في هذا العالم!

بيوس بورجوازي تقول ذلك، فيرد سامر البدوي: أي منا على استعداد



لايناس غربتك يا سيدتي. نحن هنا بارادة النساء المتوحدات وأحد ما لا يسعه أن يرفض لجسدك مطلباً.

باحترار تقول: متوحش قدر.

- هذا إطراء.

- أنا أمقتك.

- وهذا تعبير معكوس عن الرغبة.

- النساء مخدوعات بك.

- أرجو أن أكون عند حسن ظن جسدك العظيم.

مسرور صامت كأبله أخذته غاشية، ومُخرج. كل شيء يتبدد. يأخذ حالة من الحلم والذكرى. تصير الأشياء غيماً أبيض. قوس قزح أو موسيقى. وما كان ليس ما يكون. مجرد حكايا عابرة في ليالي النفس، والنفس المبدعة وحدها تحتفظ بالذكرى والرائحة والموسيقى.

ذلك ما يبقى من كل التاريخ الذاتي والانساني، وما عداه قبض الريح.

وإذ تشق منى عباب البحر والريح، يقبل الفرح. تقول المسرة: هوذا الفيض الشمسي ينير عتم العصور.

- أحبك بطريقة مختلفة وأنت لا تدريين.

نسم تقول شيئاً عن الذين أحبوا وخانوا. وعن البذار الخصب في أراضي العقم. وتحكي لها عن الحنان، عن المرأة التي تدفى الروح المعذبة وتغني، فتقول: هذه عصور الأحذية والموسلين يا صديقي الشاعر.

- بل أزمة التجزئة والانقراض.

يحتدّ الدونكيشوت: العربي سيد القدر. العربي له تاريخ ومن له تاريخ لا يموت.

منى تروي حكاية دودة القز التي تغزل الحرير ثم تموت داخل الشرنقة: العربي ماذا يغزل في هذه الأيام؟

ومع راني يأخذ الجدل طابعه الدرامي: نحن الآن في عصر الضحايا الفرديين. من هذا المجموع المأخوذ باليومي والقانوني ينهض الذي يقول: لا. هذا الذي يرى نسوغ الأشياء جيداً فيصبح بالملأ المخدر: أن هبوا. ثم يلقي بنفسه فادياً.

- طر. ما الفائدة. المجانية ليس إلا. أنا ضد هذه المجانية العبية. التاريخ يتحرك ككل. ويتابع مهتاجاً حنقاً: المرحلة التاريخية تستهلك ذاتها. العربي يعبر التيه الرمادي. انه طائر العنقاء. لكي تعود الاشياء إلى أصلها الأولي لا بد من تفاقم الموت حتى يشعر كل ابن آدم انه هالك وان الخطر يعنيه. هذا زمن السكين واذا لم يبتلعها كل عربي ويحتسي الدم بدل الخمر فتبى بالانقراض. بغير ذلك لن يخرج الطائر من رماده مرة أخرى. بصمت. يتابع خطوه على الرصيف. خطو رجل مصدع، محرور، لكنه بمزن يطل على حوافي الموت والحياة. فجأة يقف تحت شجرة: أتعلم بماذا أفكر الان؟ أحلم بالخراب. أجل الخراب. ان تضرب هذه المدينة بالقنابل فلا يبقى مأوى. ان تتحول جميعاً إلى لاجئين. تلك المرأة التي سهرت معنا ضعيفة. أكرر ذلك لكنها مطمئنة. كلنا مطمئنون. البيوت المريجة قائمة والخمر وافر والكلمات والأرصدة. الناس تبيع وتشتري. تكذب وتضحك. هؤلاء ماذا يعرفون عن أوقات النحيب والوجع. ان يكون وطن أو لا يكون.

يبدأ قر دمشق بالشحوب. الأرصفة تلمع بالضوء والمطر. في الريح الرطبة أسير. رائحة دمشق تهب كما تهب ذكرى مفعمة بعدوبة تجتاح القلب والحنايا. دمشق متوحدة مثلي تحت صمت الزمن القائم، وقلبي العاشق لدمشق يبحر في الروائح والهجرة الليلية.

- «لماذا تموت دمشق العذبة الحقيقية».

لكن بوادر الموت كانت تهب رغم ارادتي من جميع الجهات. تمنيت لو أدفعه عنها. وألاً ترحل مني إلى ما وراء الحجارة والكذب. هي ذي تخرج من ضلعي طفلاً في لون زهر الزنبق. فوق العشب نمشي عبر السهول الخضراء التي هجرتها وأنا طفل. العالم يزدهي بصفاء غير محدود. فوق العشب نجري. مشتبكة أنا ملي بأناملها: هذه مروج طفولتي. تفرغر ضحكة كالفجر. وفوق العشب المبتل نخب: هنا شممت روائح الضوء والخصب والليل. اصارحها بأنني لا أحب أمينة ولا ديانا ولا ناديا. تحت جناحي اضعها ونسافر بين ظلال العشب والصخور الندية. قرب خيمة نمر: هنا حكى لي كيف تقتل الأفعى ولماذا يهاجر الكروان في الأصياغ المقمرة من جزره البعيدة ولماذا ينوح. تلامس أقدامنا طراوة العشب. تسأل بغربة عن هذا العالم المضاء. أقول: هذه بلاد الفقراء المفطورين على حب الأرض والعمل والماء. تمتد بناييع نحسها تتغلغل في التراب والصخر. وحشة وصمت ومدى. هاربان من الكون الملوث: هنا تشرق الشمس من وراء الصخور. تنمو فوق العشب

ثم تنام في البحر: انظري إلى البحر الأخضر إله كوننا الذي لا يغيب.  
وقلت: هيا انشدي شعراً للأرض. وبصوت أخضر تغني. ومن أفق البحر  
ينبتق وجهه القاسي التعب مموجاً بصفاء لا حد له يسألني: إلى أين تبحران؟  
ونسير. أطوقها. أصابعي تداعب خصرها الأخضر. كالرعد يدوي صوته: انما  
هالكان!

وأقول: انشدي أيضاً. تطوقني لآفة شعرها الشمسي حول وجهي. الروائح  
التي أحبها تهب: الأرض والطفولة ومنى. أتجلى الآن وننحل معاً في مجد الأشياء.  
فوق العشب نرتمي، نتمرغ برائحة هذا الاخضرار الممتد. إلى أضمها. ادخلها أيضاً  
فأسمع صوت الضلوع. أشعر بجمارتها فوق المروج فأقول: نحن من رحم واحد. غني  
أيضاً. وندخل في الموسيقى والروائح الجميدة. ها نحن نرتمي حبتين في التراب.  
نبت. نخضر. ومن ثم نزهر والريح تماوجنا. يطل القمر ومنه يخرج وجه أبي وعلى  
نفره أول افتتارة عرفها.

[ ]

أي رضى تتمدد فيه الآن. هذا العالم صحي ومريح. لقد انفجر الضغط.  
بعد خروج القبح الجسدي يبدأ سلام العالم. تقول وهي تبسم: أنت من انصار  
الثورة الجنسية ثم السياسية. هاه؟  
تبسم وأنت ممدد على الخوان فإرداً ذراعيك. احدهما يطوق عنقها والآخر  
سائب.

- حدثيني عن طفولتك.

- لماذا تهوى حكايا الطفولة؟

- حكاياها نقية لها رائحة خاصة.

تحت منابت شعرها تدب الأنامل. تنمو كقطرات بين عشب له ملمس  
الطيلسان. توغل هي نحو طفولتها، نحو حب قديم في حي قديم. الروائح ترتقي  
داخل غابة نفسها الخريفية فتكتسي زهراً ربيعياً. وجهها يتألق، ويشع صدرها  
العاري شقائق ونرجساً. دفء الغرفة وسلامها يمنحانها وجداً مؤثلقاً. كأنما صوتها  
ينوح للمرة الأولى قادماً من وطن منسي، دقاً حزيناً. غبطة بيضاء تغمرنني. أتذكر  
الحلم الذي مضى وهي تسرد قصة حب طفولي لم يعمر أكثر من شهر. انطفأ  
لكنه ترك في الذاكرة جرحاً لا ينسى.

كانت الأنامل ما تزال تمارس بهدوء طقسها في كنيسة البشارة الوردية .  
ووجهانا يقتربان فأحس لفتح الحرارة . وتساألني ان كنت أحببت في طفولتي . فأجيب  
بأن حب الصغار يشبه قصيدة بكرةً تدندن في النفس وتخرج للمرة الأولى دونما  
تصحيح . بحركة غريزية ترفع حمالة قيصها الزهري مغطية بها النصف الأعلى لثديها .  
فجأة أسحبها فيلتحم الوجهان آخذاً كلنا شفيتها بشفتي . على كني الأيسر يستلقي  
رأسها بينا يغيب وجهي في ذوائب شعرها .

كانت تتنفس ببطء فوق لحم كني . أهاجني اللفح الخارج من جسدها  
فضممتها أكثر : كم أنت عذبة الآن !  
- اضفط أكثر . أريد أن ألد لك طفلاً .  
- سيكون عظيماً وفاشلاً دون شك .  
- سيحيا بلا أب .

- أنا أحبك اذن أنا موجود . أقولها مزاحاً . فوق الجلد أشعر بحرارة الدمعة .  
لحظة من الوجد تمر الآن . أتمنى أن نبقى هكذا إلى آخر الدهر بارتعاش أحمس  
لها عن غابات قصية خضراء ، عن كهوف مهجورة لم يطأها البشر ، وعن بحار زرق  
ومروج تستحم بالشمس وتبترد بالليل ، نسكنها ناسين مدن العالم الغاصة بالكذب .  
وإذ تلفحني أنفاسها المتباطئة ، وبدء حركة من وجهها الذي ينسحب ،  
أذكر عالمها المرتعش وهربها من شيء مقيم فشلت حتى الآن في انتزاعه من  
نفسها .

بهدوء ترفع رأسها . كانت العبرات تنساب في محاذاة أنفها . بشفتي مسحت  
الدمع فأحسست بالحرارة . وبدت الآن عذراء تشبه الغابات التي أحلم بارتيادها . بين  
ثديها غمرت وجهي . وبما لا يحصى في كل مكان من صدرها وعنقها ووجهها ،  
قبلتها . في أرجاء الغرفة حملتها . بدت خفيفة كالنسائم . غنيت لها لتفرح ،  
ورقصت . فابتسمت وفاضت عبراتها ، ثم دخلنا في الغبطة .

وكان ان جاء زمان عصيب لم نحسب له حساباً فيما مضى ، زمان تساوى فيه الحب والكراهية ، الابداع والغباء ، الانتهاز والثورة ، وفي ذلك الزمان الفاجع نمت الأعشاب الضارة وراحت تمتص جذور الخصب والحب .

زمان شبيه حد المدينة ، وملايين البشر كانوا يعبرون فوق ذلك الحد . وكان الكثيرون يخبون نحو الشمس المحرقة ، بينما آخرون يغربون باتجاه اللج ، وكانت الذاكرة وحدها المنجى من هلاك محقق . وفي أي مكان من أرض العبور لو سألت العربي . إلى أين تمضي ؟ لأجابتك : مع الريح !

وفي ذلك الزمن كنت أمضي نحوها . وكانت منجاتي . عنها تحدثت بجملة واخترت باختيارها النبي والكراهية . وقال الذين في سمعهم وقر : انما أنت أحقق ومثالي . تضع رأسك تحت المقصلة مجاناً . وكنت أقول وأنا أمضي بعيداً عنهم : لشد ما أنت وحيد بين بشر وحيدين . ومع تراكم الأيام الحزينة ، همت بشوارع المدينة وصمتها . أرصفتها الليلية ومطرها . تلك الأشياء كانت تبدو لي في أوقات الضيق وحدها الملاذ .

وجاهداً كان يحاول أن أكون استمراراً لافكاره ، لرغبته التي هوى بها في رحم الأم .

وبنزوع تمردي شبيه بثورة البحار ، كنت أحاول التنصل من ذلك الاستمرار المنجاني . أن أكون أنا بعيداً عن تاريخه المغمم بالأساطير وقوى الغيب . انني أتذكر الآن حكاياه عن الأحداث المخيفة . من قتل الحسين واحتزاز رأسه بسيف الشمر ، إلى نفي أبي ذر إلى الصحراء وأنباء أبناء سبأ وعذاب آل ياسر ، واذ أحاول أن أسأله وأنا أستلقي قربه في الخيمة البحرية : هل الله انسان ؟

يصرخ في وجهي بوحشية واستنكار، يستغفر ربه ويتمنم بعض الدعوات .  
بعدها يشرح لي أن الله كفاية كلية، قد يتجلى شيء من روحه في أنواع من البشر  
الخاصين المتفوقين على البشر العاديين، وهؤلاء قد يختلفون في الجسد والزمان،  
لكنهم روح واحدة خالصة ونقية تتميز بقدرة أعلى من قدرات الناس لكنها دون  
قدرة الله. واذكر انه ذكر أسماء منها: يوشع وشيث ويوسف وهابيل وسقراط  
وأفلاطون والمسيح.

أما الله فطلق لا يحد أجل من الجسد والزمان والمكان. وينبني متحدثاً عن  
العقاب والثواب والجنة والنار ويوم القيامة والحساب الأخير، وظهور الرجل المنتظر  
الذي يخرج من عين الشمس، ومعه رجاله الثلاثمئة يملأ الدنيا عدلاً وقسطاً بعد  
ان ملئت قبله جوراً وظلماً.

لغة غريبة كنت أسمعها منه فأرتعد من الذعر، وقبل أن أنام أسمع دعواته  
واستغفاره في صمت الليل ورهبة البراري على أنغام أجيح البحر الرتيب.

وفي تلك الليالي كنت أرى أحلاماً مخيفة عن رجال يسرون فوق شعرة الجنة  
والبحيم، فيسقطون في مراحل مليئة بأسفلت يغلي، ثم أرى نفسي في أراض  
مزروعة بالأفاعي، وفي حضور رجال يقتلون ويمثل بهم، يعذبون حتى الموت  
ويسألون أسئلة لا يجاب عليها، فتسلخ جلودهم وترمى أجسادهم إلى نار متقدة.  
بعد أن شببت أدركت إلى أي حد كان ذلك الرجل التعب تعيساً ممزقاً بين  
الله والأرض. وإذ قررت رفضه حدثت بمنى على نحو طفولي مراهق. إذ ذاك  
كانت الأسئلة محيرة، لكنها كانت مثيرة مشحونة بديناميكية شاب يرغب الالتصاق  
بالأرض. ويومها لم يكن رفض السماء شيئاً يعبر بمجانبة الريح.

لكنه ذات ظهيرة مات. كان موته مؤسباً، وأذكر اني بكيت لفقدانه  
بفاجعية لا حد لمرارتها. بدون مقدمات مات. حدس هو بذلك. وفي عالم لا يقدم  
تفسيراً لكل ظاهراته، نَموت وازدادت وحدتي. مع الآخرين ناقشت مسائل معقدة  
كان الموت أحد أطروحاتها غير المعقولة.

- «أنا الآخر سأموت أيضاً ولن أسأل ان كنت أرغب في ذلك أم لا» .  
نَموت أيضاً وقرأت. ناقشت وتأملت. فرحت وحزنت. انتميت ورفضت. عشت  
واكتشفت. وها هي دمشق أخيراً تحت شمس القرن العشرين: الاحتلال على  
الأبواب واللاحب. الفردية والجبن والسطوة والقمع. التجارة والكذب. الخيانة

وعلامات الانقراض. مدينة من الأشواق تبحث أجيالها عن الطمأنينة، وقليل من فيها يفكر بهوية هذا الضائع تحت شمس القرن العشرين.

- وائل ما فائدة الثارات الداخلية؟

- أبي!

- سامر لماذا تلف عمرك بين الخمر والنساء؟

- أنا وليكن من بعدي الطوفان.

- مسرور لماذا لست في الحرب؟

- ديانا!

- أيوب لماذا زوجتك تخونك؟

- الماضي هو الخائن.

- راني أنت جاد في البحث في ابحارك نحو النفوس التي فقدت رضاها؟

- عندما تكتشف السر النفسي تكتشف أرض العربي المهجور!

- ما رأيك في الاشتراكية؟

- اذا اكتشف قانون الحرية تكتشف نظرية الانسان الاشتراكي.

- وفلسطين؟

شريط الحزن هو في كل الأماسي. نحكي ونفرح ونغني ونسأل. نشتم ونحب.

وفي أواخر المساء ينيخ الحزن في الغرف السرية. حزن مسحوب من ضلوع العجز

والتسويغ. ثم نمضي في تيار الوقت كما الأوراق الساقطة في تيار النهر.

كان واضحاً انه جيل يرتعش في القطاع الأشد خطورة. القطاع الأشد كشفاً

عن نفوس ورثت تاريخاً مضطرباً. تاريخاً قانونه اليومي الدين والكبت والكذب

والاضطهاد.

ولما أفصحت لراني عن التمزق والمصالحة بين ما ينبغي وما هو قائم وضياع

منى بينهما قال: التقيت قبل الأوان. وأجبت: بل بعد الأوان. ثم أردفت بانها في

نفسي قبل قدومي إلى دمشق. وأنت تذكر ذلك. هل نسيت؟ وأذكر جيداً

كلمته: لو ولدتما قبل عشرين عاماً وتزوجتما لكان الأمر مختلفاً.

- أحاول أن أخطفها نحو الجبال الوعرة.

وينه: أي رومانسي صغير أنت!

يومها أجبته : لو تنظر إلى نفسك كيف تتحدث أبداً بوصاية . بطريقة من يخيل إليه انه اكتشف أسرار العالم والنفس بينا البشر في نظرك ما زالوا في طور القروء؟

- أنا أحترم صفاءك في هذا العالم العكر ، ومن بين جميع الذين عرفتهم كنت الجدير بصدقتي ، لكن صفاءك تحول إلى مرض . هل تدري انك متصوف عصري؟

ويومها أذكر انني حاولت الدفاع . جهدت لأوضح له فكري عن النقاء والتزامي بمنى ضد الخدع القائمة ، وان كلمة متصوف بمعناها الديني لا معنى لها ، وان بعض المفاهيم والمفردات التي التصقت بالدين يمكن أن تكون ذات معنى بالمفهوم العصري ، وليس الدين بمجموعه ميتافيزياء صرفة لا صلة لها بالحياة وأعماق النفس البشرية ، والحكاية وما فيها هي كيف نبتق من التاريخ بمعان جديدة غير فاقدة لأصولها . ثم تحدثت عن ردود الفعل في الثورة وتسممها بالدين الشائع والخوف ، وان الماضي ينبغي أن يكون حافزاً لا مخدراً وقيلولة ، وان هذا الجيل الآن يتكون بين قطبي الاهانة ورغباته الشخصية ، ينسحق تحت ضربات الخيبة والتحويلات المغامرة والفرع من ماضيه ، وهو اذ ينصاع لعلائق الدين المرضية ، يقتل الثورة معتقداً بأنه يحييها .

وقلت : حتى نتظهر فعلاً ونقيم ثورة لا بد أن يسيل الدم وتدمر الشرائع الاستسلامية والقوانين السائدة التي سننها البورجوازية الدينية في هذا الوطن .

واذكر يومها انه تحدث بحماسة عن تدمير العلاقات القديمة التي سماها عوسج الأرض ، وألمح إلى دور السياسي ودور الشاعر وإلى السطوح والأعماق . وقال بأن الشاعر الذي يبدو منبوزاً ولاجئاً هنا ، يشكل الضمير النفسي للأمة باختياره المغامرة الخطرة في أعماق النفس الانسانية حيث الاسلاك والروائح العطنة ، وكمون عصارة الأرض المحجوبة عن الشمس .

واذ ذكر عبارة عصارة الأرض ، استوقفته قليلاً مبدياً ملاحظة حولها : بأن هذه العصارة غير الشمسية ربما كانت هي ما نبحث عنه وان أوراقنا ربما سقطت هناك . وتابع فكرته عن وجهي السطح والأعماق بأنها ربما يحلان المعادلة الواحدة . لكنه استطرد سائلاً : هل يمكن للعنين أن ينجب؟ جرب أن تقرب من تلك الأرض المحتلة : الدين . الجنس . الحربة . هل تعرف من أين سيأتيك الرصاص



والحجارة؟ كيف تطاردك الكلاب؟ وكيف سترمي هناك كحشرة دونما ضجة: لقد سفّه أوثاننا. هيه. لكي نكون بشراً ينبغي أن يحطم كل فرد منا أوثانه الداخلية. ويقلب شفتيه ثم يبصق. بصقته تحدث صوتاً كصوت الطلقة في أعماق الليل الساكن: السياسي على ضفة والشاعر على ضفة أخرى وبينها وادي اللغة. لغة الشاعر جارحة مسنونة تهوي عميقاً نحو العصاره، أما الآخر فلغته خادشة، أفقية متوازنة، بينها وبين العوسج حوار ودغدغة.

كان المسير قد أودى بنا إلى سفح قاسيون. من هناك كانت تبدو دمشق مملأة راقدة تحت السفح، وكانت الخمرة قد طارت. على حافة شريط حديقة مسورة وكأ كوعيه وراح يحدق نحو دمشق.

في أية لحظة كنت أتوقع منه شيئاً آخر غير مقدمته التي بدأها، وفي أعماقي كنت أتخشى ذلك. لقد عرفت فيما مضى مزاجه الحاد وفرديته والأذى الذي أصيب به، وبشفافية مفرقة في البعد كنت ألمس هشاشة التحامه بالمدينة. كانت توجد في ذهنه من خلال أشواق صغيرة، من خلال حنين يرف في ذاكرته، لكنها لا تجتاحه كسامر البدوي الذي عبر يوماً عن هذا الحنين: حنيني إليها لا يختلف عن حنيني إلى جسد امرأة.

بعد أن ملأ عينيه من جسد المدينة المزدهرة بالأضواء والصمت، وقف ثم انجبه نحوي. كان وجهه كظيماً فيه قسوة تغطي ألماً داخلياً يجهد لإخفائه. سألتني ان كنت أحب دمشق فابتسمت. وألح أن أجيب عن سؤاله، فقلت بأنني لا أكرهها ولكنني أحب الريف والبراري أكثر. أنا لا أطبق هذه المدن التجارية.

انني أتذكر الآن كيف سخر من هذه الخرافات، فسماها شطحات صوفية ساذجة، ووسمني بأنني ملثا بأرواح الأجداد الذين مضوا وصاروا حكايا منسية أضيفت إلى أساطير الشرق المسكين المتعلق بأذيال المطلق في عصر النسبية وغزو الفضاء: شرقك المقدس. بمقت مرير ساخر ذكر الكلمتين الأخيرتين. وأضاف بأنه قد قرر الرحيل مرة أخرى، وان هذه المدينة كغيرها من مدن الشرق لا تقدم إلا الفشل والتبرير والروائح الكريهة والمقايضة، وانه ينبغي هدمها واعادة بنائها. وقال: عبث هنا وجود الانسان وباطل. الكل باطل باطل ولا نفع من أي عمل يعمل. نحن هنا طفيليون على مائدة التاريخ. محض أفراد منفيين في غابة تحوطنا أحراش الوراثة والبيئة والدين. وكلما حاولنا التقدم خطوة إلى الأمام نتعر بهذه الأحراش.

إلى الجحيم كل ما هو قائم. قال ذلك بثقة داخلية مطلقة، فأحسست انني أواجهه الآن عارياً تماماً، مفصلاً تماماً.

لم أعد على مسمعه قضية عصارة الأرض التي لم تر الشمس بعد، ولا قضية الأوراق المفقودة. كنا اثنين الآن. وبيننا مسافة. انكسرنا اذن. كسراً لا جبر له. ما عاد لنا غير هذا التابوت الليلي نتحرك فيه نثر آخر المراثي، ونرش روائح البخور. وكما قال وائل: نحن المحمولين اليوم لا الآباء. النفوس افترسها ذل وانتهاك. رجّها رجّها حتى صارت في لون الغرين. هشيم، مساحة منه اندلعت فيها حرائق شاسعة عصبية على الاطفاء. «وداعاً يا وطني» هوذا يقولها الآن. سمعها في بيروت بعد أن خرج عصر يوم محروراً مصدّعاً من مبنى الجامعة الأميركية، ولكن هل سمع صوت مناحيم بيغن: «أنتم الاسرائيليون ينبغي ألا تأخذكم رحمة عندما تظفرون بأعدائكم. عليكم ألا ترحموا العرب حتى تدمروا حضارتهم التي سنبنّي على أنقاضها حضارتنا نحن»؟

راني غضب وغريب في ليل جهنم. وأنت هنا. لا راحلاً ولا مقيماً. قائم بين السيف والنطع بعد أن لمع البرق أخيراً، شاطراً قوس قزح إلى ألوانه الاساسية. تقف على مفترق الدروب الثلاثة: درب السد السائر فيه لن يرد. ودرب الحريق ودرب الغريق. وعليك أن تختار يا علاء الدين.

---

## الفصل الرابع

---



هي الريح ، والعربي مقذوف عبر تيارات . بعنف تدوي . رياح من بلاد  
قصية . والريح النفسية دائمة الهبوب مشحونة غيظاً وثأراً . عصفاً تهب من الداخل .  
والعربي حكاية قديمة حديثة ، ضائع هو في مجرى سردها . والريح الاعصار قادمة  
من بردى وميسلون وحطين والقادسية وذو قار وكعوش والطفولة . ربح مفعمة  
بالموت .

وفجأة تلك الشجرة . ختام المرثية ومحطة النوم . أخيراً توقف خلايا الجسد  
بايقاع الفجيعة . والذي يوقظها انبجاس الدم الحار من الرقبة والشفتين والزندين  
القويين . من الصدر الفتي . هو الدم وهدى محظية عربي القرن العشرين ، ساكنة  
هي الأخرى . على شفتها ابتسامة جمدت في لحظة الفجاءة . كل شيء ساكن  
الآن . حتى الريح والزمن ، فوق الجحشين .

الذي كان جميلاً وفتياً . والذي عرف الفرح وجنون الجنس . والي أقبية دمشق  
المظلمة ، سقط الآن .

- هل تعتقد بأنك سفاح؟
- أنا أعيد إصلاح الكون المختل .
- وسادي .
- حيوان متغطرس تدين البشر وأنا أمقتك .
- أحد أصدقائي كان يقول : علينا أن نرثي للضعف البشري .
- لست ضعيفاً . أقوى من كل آهتك أنا .
- لو لاحظت يوماً أنك تكثر من استعمال كلمة «أنا» .
- أنت وتاريخك قضيب وفرج لا أكثر .

- بلى. أصف: وسمح لها بالولوج والخروج والاستراحة، ضابط مخبرات موكل بحراستها. يشرب ويدخن بعصبية عاقداً حاجبيه. هذا الشرس المثير للحرارة والضحك معاً، هوذا في النهاية يموت.

- أتكون فاجعة العربي أنه فقد ماضيه ومستقبله؟

- لن ينقرض العربي. فيه دم يثور في لحظة الخطر.

- ولكن هل فوران الدم يصنع التاريخ؟

في نهاية اللعبة تتفجر الأشياء. الثبات ليس قانوناً أزلياً. والذي كان، يمكن ألا يكون، والإرادة البشرية هي القانون: أنت تثار فقط.

يقول: أنا أعيش طفولة مستلبة.

وأقول: أنت لا تفهم قوانين التاريخ.

ويلعن التاريخ ويلعني. تجتاحني موجة مرارة فأضغط أسناني بقسوة.

وفي البيت المعزول في ضواحي دمر تمزق لحم هدى، بعد أن مزق بكارتها. بالقبضة الوحشية والأظافر والأسنان، هشم لحمها العاري، وفوق البلاط ضوجعت وهي عارية. جرح ثديها وامتنص دمه ثم حملها إلى ضفة النهر وبين الأعشاب مورست محاولة القتل والمضاجعة. وكان معه زجاجة خمر. فوق الأعشاب حاول حرقها فصرخت وتوسلت. كمّ فيها وضغط. واستثير فضاجعها، وإذا حاولت أن تهرب أمسك بها، وحاول خنقها فصرخت بأنين إنسان يرفض أن يموت.

ندة الرجل: بعرضك.

وقال له: عرضك بين فخذي يا جاسوس. متآمر. خائن. ابن قحبة. عرّوه وجيثوني به. وبسوط أسود موتور يضربه على وجهه وصدره ومعدته حتى يتدمى. أنّ وتوجع فضربه أيضاً. وظل يضربه حتى انهال وتكوم رمة فوق بلاط القبو. على رأسه ضربه فانبثق الدم، فرفع الرجل يدين منهكين محاولاً حياة رأسه، فانهال السوط فوق اليدين المعروقتين فسقطتا. زحف. قبل الأرض وقدميه: بعرضك أنا بريء. بريء. وصرخ به: اخرس. كلكم كلاب والكلب يُقتل. ضعه على الكرسي الكهربائي.

ومن تحت جلد الأرض تصاعد أصوات حزينة مهانة. أصوات موجعة تحملها

الريح من أقاصي أرض العرب . تصطدم بصوت منى : ألا تسمع ؟ كيف يكون حباً في هذا الجحيم القائم ؟

أقول : اغفري لهم فهم لا يعقلون .

وتقول بان الزمن يمضي والعربي يحرق الزمن وهو سادر . إنه يمضغ القات والأفيون والحشيش ويشرب دم أخيه ولن يلتقي مرة أخرى بالزمن . وكانت تنسحب الآن وتمضي .

وقالت النفس : هي ريح عابرة تسفيهم في غفلة الذاكرة . وكنت أمضي . ولم أكن أستطيع فعل شيء من أجلهم . وكانت فلسطين تهوي تحت الاعصار ، والاعصار يحمل نشيد «الهاتكفاه» :

« نعود للوطن

وطننا إسرائيل .

إنه الآن صغير

لكنه سيكبر ويتسع ،

وسنبنه بأيدينا

من النيل إلى الفرات .» .

ومن النيل إلى الفرات كانت الأماصي مترعة بضوضاء الكلمات :

- اشرب . نخب الثورة .

- متآمرون يريدون تدمير الحزب .

- البورجوازية الوطنية تلعب دوراً في مرحلة بناء الثورة الديمقراطية

الاشتراكية .

- لكن ماركس قال بالطبقة العاملة الطبقة الثورية الوحيدة .

- وباكونين قال بالفلاحين الطبقة الأساسية .

- تروتسكي رفض الثورة في بلد واحد .

- بينما لينين قال بإمكان بناء الاشتراكية في بلد واحد ونادى بتحالف العمال

والفلاحين .

- من المصيب ومن المخطئ ؟

- أعتقد بأن البروليتاريا الإسرائيلية ضد التوسع؟
- وهل في إسرائيل بروليتاريا؟
- أنا أعتقد أن النضال ضد إسرائيل لا ينفصل عن النضال ضد الأمبريالية والرجعية وبناء الإشتراكية.
- كان عبد الناصر وطنياً وإصلاحياً لكنه لم يكن كاسترو.
- والجزائر تبعد آلاف الأميال عن فلسطين.
- حسين جاسوس بريطاني.
- يا أخي الأزمة أزمة ديمقراطية.
- لا. أزمة علاقات موضوعية وتفشي الانتهازية والديماغوجية سيحرق الثورة.
- نحن مخدوعون.
- بل محاصرون.
- قل معزولون ومحكومون بالعسكريتاريا الانقلابية.

ومن بيته القائم على ضفة النهر إلى دمشق كان يسير بقوة الريح والموت . مطر ينهمر . وسيارات سريعة أضواؤها كانت تواجهه بأشعتها الحادة . ومن الداخل كانت الأحاسيس توالي انفجاراتها مضوأة بأنهار من روائح الماضي مختلطة بروائح الأفيون والجلود المحروقة ، والريح تحمل أمواج النور الحاد والصور القديمة . كل شيء راح يهتز تحت العجلات وتحت القبضة التي خدر عروقها الأفيون . وقالت المرأة المذلة : حبيبي وائل انتبه . أنت تسرع .

وكان هناك منعطف لفه بشيق . سرعته ازدادت إحتقاراً للمرأة . مالت فوق كفه فنترها عنه . فجأةً بهر النور . مليون لون وشعاع رقص على شاشة عينيه فصار أعمى ، ودونما شفقة طعته شجرة حور ، دمشقية ، صلبة ، باسقة .

[ ]

في الصباح كان قد انطفأ واستراح . وفي الصباح لم يلبس أحد حداداً . وكانت المدينة مستمرة . بالحادث أخبرت منى فأغمضت عينها لمدة ثانية ، قبلتني بكل لامبالاتها المعهودة ، ودهمها حس الزمن فضت .  
في غرفتي بقيت وحيداً . ثملت . غرقت في بحار من ضمت . حلمت بمسافات



وهجرات لا تتوقف. شتمت وصرخت وضحكت. ثم سألت الله: لماذا يولد الإنسان إذا كان سيموت؟

وكنت مُهكاً فهويت فوق فراشي البارد.

(وجاءني صوته بعد حين. حزيناً مطعوناً مدمى. على وجهه علامات انكسار وقال: كنت مخطئاً قل للجميع أن يغفروا لي.

وسأله أن يعود، فقال: لا أستطيع.

وسأله: هل هناك جنة ونار؟

فأجاب: بلى.

وكنت خائفاً. وكان هو ملفوفاً في كفن داخل ضباب رمادي، وبدأ لي جسده شفافاً، ورأيت قلبه وفي وتينه شرح، وكان القلب كروياً ودمه أسود، وعلى الكفن بقع زرقاء يابسة. وبدأ لي يرتعش من الصقيع، بينما يداه غائرتان في بحيرات الضباب.

وسأله: اسأل لنا باريك هل ينقرض العربي من الزمن؟

(وجاءني صوته خافتاً يقول: كونوا مع أنفسكم.

وسأله عن اللعنة التي تحدث عنها الأجداد فقال: الله غاضب.

وأذكر أنه كان شبيهاً بنفسه، سوى قبضه الملوث بالدم. وقلت له: لماذا

لم تمت في فلسطين؟

وكالصدى جاء صوته: لم يكن خطئي).

ذا وجه نضير كان. قوياً كهياج موج البحر. وفي جسده المتناسق لم يكن هناك خطأ ما. بثقة كان يسير يأكل ويتحدث ويمس قيادة السيارة. يضاجع ويملم ويتسم. وبوداعة طفل كان ينام في أواخر الليل. كان يجبا.

في خمارة الواحة صادفت سامر البدوي. سلمت بقليل من الاهتمام ثم خلعت بعطني: أين أنت أيها الخنزير البري؟ وإذ لم أجب سألتني أين أمضي أيامي لت قرفاً: الوظيفة والشارع والخهارات.

وحدثني أنه لهف إلي، ولديه أشياء جديدة يريد أن يبوح بها فقلت: إنك تكذب وتبالغ وجديدك لن يكون أكثر من امرأة أو حادثة عابرة. وقدم لي كأساً، وكنت منقبضاً وفي أعماقي ميل لإهائته وشربت بنهم وقال: أنت لست على ما يرام

وقلت : أنا على ما يرام تماماً. وسألني أسئلة عادية عن منى وأمينة ، ثم انتقل للحديث عن ذاته العليا وقصائده الجديدة. واذ حشا نصف رغيف لحماً وراح ينهشه ، انتهت إلى الموسيقى .

كان قد مات إذن. واذ بدأ يقرأ أشعاره فكرت بالموت الذي ارتسم على شاشة الذاكرة وشما لا يريد أن يغادر. سمعت بعض المقاطع من قصيدته عن الموت الفجائي والزمن الطاعن في الغفلة. وأوغل في متاه سريالي لا يدركه إلا هو . بعد أن انتهى من طقوسه الشعرية سأله إن كان قد سمع بالحادث ، فتناول كأسه وغبَّ برغبة رجل يخاف الموت وسحب لفافة أميركية أشعلها ، ثم زفر الدخان وتأوه : أجل. مات هنا.

- ككلاب جربة سنموت جميعاً هنا.

وانتهت إلى جملي العقلانية فتناولت الكأس وصبته في عروقي. وسمعته يثرثر عن القصور والخلل في الجيل الناقص ، المقتول وهو حي. الجيل الذي قال عنه راني : لا أرض له ولا آلهة.

وقلت بأن إرث الوحل والشمس يسري في دمانا منذ ألف وثمانمئة عام وهذا مهين. وتحدثنا عن الرجل الذي مات في ذلك المساء ، حديثاً حزيناً له رائحة المراثي. وفي تلك الليلة شرب سامر حتى البكاء. وغب ذلك غادرت الواحة بانجاه حجرة أمينة.

□

هي ذي دمشق للمرة المليون ، وأنت التائه في دروبها المتشعبة. عن أي شيء تبحث وإلى أين؟ ودمشق في الذهن ، غبطة سارحة كبردى في مواسم الفيض ، وفي التاريخ حجر صلب ، رُسمت عليه فاتحة يمسحها المطر في الشتاءات القاسية. ودمشق مرسى ومسرى ، حكايًا وحجارة ، صمت وزمن يخترق العظام في أزمنة النسيان. والرجل الباحث عن بديل أيه ذئب ضيِّع قطيعه ، وأضاع الدرب إلى البيت. واذ تحاول أن تسأل في السر: ما الذي يحمله المستقبل؟ تطوقك الريح واللحظة التي تمضي.

مضي. مضي. من رصيف إلى آخر. تبه يقذفك في تبه. والذي يراك فوق الأرصفة في أواخر الليل يهزاً ، وأنت تقول : الأشياء ليست هي الأشياء. ومن مكان ما يقذف أيوب السرحان كلماته كرصاص.

الحوار الذي بدأ قبل سنوات ، منذ منتصف القرن العشرين ، ينمو في الدم ،  
يطلع سقوطاً وصعوداً . أحياناً تتداخل الأجيال فتصعب الرؤية وينعدم التمايز . وفي  
تلك اللحظات تنفى منى فتصير غريبة في بلادها .

صوت أيوب اللاشعوري يود الإفصاح : لن تكون سيد العالم وستمضي .

- لكن العالم لا يتراجع .

- العالم ينهار . والعربي يعبر زمن الموت .

- للفصام زمن ثم يأتي زمن الصحو والعالم لا يعود نحو الخلف .

- لستم أكثر من قافلة عابرة في صحراء الربع الخالي .

- أجيال قادمة تولد .

- ستسلك طريق وائل وسامر .

- لم ينكشف العالم لوائل .

- كلكم هو .

- دم الضحايا لا يُنسى .

- لكنكم سترحلون يوماً عن دمشق .

- دمشق للفقراء .

والنساء والخمر والسيارات وكراسي السلطة والأرصدة والإرث الناقص ؟ هذه

فخاخكم ودمشق المقبرة .

- ثمّة منى !

- منى نجم بعيد . سراب تلهثون خلفه يتعد ليظهر من جديد .

أستنجد . تتسارع خطاي . ريح حارة تلفحني .

- « آه . أين أنت منى ؟ » .

رذاذ رطب . عذب كسقسقة الثمل في العروق ، يشعرك بخصوصية المدينة .

مدينتي الآن . تطوقني رطوبة الطفولة في الخيمة البحرية .

[ ]

ها هم يعبرون ضفاف السواقي . مجارفهم ومعاولهم فوق أكتافهم . أسمع

خطواتهم وأنا مستلق في خيمة القصب . عبر سواد الليل يخبون الخطا وهم حفاة وقد شتموا حتى الركب . الشوك والحجارة تجرحهم . أرجل وسواعد مرشومة بالوحل . مع الماء يمضون نحو الأراضي العطشى . الأراضي التي ستعطيهم العشب والمواسم . والماء ليس ملكهم ، بئس المؤونة اشتروه من جلاديهم عندما كان الزمن كالماء سائباً مفلتاً منهم .

مع الشفق يمضون وهم يغنون ، والعالم سلام وغبطة . السهول اخضرار مده البصر ، والبحر والقمر ساكنان ، والصيادون ينشدون عبر البحار الزرق ، والرجل الصلب الغاضب من عصره وناس عصره ، قائم هناك بين الشفق والأرض ، يضرب الأرض ويغني ويصلي ، من الخيمة أسري صوبه فيسألني لماذا أتيت فأقول : لأساعدك . فيقول : اذهب ونم . أنت ما زلت صغيراً يا حبيبي .

- ولكنك وحدك وتتعب .

- عندما تنمو وتشبّ تقدم نفعاً .

- أستطيع أن أراقب لك المياه في المسكبة . بعنف وصلابة يجرف بمعوله الأرض . في عروقي يرن صوت الضربات وجرف الحصى . صوت الوحل وصوت الرجل وهو يغني زمانه الخائن . ومن الفضاء الرحب المزروع بالنجوم يأتي صوت طائر الهجرات . نحو السماء أرنو بحثاً عنه فلا أراه . السهول الملونة تمتد موصولة بالبحر الأخضر . أشباح الفلاحين تعبر ماضية في الغلس . تحمل الريح رائحة عرقهم منحلة برائحة الخضرة والبراري ونشيش المياه في عروق الأرض . يختلط هذا الجمال القاسي برائحة الفضاء والسكون والعذاب البشري ورائحة أبي الذي يستلقي مع الفجر قربي ، بارداً ، منهكاً ، مستسلماً للسكينة الهابطة عليه في أواخر الليل .

- أنت يا أيوب حكاية قديمة ولدت في أحضان المسرة والربيع والغزاة .

- وأنت يا بني عاشق ملهوف لزوجتي وعلى حوافي جسدها تنظفني رائحة أحلامك الكبيرة .

□

بيني وبين نفسي بحث أخيراً بحبي لديانا . حدث ذلك قبل اكتشاف الخلل . وإذا تذكرت عجزها عن العطاء غضبت من نفسي ومن مسرور وغفرت لها . لأول مرة وأنا أستحضر معرفتي بها أتذكر كلمة راني عن الضعف البشري .

ديانا مجد جسدي يرغب مسرور وأنا. وديانا غائبة عن جسدها منحلة في الثياب والثروة وتأثيث بيتها، تود أن تفاخر به أعرق العائلات الدمشقية الغارقة بين المسلمين والبروكار والكريستال.

وإذ أدرك أن كل قوى العالم قاصرة عن تحريك سكونية مسرور واعتناقه جسد زوجته، أشعر بشفقة. لست أدري كيف تصورت أن ذلك الجسد لو واكبه وسار به نحو ربي فلسطين أتراه يتأخر لحظة عن المضي إلى (عين الغزال) التي تهودت الآن؟

وهي تريني آخر أثاث جاءت به، سألتها: هل تعتقدين أنكما مستقران؟ وبابتسامة نصف بلهاء زورتني، وسألني بماذا أفكر فقلت بالاستقرار فعلاً ثم استطردت: هلا تذكرت يوماً أنك زوجة لاجئ؟

وباستغراب هازئ وسمتني بأني مصاب بلوثة السياسة مرض المثقفين العصري، ولما ألفت عظتها: عليك أن تفكر بأمر أكثر جدوى. سألتها عن الجدوى في حياة الناس الذين لا وطن لهم وعن التفكير المرضي بالوطن.

وقالت: لم أعن الوطن. إنما هذه الحمى التي تتابكم جميعاً.

وقلت: الحمى تسميها إذن؟

وسألت: ماذا أسميها؟ أنتم مهووسون بحالة تنغص الطعام والشراب والملبس على الإنسان. أما عاد في العالم شيء آخر غير فلسطين والثورة؟ وسألتها إن كانت تعرف بماذا تفكر الإسرائيلية. فقالت بأن لها مباحجها التي لا تقبل التنازل عنها: بيت وسيارة وخزانة ثياب وأحذية وعطور وسهرات وبساتين.

بحق: لكنها تحمل السلاح أيضاً!

وقالت: في الساعات الحاسمة لن نتأخر عن حمل... واعترضت متمماً الحملة: الحقائق. وابتسمت بأسى. في الخارج تعول الريح. أنين الريح موثق. يندفع الغثيان نحو الحلق. صوت الريح عزيز جنائزي في ليل فجره لن يطلع قريباً. وهذا الفجر نقاوته مضمخة بدماء رجال لما يتقدموا بعد.

ديانا تسأل: لماذا يموت الإنسان مجاناً بينما يمرح الآخرون؟

أقول: تريدون مسروراً لك؟ تؤكد ذلك. أسأله: لماذا قاتل أبوه في الماضي؟

تقول: كانت مرحلة مختلفة.

وإذ أقرر أننا تحت الاحتلال وأنا مهددون بالإبادة وأن لا نكون. تسأل :  
لماذا لا يقاتل جميع الناس؟

- لمسرور بيت وأرض اغتُصبت !

تصفعني : فلسطين الآن ودمشق غداً !

بلا كلمة أهرب . أمتطي الشوارع . الريح مرة أخرى . ريح مسمومة . الاختناق  
فوق أرصفة المدينة . المدينة ضيقة والوطن ضيق . العالم ضيق وأنا محاصر ، معتقل  
داخل نفسي . أمضي في الشوارع الضيقة فيطلع وائل من جدران المدينة جريماً فوق  
شاشة المضي . ويدق صوت راني : دعنا نخرج من أزمة الانحطاط .

- محال . محال . كالجردان سنموت في المصيدة . يقول سامر . وأحس قلبي  
يخفق بشدة . وأسمع موسيقى التابو والرقص الشهوي للأجساد التازعة إلى المضاجعة  
بحرارة من يرفض الموت .

أصوات . أصوات عن التحرير . أصوات عن الماضي . صوت خيب فرس  
موسى بن نصير وهي تشق عباب البحر . أصوات الفلاحين في الليالي الغلسة .  
أصوات ملايين اللاجئين المدعورين يديرون ظهورهم لمواطنهم باتجاه بلاد الأمان  
والرصاص ، وصوت مناحيم بيغن يطاردتهم . ثم صوت منى الذي لا صدي له .

العالم الذي تصورته كاملاً منسجماً، شارفت فوضاه على الاكتمال. لقد بدأ أولى انهياراته. كل ما حيك خلال العمر من نسيج العنكبوت في سقف المغارة، ينقطع الآن تحت أشعة الشمس المتسللة من الفجوات: باطل. باطل الله والإنسان وكل ما على أديم هذه الأرض من أباطيل.

- عصور الضوء راني متى تقبل؟

- عندما ينبثق الدم أكثر.

- أما كفانا ما أهرق العربي من دماء؟

- الدم الآن مستقبل العربي.

(درب طويل وعمر. العالم ظلام. صمت الظلام يمزقه أنين مجموعات تناكب. الطريق بلا نهاية ينحدر كأنه شق عميق يخترق الأرض من القطب إلى القطب. جموع مهدودة بالظماً والتعب. فوق الراحات توابيت قتلى عارية من أكفانها. لا أحد يعرف إلى أين تمضي والذين يعبرون الوعر لا يعرف أحدهم الآخر. لا يسمع أحدهم الآخر، ضمهم المنحدر وهذا الليل لكأنهم آثمون مأخوذون بذنوب لا يذكرونها. الأحياء والأموات معاً في ليل عابق بالأنين ورائحة البخور. أحد ما لا يسأل الآخر إلى أين يمضي. لا علامات لهم. مجرد اشباح متحركة نهوي. الأموات فوق الأحياء. لا أحد يتقدم ليعين الآخر. المكان موحش. لا خضرة. لا ماء. لا امان. ممر خائق يزدحم بالأنفاس والأجساد الدبقة. فجأة تسمع فرقة سوط. الذي هوى تدوسه الأقدام العمياء. طلقات. الذي يتزف يثن. يطلب ماء فلا يلقى. ينكفي سافاً تراب الوعر. القافلة بطيئة. يزداد انحدار الأرض والهوي متلاحق. تختلط ضربات السوط بدوي الطلقات. كثيرون يهون وكثيرون

يداسون وكثيرون يلحقون دماهم الممزوجة بتراب الوعر ووحده الأنين يحدوهم.  
انفجار يهز ضمير الأرض ثم لا شيء).

في ذلك اليوم هفتت مني. كنت منقبضاً يوماً من أثر الكابوس. قالت: أنا  
حزينة وكسيفة. هل ما تزال غضباً مني؟  
وقلت: أبدأ.

وذكرتني بحادثة الأمس، حيث وسمتني بأنني تافه في حالة نرق. وقالت بأن  
الكلمة سقطت سهواً منها، وكانت تود استعمال كلمة أخرى لم تواتها في تلك  
اللحظة، وسألني عن شعوري بعد مغادرتها فقلت: الأسف. وأصرت أن تعرف  
لماذا فقلت: لأنك تحشرين جميع الناس داخل زجاجة مغلقة وتقذفين بها إلى  
البحر. وسمعت ضحكتها على الهاتف. واستعادت الحديث بمواساة: ولكنك تعرف  
قيمتك الحقيقية في نفسي!

- يوماً ما لم أشعر بهذه القيمة كما ينبغي.

وبرضى أكدت: حتى لا تصاب بمثل ما أصيبوا به من غرور ونسيان. ينبغي  
أن تظل في أقى حالات اليقظة. وبحت لها بأنني عرجت أمس على بيت أمينة  
وإذ رأني كثيراً خفت عني وألحت أن أنام معها حتى الفجر، ولكنني غادرت بعد  
ساعة تقريباً، وأني حلمت تلك الليلة حلماً مزعجاً سأرويهِ عندما نلتقي.

واتفقنا أن نلتقي ظهر اليوم التالي في غرفتي قبل أن تسافر من دمشق.

□

هذه المنى. النسغ الصاعد عبر الجذور. الاخضرار ورائحة التراب والتعب  
الجاثم في عروق الفلاحين، طائر الهجرات الذي أسمع صوته ولا أراه. أقول ذلك  
لنفسي كل يوم في أماسي المتوحدة، فيعطيني هذا المخدر بعض القدرة على  
الاستمرار، ويمنحني ذكر اسمها أماناً صغيراً يبعد عني شبح فكرة الانتحار. وتقول  
النفس: لا بد من زوال هذا الكابوس والخروج من هذه المتاهة يوماً.

فوجئت بأبواب السرحان مقرفصاً في غرفة أمينة يشمل. لم يسألني كيف فتحت  
الباب. كان يدرك بالحدس أن مفتاح الغرفة معي مذ قررت أمينة هجرانه وعزله في  
الغرفة الأخرى. ابتسم من أعماق كئيبة وحاول أن ينهض: مساء الخير. أهلاً. أهلاً  
بالمهاجر.



وقلت : لن تنهض . تقدمت وضغطت كتفه . وسألني : لماذا هجرتنا هل أسأنا لك ؟ فقلت : أستغفر الله . أبدأ . إنما ضغط العمل في هذه الأيام .  
وقال : العمل أحق . الله يعطيكم العافية . الوطن بحاجة لهمتكم . كيف الأحوال ؟

- لا بأس . الحال ماشي .

جلست قربه . ومعه احتسيت كأساً . كان في حالة غريبة . حالة شبه موتية . حمرار وجهه ممزوج باصفرار رمادي . ويداه ترتعشان على نحو متواصل ، كأنما دهر من الحزن جثا فوقه وراح يغور فيه . وكعادته ثرثر عن تاريخه منذ الأتراك حتى الفرنسيين وبداية الاستقلال الوطني ، وإذ وصل إلى العصر الحاضر راح يداهن ويخاتل . وسألني إن كنت أستطيع مساعدته لاستعادة بعض أراضيه التي انتزعها الفلاحون منه . وحاولت إفهامه بأن الموضوع شائك ، وخارج عن نطاق إرادتي وأنه تابع لمحاكم الدولة ، وإن كان مظلوماً عليه أن يرفع ظلامته إلى هذه المحاكم . كنت أدرك جيداً هذه المقايضة التي تأخر الإعلان عنها ، وحدثني عن الزعماء الذين كانوا يحلّون الأمور بهاتف أو ورقة صغيرة بعيداً عن تعقيدات المحاكم الروتينية ، وقلت بأن الأمر مختلف الآن ، وتشعب الحديث نحو حياته التعيسة التي أعاد موسيقاها على مسمي مئات المرات .

وإذ لم يدخل علينا أحد ولم أسمع حركة في البيت سألته : متى نام أهل البيت ؟

تأوه بانكسار : ما عاد في البيت أهل .

استفهمت فأفادني بأنهم غادروا منذ أسبوعين أثر شجار حاد كادت الجريمة تتوجه . وبدا يريد كتمان السبب في البدء . لكنه أفصح بعد فترة صمت قصيرة بأنه رأى المستأجر الذي يسكن في البيت يتسلل من غرفتها في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل .

كان الدمع محتبساً في عينيه ؛ ذل معاند لاح في انحرار المقلتين . وراح يعيد أسطوانة كراهيتها له بعد أن جرد من ملكيته . حكى عن طفولته وتضحياته في سبيلها . وكيف عبدها لكنها كانت عاقّة وعينها للخارج ، وكيف غطى عينيه عن الناس الذين كانوا يدخلون البيت لأنه أحبها أكثر من أي شيء آخر ، ولم يكن يصدق أنها تخونه : أمينة امرأة جميلة لكنها شريرة . لعن الله النساء . جلد ناعم

كجلد الأفعى لكن الناب مسموم. كان واضحاً الآن في وجهه المحروث بالزمن والعار وعينه الموشكتين على الانطفاء وارتعاش يديه، انه على الحافة وأول هبة ربح ستهوي به إلى القاع.

ولأول مرة ربما، يثير أيوب السرحان حزني وشفقتي وهو يروي رحيل أمينة بعد أن كنت أثاث البيت وتركت له بساطاً مهلهلاً وسريراً عتيقاً، حتى أدوات المطبخ أخذتها، وهو الآن وحيد.

وأنا مبتل بالكآبة سأته عن سمية. فأجاب: أخذتها معها. البنت رضعت حليب كراهيتي من النجسة أمها. في الأيام الأخيرة كانت ترمقني بنظرات مليئة بالاشمئزاز والاحتقار. وتهد بقهر: يا إلهي كيف ستعيش تلك الطفلة بدون أب! نصف ما في كأسه جرعه مرة واحدة، فكادت الكأس تسقط من يده. حاول أن يصب لي كأساً ثالثة فاعتذرت وألح فرفضت. ومن لفافته أشعل أخرى وزفر الدخان.

بعد لحظة صمت عاوده الأنين: كما ترى الآن.. وأمام عينيه راح يفتل اللفافة وبسخرية قال: إيه يا للدنيا كيف تبدل من «اللوكي سترايك» إلى دخان «الناعورة» ومن الجوني ووكر إلى عرق الكبريتة. واستمر يهز رأسه بحسرة.

وقلت في سري: وقبل أن أرى. من الست زينب إلى المزرعة، ومن المزرعة إلى باريس ولندن، ومن باريس ولندن إلى البرلمان، ومن هناك تمت مقايضة فلسطين واللواء، بالويسكي والنساء واللوكي.

وتابع أيوب: الزمن خائن. يوم معك ويومان عليك، وأمينة كانت مع الزمن علي.

كان الجو ثقيلاً ككتل من رصاص، وأيوب بدأ يدخل بوابة هذيانه، وخيل إلي وأنا أشهد اهتزاز العضوي، أن مراكزه العقلية تهتز هي الأخرى فاقدة أية قدرة على التركيز والمحكمة وضبط الأشياء.

في ساعة متأخرة بعد أن أوشك الضجر والقرف على الانفجار في عروقي، غادرته وأنا ممزج النفس بينه وبين فقداني لأمينة.

المدينة هادئة، شجرها ساكن. أحس الصمت يتغلغل في روحي. إيقاع الخطوات متعب والصدر ضيق. هي الأخرى رحلت أخيراً ولم تترك كلمة. ربما بلا ندم. لعلها اكتشفت في النهاية سر اللعبة بيننا، انعطفت في طريق جديدة لا تعرف إلى أين تقودها. الآن أتذكر جيداً أحلامها القديمة عن السفر والبيوت الجميلة المؤنثة والسيارات ورؤية العالم الشاسع المسكون بالفرح والحرية.

كان ذلك في ليلة تخاصمنا فيها. لامتني لأنني اعتبرها ضجيعة في الليالي فقط، وأذكر أنها طلبت مني أن نذهب معاً إلى البحر ونمضي أيامنا هناك بين الشاطئ والريف، وأنها منذ زمن طويل تحلم برحلة كهذه معي، وفي تلك الليلة اعتذرت ووعدتها أن يتم ذلك في مستقبل قريب، وفي تلك الأيام كنت أعاني حزناً داخلياً سببه حالتي المرضية مع مني، وجبهتي بأن رفضي يعود إلى خجلي من الظهور معها أمام الناس باعتباري فتياً وهي في سن أمي. وزادت قائلة: إنك كنّ لي احتقاراً دفيناً لأنني أخون زوجي. وجاهدت محاولاً إقناعها بأنها تتوهم أموراً غير موجودة، وأن الموضوع لا صلة له بالاحتقار، وحاولت بتبسيط ممكن، إفهامها عجزني عن ابتناء صلة دائمة، وأن حياتي سلسلة من الفوضى وعدم التركيز، وكنت ألمح بذلك إلى استحالة الزواج منها أو من أية امرأة في العالم لأنني لست سوياً كما يعتقد الأطباء والناس. واثراً ذلك حدثني عن شاب ثري يهيم بها منذ زمن، وأنها تصده وقد عرض عليها مالا وسيارة، وهو على استعداد لاصطحابها معه إلى نيويورك حيث سيتم هناك دراسته الجامعية، وقد رأت أن تعرض الأمر علي لأفهم بأنها تضحي من أجلي بأحلام لا ترفضها امرأة في عالمنا.

وفيما بعد بمسرحية مضحكة، حاول الشاب الانتحار ليثبت صدق حبه لها. لقد جرح إصبعه بطلقة مسدس صغير. وإذا قالت بأن أيوب هرع إليه وضمد جراحه، أدركت أنه الطالب الذي جاء به أيوب وأجره الغرفة المجاورة لغرفتها. وفي تلك الليلة اكتفينا بقبلات ميته ومداعبات باردة وكنا كئيبين، ويومها على غير العادة خرجت من غرفتها باكراً.

هي ذي الشوارع تمتد. خارجة من شبكية الذاكرة إلى شبكية العين. تثير المرارة وحسّ فقدان. فوق هذه الأرصفة قديتها. تبعثك كما يتبع عبد سيده. خلفك صعدت سلام مجهولة والخوف منبس في خطواتها، وإذا كانت الأبواب تُرنج تلتفت. خائفة داخل الغرف الغريبة. تسأل: أمتأكد أن البيت خال؟ وإذا تجيبها: اطمئني. تتنفس روحها المرصودة بالخوف. تتقدم نحوك مادة ذراعين ناعمين

لها ملمس حرير فخم. بكل جسدك تحتويها وتضغط فتحس بأن أفراح العالم تطوقك الآن.

في آخر لقاء كان سلوكها غريباً، فلأول مرة شربت خمرًا حتى ثملت ومن عينها شع فرح لا مثيل له، وعبر ثرثرتها قالت بأنها ستقدم لي هدية جديدة من النوع الذي لا ينسى. كحلم تأتي الحادثة. حلم لا يصدق يخرج الآن كجرح على شاشة الذاكرة. لقد بدأت التعري كما لم يحدث في تاريخ علاقاتنا، وبعد أن انتهت تقدمت نحوي وهي تبسم، وراحت تفك أزراري حتى عرّتي. وجهاً لوجه عارين. تناولت كأسها وناولتني كأسي، جسدي يوازي جسدها ويلامسه. رفعت كأسها عالياً وقالت وهي تضحك ضحكة غريبة: نخب العري، وشربت وأنا مأخوذ بحالتها. وإذا أخذت ترقص ممسكة بيدي ملتحمة بي مبتعدة، بدت كأنما أصابها مس.

بعد أن أنهكت بالرقص والدوار في مساحة الغرفة الضيقة، استلقت أرضاً وكانت تلهث وجسدها يختلج وئديها يخفقان في مهب ربح الجنس، وإذا تباطأت في الإقبال عليها، انقلبت على بطنها وراحت تصدر أصواتاً شهوية موجعة، وكنت مشدوهاً وهي تتحرك أمامي. تجثو على ركبتها وهي ترتعش كمن يحتضر، وأسمعها تتمم: أعرف أنني لا أستحق. أجل أنا تافهة ومنحطة.

وأقول: أنت محظنة. أنا أرى فيك ملكة من نوع خاص. وصرخت: لا. لا. بل أنا أحقر من ذبابة. وبدأت تنشج بشكل مثير. وتقدمت منها ومسحت دمعها. مشت أنا ملي فوق ظهرها الباقوتي، وبجنو ضممتها وكنا نجثو على البلاط البارد، واستلقينا. ولما تجاسدنا انبثقت منا رماح من نار، وفي ذلك النهار تعرفت فيها على معنى الحياة والموت وكأنما لأول مرة يولدان من جسدينا، ويومها كانت فرحة حتى الأقصى، ولم أكن أدري أن تلك اللحظة المباغته ستكون الأخيرة. ونحن مولحان أخبرتني أن كل ذرة في جسدها ستظل تذكرني وقالت ستساني يوماً لكنني لن أستطيع أن أنساك.

وفي حالة بدء الصحو، تحدثت بأنها لم تكن تتصور أن الخمرة تثير إلى هذه الدرجة وقلت: ليست الخمرة فقط. وأشرعنا ضحكتين، ولم تكن ضحكتها كاملة، وعقبت: الآن تفهمين لماذا كنت آتيك مخموراً في الليالي الماضية.

وفي ذلك اليوم بقينا معاً من الظهرية حتى المساء في بيت أحد الأصدقاء،  
وفيما بعد أدركت أن غياب ذكر أيوب والزواج، كانا من أسباب الفرح في نصف  
النهار ذاك.

ها هي الآن في هذه اللحظة مجرد ذكرى مضت، بعد أن داومت عليها كما  
يداولم رضيع على ثدي أمه. والآن أنت في فراغ دمشق تطوقك التعاسة التي تتقدم  
غيب كل الأفراح. تعبر الشوارع القديمة التي عبرتها مئات المرات وذهنتك عابق  
بحكايا مضت تمتزج مع هبوب ربح الياسمين. تدور. تدور. لافاً منعطفات لا نهاية  
لها. وتحت الشبايبك التي عرفتكم تمرّ ولا أحد يعرفكم أو يشعر بوجودكم. غريب.  
غريب وروائح الياسمين تحملها ربح رخاء. والروائح تذكر بما مضى فيأتلق الحنين  
إلى الجسد الدمشقي الذي غاب الآن، وفي ليالي الشتاء والأصيف الرطبة كانت  
الموئل والحضن الأمومي بعد أن اجتث الزمن وطن الطفولة.

غريب وحزين، كما ينبغي للغرباء والحزاني أن يكونوا في مثل ليلتك هذه.

الهوس والكابوس ولوثة الحس . مبرر البقاء ونقيض الموت . كل هذه المسميات تختزل في إسم واحد : منى . معنى جميع الأشياء . كما يستوطن السرطان جسداً ثم يتلفه بعد وقت ، هكذا كانت هذه المرأة التي حملت بها مذ غادرت وطن الطفولة ويمت شطر دمشق . مرة واحدة رآها راني فأخذ بها . قال عنها فيما بعد : هذه نقيض جميع العصور المنحطة التي نعيشها . ولأنهم مشهورون عرفتهم جميعاً : شعراء وضباطاً ومديرين ولاجئين وفلاحين . باسمها تحدثوا في مجالسهم وباسمها عُرفوا . وأذكر يوماً أنها صرحت لي : أنا متهمة بعلاقات مشبوهة مع الآخرين لكنني أؤكد لك أنني بريئة من كل ذلك .

وتحدثنا عن راني بعد أن صارحتها برأيه فيها ، فابتسمت ووصفته بأنه إنسان طيب وضعيف ، يعيش قيماً تجريدية معرضة للاهتزاز والتناقض لكنه ككل المثقفين ، دعيّ وجبان . وحاولت الدفاع عنه : راني جاع في طفولته وحرم من الحنان . فقالت بمجانبة لامتناهية : عندما يشبع ويعانق لينا من يضمن أنه لن يكذب ويخون ؟

في ذلك الغروب كنا معاً في مقهى الشموع ، كانت الأضواء خافتة ، وقربنا كان عشاق مراهقون ، وجوههم متحاذية تهمس كلمات مبهمّة عن الحب . وسألتها عن رأيها بشخصي فقالت بأنني حالة مرضية خاصة : مزيج من الفوضى والحربة وردود الفعل والغضب . وابتسمت وهي تلخص : الحق أقول لك أنني لا أفهمك . إنني أتساءل أحياناً ما هو الوضع الجديد بين المتمرد والثوري ؟ وأذكر أنها عانقتني وقالت : قلبي على خدي . وإذ سألت لماذا الخد . قالت : آدم يقبل مسالينا على شفيتها .

محزنة حالة هذا المفقود . العربي المهجور وقد ضيع قومه وضيعوه . ومحزن أكثر ذلك الرجل الذي قتله الشمس والتعب ، وعاشر صمت الليالي وقرأ ابن الفارض

والمكزون وأبا نواس والشيرازي ، معتقداً أنه نبي بين أناس يرجعون من ليس على شاكلتهم .

ومن الوظيفة إلى البيت ، ومن البيت إلى الخمار والشوارع . وزمن العربي ليس ملكه . ملك الريح . ومعه سهم ورمح ، والحرب ساحتها النفوس التي سمعت صوت مناخيم بيغن : «سوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بتمامها إلى الأبد وسوف يبني الهيكل وتشرق الشمس ثانية على بني إسرائيل» ثم ما لبثت أن نسيت . وفي الشوارع والخمارات والبنوك والضوضاء وأحضان النساء ، راحت تغرز رماحها . وتسالني مني ما الذي فعله في أزمة المحن ؟ فأقول : أتمل وأغني . أشاهد وأناقش وأناوح .

تقول هازئة : عربي مثالي .

ولما حاولت الدفاع عن نفسي بأنني أعزل وحيد ، خسرت وطني في معركة لم أخضها ، وان حركة التاريخ تدار من القمة وأنا لست أكثر من حجر شطرنج ، سألتني : لماذا لا تعود من حيث أتيت أو تنتحر؟

وقلت : لكن الانحراف يحدث باسمك .

واعترضت : أنا خارج الأشياء مثلك .

وقلت : دعينا إذن نهرب إلى الجبال لنعيد صنع العالم بطريقة جديدة؟ هزئت : يا غلام ، الشعراء لا يصنعون العالم .

وإذ سألتها : من يصنعه إذن؟

ابتسمت . ضغطت أسنانها ثم مضت .

وأنا مستلق على السرير ، هوم على شاشة الذاكرة حلم الرجل الذي قطع أصابعه الخمس ، مخاطباً أبي : ملعونون . ملعونون أنتم . ملعونون حتى قيام الساعة .

فيا بعد مات بالسم وكان عرّاف نفسه ، والذين سمّموه كانوا من سلالة أيوب .

وأيوب السرحان يسألك أن تعمل له شيئاً لتعود له أراضيه . ها . ها . والرصاص لماذا يطلق بغزارة إذن؟ والدم لماذا ينبغي أن ينشق؟ وهذا القتل اليومي لماذا تُشرع راياته بين عبس وذبيان؟ .

منى اكتشفت أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الهرب أو الانتحار. وعلى نحو مختلف كان هذا يعني الخيانة وأنتك لست جديراً بها. والجبان يخاتل أحياناً بالتحليل والفسطة، يحارب بالكلمات في أزمته الرصاص: دونكيشوت معاصر. لا بد أن زمناً غريباً، زمناً مفاجئاً عديم اللون يتقدم. سامر البدوي سماه: عصر الكلاب والسفلة. ورائي قال عنه: أنه زمن المفصلة. أعني الزمن الأعمى. إنه يسقط فجأة على ضحاياه دونما ذنب. ولم يسمه أحد عصر الشهداء. والد مسرور كان يحسه كدوي بحر خفي منى بالهياج، وكانت معادلة ربط الماضي بالحاضر، غير منسقة تماماً في رأسه. غير أنه كان يقول: في الماضي كنا أكثر شجاعة منكم. فالذين تطوعوا في جيش الإنقاذ ودخلوا فلسطين كانوا فدايين تركوا بيوتهم وأطفالهم وأرزاقهم واندفعوا نحو الاستشهاد لا يلوون على شيء. كان مفهوم الوطن واضحاً وبسيطاً لا يحتاج إلى محاكمات ومؤتمرات وكلام فارغ. أن يذهب الإنسان إلى معركة ويموت بشرف، بذلك كان يتطهر وينقذ نفسه وينقذ الوطن. أنتم ماذا تفعلون في هذه الأيام السود؟

غير ان ما هو واضح في ذهنه، كان الصدع القائم بين الشجاعة بمفهومها البدائي، وبين تكوّن الإنسان الحديد الذي ما عاد شجاعاً. كان الصدع في الزمن النفسي لا في الزمن العضوي، وكان من السهل الحديث عن الموت المجاني بتلك التلقائية الشعرية والملحمية التي حدثت في فلسطين وفي تواريخ الأمم. لكن الذي كان صعباً هو كيف نرد بشكل علمي وحضاري على تصريح زعيم حزب حيروت الذي قال أيضاً: «لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ولا حتى للعرب ما دمنا لم نستعد وطننا بأجمعه حتى ولو وقعنا معاهدة الصلح».

[ ]

أنهض نشيطاً. جو الغرفة حامضي وكثيب. أفتح النافذة فأفاجأ بجارتي لأول مرة على الشرفة بثوب النوم، تستحم في شمس دمشق الدافئة. شعرها مضطرب لكن النصف العلوي لثديها بارز فوق حافة الشرفة. وددت لو أرتقي إليها، أعرفها بنفسني: أنا جار تيس هجرته عشيقته والآن وحيد فهل يمكنك إيناسي؟ سحجت أسناني قرفاً وجارتي تسحب مرتجة الباب بعنف إذ رأيتني أرنو إليها. شعور بالقيء فاجأني وأنا أعبر الصالون. اتجهت نحو المطبخ ورشقت وجهي بالماء فازداد حس الغثيان. في المرحاض تقيأت. كان ذهني مشوشاً، وشعرت بأن لا شيء يعمل



فانبطحت على السرير. فكرت بمنى وأمينة وسامر، بدمشق والعالم، بحياتي المورجحة بين الممكن والمستحيل. وفي سمعي ضج صوت السيناتور مناخيم بينغ مرة أخرى.

كانت دمشق خارجاً. تسير بمشيئة أخرى، ولم يكن بيني في دمشق ولا هناك، وغمرني حس الغربة صلباً قاطعاً كشفرة موسى، وقال الذي ليس أنا: لم يكتمل الوقت والجسد بعد. ورن جرس الباب. فاجأني وجه سامر البدوي. سلم بشتيمة وهو يتقدم عابراً الصالون نحو الحجر. دارت عيناه في الغرفة: أهذه غرفتك؟ وعلى وجهه ارتسم اشمتراز.

قلت: وماذا فيها؟

- تشبه السجن.

- أنا أتعس من سجين.

وسأل إن كنت وحدي وتناول لفافة وطلب قهوة وكان منشرحاً. وسأله لماذا أتى في هذه الساعة فضحك: لدي أخبار سارة. وسألني رأبي في قصيدته الأخيرة التي قرأها في الواحة فقلت: كانت سامرية كالمعتاد.

- ماذا تعني بسامرية؟

- ابجار داخلي في متاهاتك الشخصية.

- إطراء أم تهمة؟

- كلاهما معاً.

وقال: يا أخي أنت مثقف وتدرك جيداً حالة الحلول بين الذاتي والموضوعي بالنسبة للأديب. الشاعر الحقيقي ذلك الذي يرصد العالم من خلال تجربته الذاتية.

وقلت: أولاً أرجو أن تنني عني هذه التهمة المنحطة تهمة المثقف. أنا إنسان عادي يحاول أن يفهم فقط. وثانياً أنا أرفض المركزية الذاتية العاجزة عن الخروج إلى الآخر بإشارات خاصة. أعرف جيداً ماذا تود أن تقول غير أن ما أريد قوله: ان سقوطاً آخر، شيئاً آخر سمه ما تشاء يحدث في العالم خارج ذاتك الكريمة. صرخ غضباً: سقوطي رمز سقوط العالم.

وقلت متحدياً: لست العالم على ما أعتقد. دودة القز تموت داخل شرنقتها وهي تصنع الحرير.

وبدا محاصراً فقال : ينبغي أن أرحل . أنت لا تطاق . وقذف أمي بثيامة  
قدرة .

وقلت : ترحل أو لا ترحل هذا لا يهم . ما يهم أن عليك أن تتعلم الاستماع  
إلى غير الإطراء الذي يقدمه الكذبة والفريسيون . أنت شاعر بالإحساس لكن  
جيوبك مليئة بالمرايا . تركته مغتماً ونهضت أعد له القهوة واذ عدت كان يتصفح  
أوراقه . ابتسمت هازئاً وأنا أقدم له القهوة فرنا نحوي مستفهماً فقلت : غريب ! منذ  
متى تقرأ دفاتر الآخرين ؟ شتم . دخن بعصبية . احتسى قهوته . وأطلق خبره السار :  
طلّقت اليوم . وتحدث عن فرحه بالخلاص من خيوط العنكبوت ، وانه يشعر الآن  
وكأنه خارج من مشفى ، وأخبرني بأن تلك المخلوقة التعيسة كانت على حافة الحنون ،  
وقال : بأن الحب حالة مرضية عابرة ابتلينا بها سوية في صباح ما في الجامعة .  
لا نستطيع أن نتصور ذلك الحب الذي كان . الجامعة تحدثت عنه لسنوات .

وصمت . كنت أتملاه . في عينيه حزن وتعب وفي وجهه صحة . وهو ينهض  
عن كرسيه كان يضع يده على قلبه : كيف حدث تبدل من أقصى الحب إلى  
أقصى الشفقة والازدراء مع المرأة نفسها ؟ أي تمزيق يفعله الزمن في النفس ؟  
وتحدث عن ولادته الجديدة في هذه السن المتأخرة ، وتساءل إن كان قد بقي له زمن  
بعد هذه الرحلة الشاقة ، ثم تحدث عن الإنسان الذي يشبه الشجرة : أنا الآن أشبه  
السنديانة الهرمة . يوماً اثر يوم أحس بجذوري تنقطع . وانعطف أكثر نحو الوحش  
الذي يراه في الحلم واليقظة والذي يسري في دمه ، وعلى قلبه ضغط أيضاً : في  
الختام تطفأ جميع الأضواء . أية مسرحية مفاجئة ومضحكة ! وما كان متوجأً  
بالكتابة كما هو الآن ، وبعين أخرى لمحت وحش الموت يستل الرغبة من بدنه ،  
ولم ينتبه لرعشة أصابعه وهو يتناول القهوة ، وكنت متأكداً بأنه لولمخ ذلك لتناول  
فأساً وقطعها ورمها إلى كلاب الشوارع .

لست ذاكرةً لماذا كان لقاؤنا جافاً في ذلك الضحى . إنني أذكر جيداً حديثي  
الآخر معه حول ما سميته التوازن الخاطئ للتلاؤم مع العالم ، وان هذا التوازن  
لا يحس إلا بعد فوات الوقت ، وأذكر بأنه قال : حتى أنت تتهم ؟ وقلت ما معناه  
بأن الحياة في أصلها ربما كانت خطأ ، ونحن واقعون في بئر هذا الخطأ من الأساس ،  
وأنت عندما حاولت الاحتجاج على هذا الخطأ وقعت في خطأ آخر ، وكثيرون  
لم يفهموا لماذا طعنت بقسوة رحم العالم المقدس وجعلت من حياتك جحيماً ومطهراً  
داخل جسد واحد . واذ تحدثنا عن أمور كبيرة لها صلة بالتاريخ احتج على فكرة :

بأنه ليس أهلاً في هذا الزمن لأن يسهم في خلق التاريخ. ثم أضفت. أعني ربما كنت سابقاً في الوقت. وربما تصلح لزمن آخر غير هذا الزمن. وقال: أنت تدينني إذن! فقلت: أنا أحاول فهمك فقط، وإذا حاول أن يعيد أسطوانة الرغبات التي تنفجر في الداخل والتي تبحث عن مخرج في عالم مسدود، وإن الإنسان إما أن يعيش كما ينبغي أو ينتحر، قلت: كلنا مخطئون على ما يبدو في هذا العصر.

وبشدة رفض ذلك، وتحدث عن الثورة ضد القيم الكاذبة والناغلة في دماثنا: الصدق مع الذات هو الثورة، لكن الغباء السياسي قاصر عن فهم مثل هذه الحالة النفسية. يريدون أن يجعلوا منا ثورين بمضمون كهنوتي وهذا ليس مناقضاً للحقيقة الثورية فقط، إنما معادٍ للوجود الإنساني في العالم. لكي أكون ثورياً ينبغي أن أكون أنا بكل العري المطلق من الداخل والخارج. وبألم حكى عن شعوره بالنفي، وانهم هددوه بالفصل من الحزب إذا لم يغير حياته الفوضوية، وقال: الحزب في دمي ماذا يبقى لنا بدونه؟ الحزب أبي وأمي وزوجتي التي أشتي الزواج منها يوماً بعد أن طلقت. واذكر بأنني جابته بأنه ليس جديراً بالحزب فامتعض. شتمني واتهمني. وإذا حاولت توضيح فكري عن الطبيعة المناقضة لتكوينه النفسي مع طبيعة الحزب، وان ثمة فرقاً شاسعاً بين المناضل السياسي الذي يتجاوز رغباته الذاتية وبين الشاعر، هزئ من فكري، كما أذكر أن أصواتنا ارتفعت أكثر مما ينبغي حتى أن جارتني خرجت مرة أخرى إلى الشرفة تستطلع الشجار. كان غضبه قد وصل إلى أقصاه، وبدا وجهه في لون النار والرماد عندما بدأ يصرخ كحيوان مطعون ويضرب الطاولة بقبضته المتوحشة. اثر هياجه صمت. لم أنبس حرفاً. فقط استلقيت على السرير أهدق في السقف. وإذا صفق الباب بعنف سمعت مقطعاً من جملته الأخيرة: كلاب. أوباش. كلكم هكذا!

ذلك اليوم لا ينسى : أتصوره الآن في تلك البقاع الشديدة الحساسية من ذاكرتي ، ملوناً ، عاصفاً ، مخضوباً بالدمع والشهوة . كنا نسير في الضحى تحت شمس دمشق ، وخريف المدينة بذلك الهبوب الحزين لنسائمه يمسح وجهينا ، وثمة حبات من العرق راحت تولد تحت الجلد الذي أتعبه المسير .

في البدء كنا نتوجه نحو بيتنا القديم ، وهناك في ذلك المكان المهجور ، كان علينا أن نقيم الطقوس الأخيرة لحكاياتنا التي ولدت وماتت ، ثم سجلت في أرشيف الضمير الزمني للمدينة التي لا تنسى . برغبة لا شعورية صدرت الأوامر لخطواتنا كي تغير الاتجاه فانعطفنا نحو الدروب القديمة . يدا بيد تارة ومطوقين أخرى ، وفي الأعماق نشيد من الفرع الجنائزي يجبو فوق تلال نفسينا الكسيرتين .

ونحن نطوف داخل كعبة الذكريات ، كان الصمت يرتل النشيد ، تحرقه بين حين وآخر إيقاع خطواتنا الوثيدة الهاجسة بالوداع ، والحركات الموجهة للأصابع وهي تسري مع الأصابع ، ولراحتي اليدين الملتحمتين المستريحتين ، والمدلاتين كبقايا أوراق شجرة داهمها شتاء عاصف .

بوعي وغير وعي عبرنا فوق جميع الأرصفة . مست أطراف شعرنا الذؤابات المتدلية لصفصاف بردى ، قطفنا زهرات ياسمين كانت روائحها قد امتصتها أشعة الشمس . تعرقت داخل كفينا ثم ما لبثت أن ذبلت كريش نورس طعن للتو فهوت فوق الاسفلت . ذاكر الآن كيف كانت تلك الجنازة تتجه نحو المقبرة وليس خلفها إلا بعض الفقراء من الذين أحبوه ، رغم أعاصير غضبه التي كانت تجتاح كل شيء عندما تهب . لقد مددوه بعد الغسل في تابوت خشبي عتيقٍ وكفنوه ، ثم تهدجت أصواتهم متغلغلة عبر البيت المترب المدعم بالحطب : وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً . الله حي . الله الباقي . آجروا يا أخوان . آجروا . وفوق الراحات حملوه . من كل تاريخ ذلك الرجل لم يبق الآن غير تلك الحفرة المردومة

فوق عظام تأخت الآن مع التراب وانحلت فيه ، وغير باقة من ربحان توضع فجراً فوق حجارة القبر في مواسم الأعياد وفي المساء تذبل وتموت .

ونسير، كأن حلماً يلفنا ، مأخوذين بهذا العبور الزمني الأخير، تأسرنا معاً تلك اللحظة الغفل التي ظلت مفلتة منا فلم نمسك بها يوماً ، والتي كان يمكن أن تكون برق توصلنا المركزي الذي انفجر الآن .

هل قلت أن أصابنا كانت مشبكة في عتاب سري ، وان زندي طوق خصرها النجيل على الأرصفة ، تحت بريق الضحى ، والناس يمرون بنا ونحن لا نرى غير حلمنا الوداعي الأخير؟ كل هذا يضاف إليه عناقنا وقبلاتنا الشمسية لا تحدياً ولا ثاراً ، إنما شعور عفوي صدر منا بغتة في تلك اللحظة الخاطفة . آه كم تمنيناها أن تطول ، وتطول ، لتدحر كل الحزن وكل الفصام اللذين قطعنا نفسينا بسكين أحد من الموت .

كم طالت المسيرة؟ كم كلمة ألقينا؟ متحاشين الحوارات العقيمة الماضية . كيف اخترقنا جدار الزمن الذي كسرنا في ختام اللعبة؟ كل ما أذكره بعد ذلك أننا أتمنا مراسم الحلم في غرفة مضيئة فيها سرير أبيض موشاة بستائر برتقالية ، فتحنا نوافذها واستلقينا على السرير عارين ثم انغمرنا في نشيج حار وطويل .

(شاطئ مرمل ومعشب . البحر هادئ يسبح فيه أناس لا أعرفهم . بناء شاهق قرب البحر يشبه القلاع القديمة . داخل البناء مظلم ورطب تذكر هندسته الداخلية ودهاليزه بسجون القرون الوسطى . البناء من الداخل ضيق ذو طابقين وأنا في الطابق الأعلى . ثمة سلّمان متقابلان . يوديان إلى أسفل حيث يقوم بئر عميق مظلم وأنا محاصر داخل مساحة بحجم السجن وخائف . امرأة تقف على سلم خشبي . أراها تضغط شيئاً ما فيساعدتها السلم على النزول إلى أسفل . أضرع للمرأة النازلة أن تساعدني في الهبوط . تنظر نحوي بلا مبالاة وصمت وتختفي . بعد حين تصعد من السلم الآخر امرأة أخرى «النساء يبدون كمرضات في مستشفى» .

المرأة الصاعدة ترتقي بيسر السلم البشري «أحس داخلياً أنني عاجز عن هذا الارتقاء السهل» بعد أن تخرج من فوهة البئر ترتقي درجاً لسلم خشبي أنا أقف في أعلاه ، خائف من السقوط فأميل إلى الجانب الأيسر بحيث لو سقطت فعلى السطح الداخلي للقلعة . بعيداً عن فوهتي البئر تظهر المرأة الأخرى ترتدي رداء أبيض . أناوب النظر بين المرأتين فيزداد دعري «أحس كأن شيئاً مبيتاً ضدي سينفذ بعد حين» نبادل النظر ثلاثتنا . تسحبني قوة خفية وأغيب في ظلام مسدود .

في الحلم نفسه أرى البحر مرة أخرى. القلعة اختفت. في البحر سفن عربية. لقد تحول البحر من سكونه إلى وضع مضطرب هائج والسفن تشقه. أهجس بأن إسرائيل ستغير بطائراتها على السفن العربية لتحطمها في موانئها وبذلك تشل عمل الأسطول البحري. أسمع دوي طائرات مغيرة. أرى السفن تفرق وتفوص إلى الأعماق. الطائرات العربية تشتبك مع طيران إسرائيل. جنود عرب على شاطئ البحر. بنادقهم مسددة وهم لا يعرفون بعضهم بعضاً. أعرف بعض الجنود. أصبح بهم ألا يطلقوا النار علي. نتعارف ونسير باتجاه البحر.

أعود إلى وضعي في القلعة ومعني حطام بعض الطائرات داخل سطل كبير. أعتقد أنها حطام طائرات إسرائيلية (لا أتذكر تماماً). أقف في نافذة القلعة. على الأرض أرى ممرضة كأنها قادمة لتناول السطل. أقذف به نحوها فيرتطم بالأرض محدثاً ضجة. يتناثر الحطام فإذا هو جثة داخل كفن أبيض. أراني قرب الجثة والممرضة تتوزع النظر بيني وبين الجثة. فجأة اسمع رعداً سماوياً تهتر القلعة منه. تميل ولكنها لا تسقط. أحاول أن أجري فلا أستطيع. الرعد يزداد وأنا في مواجهة البحر. موج البحر كالجبال. الأفق الأسود. الموج يسد المدى. يقذفني موج البحر الغاضب فأغيب في اللجج. ثم لا شيء).

عندما استيقظت، كنت وحيداً، مغطى حتى نصفي. الغرفة مغلقة والستائر مسدلة، وفي فراغ الغرفة يسبح صمت جنازتي بشي بأصداء امرأة عبرت هذا الفراغ ثم مضت، مخلقة رائحتها ودمعها في ذرات جميع الأشياء القائمة هنا. ومع أنني كنت مُنهكاً مشوشاً بالكابوس، والنفس قد ران عليها غبش من مرارة الفقد، غير أنني كنت في تلك اللحظة في أكثر الحالات تركيزاً وهدوءاً. كنت قد خرجت الآن من المعركة كجثة الكابوس وكانت غبطة غريبة تهزني. غبطة المأساة المتخفية وراء جميع الفواجع، والتي تفاجئ بنوع من سلام هادئ لا لون له ولا طعم ولا رائحة، سلام ساكن يقول جملة مهمة: وأخيراً انتهى شيء ما.

على مهل نهضت. ارتديت ثيابي. على الطاولة لمحت دفترها. تناولته. ومن جديد استقبلت نهار دمشق الكابي.

---

## الفصل الخامس

---





فوق المشرحة ممدد. نصفه الأعلى عار. مجلل هو بملك الموت وقلبه ساكن  
كحجر في قاع بحر. وحده يموت ودمشق لا تلبس حدادا، لكن عينيه الهادتين  
وسكينة وجهه ترسمان اشارة الاستفهام الأبدية: لماذا يموت الانسان؟

وفي عصره كان اميرا. من سلالة اعترضت الحياة جاء. ابتغت ان تقول شيئا  
خاصا لكن الزمن حكم عليها بالسقوط، اخترقها كالرمح من الخاصرة الى الخاصرة  
اذ تصدت لقانون الزمن. هوذا راقد شاعر الوقت الملعون. شاعر الجسد والأزمة  
الراحلة. فوق البلاط البارد مسجى وفي الجانب الأيسر من صدره علامة طلقة مرت  
عبر الأذنين، مزقته ومضت، لكن الجسد ما زال حاراً تحت اصابعي.

فوق الجسد الذي تألق في ليالي دمشق زمناً، تقف الزوجة التي كانت وحدها  
تنتحب من بين كل النساء الدمشقيات، ووحدها المرتدية سواداً يحاكي سواد العصر  
العربي. وحول الجسد ايضا رجال غرباء صامتون، وممرضات مُجَلَّلات بالصمت  
والحزن. وفي الطرف الآخر من المدينة تقيم منى، تعرف من المسجى لكنها  
لا تقرب. تعرف القتل والقاتل وتتدثر بالصمت والخذلان.

عن شجاري الماضي اعتذر واصابعي الخمس تلامس وجهه، وتمسح صدره  
العاري العريض المكتنز: هو هنا الآن اذن! شيء آخر مختلف تماما. بل هو  
نفسه، بهيته وأبيه جسده الذي مال أخيرا وهوى، وغير الحركة لا ينقصه. لماذا هو  
هكذا غير ما كان؟ أي خطأ يكمن فيه؟ لماذا لا يقوم؟ لماذا لا يكون اليعازر؟  
- باسم الآب والابن والروح القدس أدعوك ان تقوم. باسم الحزن ودمشق  
أدعوك.

يزداد شهيق المرأة. يرتفع غفرانها فيرميها فوق الجسد الأبيض. يتغطى الجسد  
بكآبة المرأة وتروح شفتاها تلتمان الصدغ والوجنتين والشفتين والعنق، ثم تجمدان فوق  
بوابة الطلقة.

في الخارج طلبات. دمشق مجلّة، تزغرد محتفلة بأعراسها الموسمية. للتاريخ تقدم ابناءها وامرؤ القيس مقتول. والثأر يلد ثأرا حتى في القرن العشرين، ومناحيم بيغن ينادي: «هذا زمن سقوط العرب وانحطاطهم». والذي اصاب سمعه الوقر يحتفل في بيته، يحضر رغبته ليطلقها عبر جسد ديانا المولع بالبروكار.

- اسبوا نساء دمشق رداً على سبايا بابل. يهجس جيل السيناتور مناخيم. وسامر البدوي ارتاح، كما ارتاح وائل، لكن المدينة المتعبة ما زال يسكنها الرصاص والثأر: هل ترتاح دمشق يوماً؟

- «هذا عصر الجنود لا عصر الشعراء. نمّ يا اليعازر نمّ. فلسطين لا تريد مسيحاً في هذا العصر الدامي». وأغادره شارقاً دمعة تود ان تغفر، فتلقاني الريح. وحيد. دمشق انوارها مطفأة. صمت الليل يسري في شرايينه الفرع والتوجس. وبين لحظة واخرى تمزق وتين الليل والصمت طلقة. انفجرت دمشق أخيراً. فرعاً اجتاز بوابة الليل. ولا أمان. بنادق سريعة الطلقات يتأبطها الجنود. والأحذية الثقيلة تفرع الاسفلت بثقتها العمياء بعد أن تلقت الأوامر باحتلال المدينة الآمنة. بيت مسرور كهف امان. انسرب وخوفي فوق الدرج وسريعين نصفظ الجرس بتواصل. تسحب سقاطة الباب. وجه ديانا يطل كمنارة لسفينة تائهة، ومن الداخل يأتي صخب وموسيقى.

ملياً والبصر في البصر. وجه مشتعل مقابل وجه تابوتي، وبينها رغبة قديمة مكبوتة: أهذا أنت!؟

تترنح على العتبة. تسمر لحظة: انت ثلمة؟ ورويداً تغلق الباب. لاشعورها سيد حركاتها. طاغيا طفا الآن، وكلانا في الخارج، تحت الدرج، في العتم. كيف مزقنا ستارة الخوف التي ارتفعت كل تلك الشهور فأخفت وجدنا الذي اشتعل الآن ثم اتحد؟ وقالت بانها جاهدت كثيراً لئلا يحدث هذا الشيء، وشعرت بدمعها الحار ينسكب فوق صدري، وفي الظلام سمعت صوت انتحابها واذ قلت لها: هذا لم يعد ينفع. قالت: لكن هذا مؤلم لمسرور. مؤلم!

وانا أزيح صورة سامر، وما يحدث عبر شوارع المدينة المتوجة بالرصاص، حاولت تهدئتها بان ما حدث لم يكن أكثر من تجسيد لما في الذهن، وان ما يفزعك في الأمر قد تم منذ زمن طويل عبر الأحلام. الى صدري ضممتها فعادت رائحتها الأولى تنتشر في جسدي. وطويلاً قبلتها قبل ان ندخل.

ناس وضجيج . رقص عشوائي . وموسيقى . يزعق مسرور وراني بشتيمة  
ويطوقان عني . ارسم ابتسامة مية ، واطوقها ثم تسقط الأذرع منسحبة على سجيبتها  
بعد احتفال الكذب المفاجيء .

الرجال والنساء يرنون نحو الغريب الذي ولج فرحهم فجأة . للحظة ويعود  
النسيان واللامبالاة . ويستمر كما كان . ثم مسرور حتى العمى ، يتقل من امرأة الى  
اخرى مستعرضاً فشله العضوي في اتقان الرقص ، وهو يصبح ويعلو ويهبط ، ثم  
يدور لكنه لا يقترب من ديانا .

يتقدم راني نحوي . يجاهد ان يكون مستيقظا ، ويوشوشني : لحم . لحم . قم  
واغرف . العالم مباح . لم يبق الا اللحم . ابتم لكلمته . واشرب نجبه ونخب  
اللحم : استمر في فرحك ودعك مني .

وينفتل فارساً ذراعيه ويبدأ رقصة مشوهة عن « الفلامنكو » الاسبانية . يحاذي  
امرأة فيطعن مؤخرتها ، يتخطاها آخذاً بكلتا ذراعيه ظهر أخرى ، وفجأة يقف أمام  
ديانا . بكآبة ترفع رأسها رفضاً . في وجهها أرى الذل والحزن . تنسكب العيون في  
العيون عبر الصخب والذل ، فيأخذني تيار راعد بأننا خنا مسروراً في النهاية . يهتر  
سؤال : لماذا حدث ما حدث ؟ ويقترب مسرور مني . يناولني كأسه : اشرب  
يا ملعون اشرب . الخمر هي الله .

اشرب . وهو واقف فوق كشجرة عملاقة ، وانا مكوم في الكنبه اشعر به  
كالضمير . أسأله : هل شربت ديانا كثيراً اليوم ؟ يهتر وهو يضرب ساقه بالأرض :  
شربت حتى صارت تهذي . واستطرد : ذكرت آلاف المرات . على ابائك اللعنة  
وعليها . وأترع كأسه حتى القطرات . قال وهو ينحني فوقي : اسمع جيداً لكن لا تقل  
لها . ديانا لا تحبني هل تفهم ؟ انها عاشقة وتخاف ان اقتلها . هذه حقيقة انت  
لا تعرفها . هُـس .

على في وضع كفا واصبعا على فمه : انها تثق بك ولكن اياك !  
وانفتل يغني : والرمل مايعجن / والشوك ماينداس / والسر ما ينعطي الا لناس  
وناس .

لمحت المسيح المصلوب على جدار القبو ، وقربه المرأة البرونزية العامرة بالشهوة  
مستلقية على بطنها بثياب البحر ، فتذكرت امينة في آخر لقاء .

كان الضوء خافتا في تلك الليلة العجيبة ، ومسرور فرح وحزين يرقص مع جميع النساء الحاضرات . يضاجعهن بخياله منتقما من ديانا ومن الماضي المهين . يرقص بطريقة عرجاء تدعو للشفقة ، واذ يبلغ التعب أوجه براني ، يتناول نايبه عن المكتبة ، يشب موالا لأحزانه الداخلية .

يتقدم مسرور صوب امرأة شقراء فاتنة فيطلب مراقبتها . واذ تدعن له بابتسامتها الغبية ، يطوقها ، ويستمر راني موقعا الأسى في فضاء مسجون .  
- «كنا نتقدم نحو حيفا كما تقدم السكين في قرص من الزبدة» .

تنهد ديانا وهي تدخن . وحيدة مرمية في فراغ الأريكة وفخذاها يلمعان تحت الضوء الأحمر ، وجلبة الحضور تحجبها . تسألني عيناها : هل كنا آئمين ؟ أشيح بصري نحو مسرور المبتل بنشوة الرقص والنسيان ، وبراحة كني أحاول مسح الضيق عن صدغي .

مسيرة الشوارع عبر الليل الرطب ، ورائحة الياسمين تدخل مسام القلب فتندغم برائحة ديانا . توقع . والمرأة التي سارت عبر دروب دمشق الليلية ، صارت هاجسا ينغص النوم والحركة . دخلت بحكم قوانين السير والروائح ، شبكية الرغبة ، والرغبة قاسية ، ملحة ، تشبه حالة بدوي قتل أخوه والقاتل حي . في ليلة شفاقة قرأت ديانا مذكرات مسرور الخاصة جداً والتي تتحدث عن خليلاته السريات وآلام الهجرة ، وعن طفولتها تحدثت بشفاافية لا عهد لك بها ، وكانت ترتدي ثوب نومها الشفاف المحسور ، وفخذاها المسبوكان بمجد تكوينها الخاص ، يبرقان فوق الشبكية . حتى ساعة متأخرة سهرت معك . كنا متحاذيين على الديوان ، وحركات جسدها تثير الوجد . سكبت لك خمرا وباحت بأسرارها المlfعة تحت ثلج الزمن .

في المكان نفسه حيث انفجر غضب البدوي واستراح الثأر ، وانما عائدان من المسيرة ، قبلتها في العتم وداعبت الزند الأملس ، والوجه المحتقن بالعذاب والشهوة . وليلتها ارتعشت كفصن في مهب إعصار . جرت على الدرج فتحت الباب وانارت الممر وجميع الغرف ، واذ حاولت ان تطفىء الأنوار صرخت : لا . لا . ارجوك دع النور مشتعلأ في كل البيت . سيأتي مسرور قريباً . وفي غرفة النوم وأنت تدير قرص الهاتف اقتربت : يطلبون من مسرور ان يغادر . كانت تطل عليك وانت على حافة السرير ، شبيهة بفينوس . يداها مسبلتان ولكن نفسها مبتورة ، وفي وجهها ضراعة وخذلان .

وسألتها : متى طلبوا منه ذلك ؟

فقلت : الليلة .

يخرق ناي راني الجدران . ناي فراقي وحيد . يغني لنا ولعصور المستقبل ،  
ناسيا الفشل العظيم القادم .

وأسال ديانا : لماذا عليه ان يغادر دمشق ؟ فتقول بسخرية : ليشترك في الذي  
يسمونه النضال السري والعمل الفدائي .

على وجهها يرتسم اشمزاز ، واغبرار جاف .

وانا اعيد ادارة القرص اقول لها : عليك ان تتحملي . رفاقه سبقوه .

- أتحمّل ماذا؟

- حياة هذا الرجل الذي لا وطن له .

وكمن يشعر بأن شيئاً ما يُغتصب منه ترفض : لكن دمشق صارت وطناً !

وأرنو اليها ضاغطاً ساعة الهاتف : وفلسطين ؟

- لم تعد تعني مسروراً وحده .

- لكنك ترفضين ان يفعل شيئاً من اجلها !

- اما آن له ان يستقر . الى متى يظل يهاجر ؟ تزوجته بعد ان خرجت من

ديني اليه كي نجيا بأمان ويكون لنا بيت واطفال ومستقبل .

- مسرور ملتزم بالحزب . اعطاه نفسه وهو الآن يدعوه للعمل .

- هناك عمل وهنا عمل . لماذا يذهب ويبقى غيره ؟ لن نترحزح من

دمشق .

انتهي من المخابرة وانا اضغط احتقاري . اهز رأسي بأسف . انهض ماراً

قربها . تلفحني رائحتها . رائحة خانقة . وامضي . في المر يتلقاني مسرور : أيها

الاباحي كنت تغازل ديانا .

- مسرور هل انت مخمور كثيراً ؟

يرفع حاجبيه استنكاراً . يفتل نصف دائرة ، فيعود الى مواجهتي : صدقتني انني

أحبك . دعنا نرقص سوية تعبيرا عن الحب الصامت بيننا .

- لماذا لا تراقص ديانا ؟

- ولا يجب . معا نرقص بين جدارين ضيقين . في حميا الرقص اسأله : هل سترحل ؟
- الى أين ؟
- ديانا أخبرني .
- الكلبة .
- لكن ديانا ضعيفة . حاول ان تفهمها .
- افهمها ! ثلاث سنوات وانا انام مع جدار . ديانا خائنة . خائنة هل تفهم ذلك ؟
- تهما زوراً . اعتقد انها تحبك .
- ويضحك على نحو غريب . فيبدو وجهه ممتقماً . يتحول رقصه حركات تشنجية . رقص اشبه بالموت .
- هل ستنفذ ؟
- تبدأ رقصته بالتخامد . يتمم : لا أدري . لا أدري !
- على مقربة منا تقف ديانا . وعلة مقهورة تتفجر صبا وعافية ، عيناها تنوسان علينا ، بينما بلوح مسرور منها كأنما أخرج لتوه من تابوت .
- اخطو باتجاه الباب فيقف مسرور . بمسكني بزندي : ما الذي حدث ؟
- شيء تافه .
- انت تغادرنا ؟
- أحس صداعاً .
- أنت مؤذى منا ؟
- ابدأ . كل ما في الأمر اني اشعر بالاختناق ولا بد من الريح .
- هل أساءت ديانا اليك ؟
- لا . الانسان يسيء الى نفسه .
- كان يرتعد وفي عينيه المنمكتين ذعر ، وهو يرى ديانا ملتصقة بالجدار كسبح مصلوب يجللها حزن واحتقار .
- انتظر !

وبجوية غريبة وُلدتُ بغتة وثب مسرور الى المطبخ . ورفعت ديانا عينين ذابلتين وارتفع صوت الناي جريماً كريح في غابة من القصب .  
- مسرور... -

مع الصرخة انهمر النصل في عتق ديانا . ضارعة صرخت ثم هوت فهوى فوقها وراح يطعن النحر والثدين والقلب والوجه ، وكاللمع راحت المدية ترتفع وتسقط والضحية تتللمل وترتعش وتفرغر . كبرق خاطف حدث ذلك واذ حاولت ان اسحبه وانا اصرخ : مجنون . مجنون . مسرور . لا . لا . طعني بحركة خلفية خاطفة دون ان ينظر نحوي فأصابني في ذراعي ، وتابع طقوس القتل واصابني رشاش من دم ديانا واضطرب العالم عبر بصري ، ونز جرحي أكثر ، وداهمني دوار واندفعت الى الداخل ممسكاً الجرح وصحت : مسرور ذبح ديانا... -

عندما خرجوا ، وصاحوا ، وانبهتوا ، كانت طقوس مسرور الشجاع قد انتهت . في حين كانت ديانا أخرى تختلج فوق بلاط الممر وسواقى الدم تنحدر بطيئة نحو المطبخ والغرف ، والجدار زركشه الدم ، بينما الفارس يتكئ على الجدار وبين اصابعه المدلاة سكين دمها غصّ ، وفي عينيه انهار .

هأنذا في ربيع المدينة . محمول فوق زمان عصي على الفهم . في فمي المرارة  
والدم ، وجرحي ينزّ الماء ، ومشهد المقتولين في ليلة واحدة يكاد يخرج من الريح  
والشجر ، من الأشياء وتنفسي .

مضوا . والذي ظل ، المدينة والزمن .

آه . بالدمشق العريقة بمراسيم الدفن !

واحداً تلو الآخر مضوا . كما تمضي الريح ، كما يمضي غيم الصيف بمشيئة  
الريح .

«نحن الاسرائيليين محكومون بالنصر والعرب محكومون بالهزيمة» . أمير تاريخ  
العربي بدور الانحدار حقاً ؟ لكن السوس أين يكمن ؟

وانت يا فشل العصور ما الذي تستطيعه لا يقاظ العربي الغائب ؟

ومن قلب الريح ورائحة الدم تنبثق مني .

امسك بها : خطاة نحن فاغفري لنا . عودي . ما زال في الدم حنين اليك .

أهم ان أروي لها ما حدث . تسرده لي وتقول : ما الفائدة . الا تسمع طقوس

الموت ؟

السناتور مناحيم قال : «كنا نتقدم في حيفا كسكين في قرص من الزبدة» .

تبسم : وسكين مسرور كيف تقدمت في عنق ديانا ؟ شجرة الحور وطلقة

سامر كيف اخترقتنا الخاصرة ؟

- سنبداً من جديد وبطريقة مختلفة مني !

- هسمني العشاق الكذبة . الى الجحيم هذه السلالة .

بعنف رجل يرفض الاستسلام اهزها : مرة اخرى اخرجني من غرفة



خصبة لا تموت . دعينا ننجُ بعيداً عن دمشق !

- كيف أثق بك ؟

- هذا دمي !

ولم تثق بي . ومضت .

رطوبة المدينة احسها فوق بقايا الدمع وفوق شجر السبكي . اصوات وطلقات تدوي قادمة من كل اطراف المدينة . وحدي في هذا الظلام الصلب ، والطلقات تثر متقطعة ومتواصلة بين حين وآخر . سيارات مطلية بالوحل والغبار والدم ، تمزق صدر الاسفلت والصمت .

- دمشق تُزفُ .

(صحراء لا يحدها البصر ، تلوح على شاشة الذاكرة . ظلال قديمة من أزمنة غبرت . تأتي حادة في صورها التي ترسم ، ومتوحشة . لم تكن هكذا في الكتب . كحكايات خرافية فيما مضى كنت تتذكرها . لماذا تعود الآن بهذا النبض المتوحش . كالومض تمر عبر عجاج رمادي داخله فرسان يمتطون سهوات خيول رمادية وقرمزية وصهب . الآن تندمج الطلقات بصوت الصهيل ، وحركة السيارات الجامحة فوق الأرصفة تشبه وثوب الخيل وانغراس حوافرها في الصدور التي تقصف ، فتموت صرختها مع الدم المعجون بالغبار . الريح القاسية نفسها تسقط رايات وترفع أخرى ، والرمل الأعمى يدرج بين برائنه التاريخ والقتلى الذين بدوا مصلوبين على أرض الصحراء ، وغير مميزين تماماً . لكنك تعرفهم جيداً حتى الجهوليين الذين نسبت الكتب اسماءهم . رأس الحسين المفصول المرغ ، يبدو جمجمة يحملها سامر البدوي في يده ففتحول دورقاً للخمر . الآن سقط جسده بعد ان تسمم بالخمر والنساء وأفعى الزمن . صار حجراً تقاذفه السنايك ، ثم ذرة تضاف الى ركام الرمل المتعرج هناك عند أفق الصحراء . وحيداً يترنح مسرور ، تائها في شعاب الصحراء . ينوح كوحشي الذي قتل حمزة ضارباً صدره ندماً . يهوي اخيراً ثم يضبع بين الغبار والرمل . ومن بعيد يتنامى صوت ناي موجه يحدو مرآئي الحرب . أيضاً تتوضح الظلال ، وينجلي رويداً الغبار فيبدو سيف أبي العباس ، ورمح الثقيفي آخذاً الرقاب التي حان قطافها ، وجلد عبدالله بن الزبير وهو يسليخ بعد أن صلب على أبواب مكة . قبص ابن عفان مضرج بالدم يلوح في يد عائشة ، ومعاوية يغتصب الخلافة بقوة السيف والمكر . وخيول

هولاكو تضرب بهمجية صدر العراق . يثب الدم من ظهر دجلة . تختلط السيوف بالرياح  
بالاكباد التي تلاك تحت أسنان النساء . ينحدر الزمن ، ينحدر . تنقلص الصحراء . تقترب .  
يدفعها زلزال مجنون . يصل بها مشارف الشام . ثم ينحد الزمن ويتكفف منحلاً في بؤرة  
الذاكرة).

□

اتابع مسيري وسط دمشق الحزينة . في ممرات الموت . لا بيت . والذعر سيدي  
الذي يسوقني ، وفي سمعي وانبي الروائح والطلقات ، والتواييت المحمولة ، آتية من كل  
فج عميق .

كالموت هادئة ذاكرة التاريخ . راقدة تحت قدمي قاسيون . عين مغمضة وعين  
مفتوحة ابدا .

عبر هذا الجنون اطل وجهه ومعه سفر الزمن القديم : عد الى السهول  
والأرض . عد الى بيتك القديم .

- انت رجل مات من سنين وانا أرفضك .

وقال : لست جيل الحرية والمطر وفقراء الأرض .

- من أكون اذن ؟

- عابر في تاريخ الدم والثارات .

- اهذا عصر السناتور مناخيم ؟

- انت لا تريد ان تكون واقعياً . أنت في عصر الخيانة والموت .

- اغرب عن وجهي ايها الرجل العتيق .

- انا أبوك .

- من ألني عام مات أبي .

- لكنه كان رجلاً .

- كان بدوياً يصلح لعصره .

اسير . انعطف من شارع الى آخر ، ماراً فوق الدروب قرب جميع المحطات

التي عرفتنا .

موجة ريح تلفحني فيتغلغل في وطن النفس صفاء مبارك . تحمل الريح رائحة

منى العذبة . أوشوش للرائحة : باسمهم ساعينا يا عزيزتي . وفي ليل الرصاص ينحدر  
الدمع .

المدينة دوي . والنفس تحمل الجنازة مرتقية بها نحو قاسيون . أمرّ على منازلهم  
ومرافئ ممراتهم . تحت الاشجار ، فوق الحجارة ، حاملاً عقب الصحاب الذين تحدثوا  
عن منى وما عرفوا سرها . صحابي الذين احببت . أحبابي الذين تاهوا في الصحارى  
بعد ان فقدوا ذاكرتهم فالتقطتها في الغفلة دمشق ، وما بكت عليهم . وتنهمر  
الطلقات فأحسها تمرق في جدار جمجمتي . أربياء آخرون يهون في المنحدر  
العميق ، العميق . والسيناتور بيغن يقهقه . كالطلقة أسمع صوته : «العرب يمرون في  
دور الشيخوخة وهذه الدورة للبرانيين» .

- «لم ينته الزمن وروح البدوي سارية في الريح والنسل» . صدى صوت  
خني قادم من عصارة الأرض الداخلية .

ويتوقف ناي راني عن النشج ، يتوقف الرقص ، ثم يطل فوق جسد ديانا  
المطعون .

في ليلتي الأخيرة امضي ، بعد ان عرفتهم عن كذب وبعده ، ودمشق ما تزال  
ترخ رصاصاً وقلبي يزخ أسي ، ذاكرأ الآن وداع امي القديم ودموعها : أنت  
تذهب الى بلاد بعيدة مجهولة . ما الذي لك فيها ؟

- قديمة انت يا أمي وانا لا استطيع ان اشرح لك لماذا امضي .

- اعرف . انت مثله . تضع روحك على كفك . لن تعود الا محمولاً .

- لو تفهمين معنى الوطن يا أماه !

[ ]

(بيت قديم مبني بدعامات من حطب . مطلي بالحوار . الدعامات تبدو  
مائلة ، والحوار عتيق كشط الزمن مناطق منه ، والبيت يبدو مائلاً وشيك السقوط .  
هكذا بدا لي من الخارج . أرى نفسي داخل البيت . معي أخي ونسوة أخريات  
بينهن امرأة تشبه امي لا أعرفهن . البيت من الداخل رطب مظلم متهرىء ، يحتوي  
سرايب مجهولة . اتوقع داخل الحلم انه مسكون بجن أو حشرات فأبدو خائفاً . انا  
واخي نطعم طائراً جميلاً على الأرض . بعد حين أرى الطائر يشب نحو سلة في  
الجدار ويتكؤم على نفسه وينام . بين لحظة واخرى اتوقع حضور أبي . «داخل الحلم

أدرك انه ميت». اشعر بالضيق وانا أشم رائحة روث الحيوانات فأرى نفسي في الخارج فوق أرض صغيرة محروثة نصف حراثه فيها شجرات متفرقات. تين. مشمش. دراق. أحاول ان اقطف فأرى الثمار تسقط على الأرض. الثمار تبدو صفراء وكأنها سقطت من زمن بعيد. قربي يمر رجل. احدهس انه ابي. احاول مناداته فلا أقوى. معصوب ومضمد في أكثر من مكان من جسده. شعور خفي ينتابني انه عائد من المقبرة. مرة اخرى انظر الى البيت الموشك على التداعي فنتابني حالة غمّ. في لحظة هلامية تعادل عشر الثانية تترج صورة البيت بصورة أبي المضمد بضادات بيضاء. مرة أخرى أرى نفسي في الداخل. البيت نفسه. للحظة أتمنى لو انني املك بيتاً قوياً جديداً غير هذا البيت. أبي يتحرك داخل البيت القديم ولا يتكلم كأنما يريد اثبات وجوده بيننا وانه لم يموت. لا أتحدث معه ولا ألمسه. فقط أراه وفي داخل كل منا احساس بأنه الآخر قد تغير.

ممر قرب البيت. نخرج من البيت ونعبر الممر. انظر الى ابي فلا أراه. لا أهتم لغيابه. فجأة يحدث هرج وصرخ في ساحة مجاورة. في السماء غيوم كالحة. الناس يصرخون ويولون الادبار. قنابل وطائرات. يداهمني شعور داخلي دون ان انظر الى الوراء بأن البيت هدمته رجّة القصف.

في ساقية جوار الساحة أرى ابي ممدداً. مرة ثانية مات. احاول ان أرفعه عن الأرض فلا استطيع. جسده ثقيل وقاس كعمود من الجبس. الناس رحلوا. هدوء جنازري يسود المكان المقفر. اشم رائحته في الفراغ والأرض. الجثة ما تزال في الساقية. أتركها وأسير وحيداً. تواجهني حديقة السبكي بكل حقيقتها. قليل من الناس عبروا جوار الحديقة. عبرت الصالون. كنت أرى جيداً الآن. استلقيت على السرير بكامل ثيابي. وما عدت أتذكر شيئاً.

---

ملاحق خاصة

---

ملحق (١)

## من مرثي إرميا

«كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب  
كيف صارت كأرملة العظيمة بين الأمم.  
كل أصحابها غدروا بها. صاروا لها اعداء.  
طرق صهيون نائحة لعدم الآتين الى العيد. كل ابوابها خربة. كَهنتها  
يتهدون. عذاراها مُذَلَّة وهي في مرارة. قد أدركها كل طارديها بين الضيقات.  
صارت رؤساؤها كأبائل لا تجد مرعى فيسيرون بلا قوة أمام الطارد.  
صار مضايقوها رأساً، واعدائها أسراً، لأن الرب أعتتها لكثرة معاصيها.  
اطفالها ساروا مسيئين أمام وجه المضايق.  
بَسَطت صهيون يديها. لا معزي لها. أمر الرب على يعقوب ان يكون مضايقوه  
حواليه.

اسمعوا يا جميع الشعوب. وانظروا الى حزني.  
عذاراي وشباني ذهبوا الى السبي.  
كيف غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام.  
ألقى من السماء الى الأرض فجر إسرائيل ولم يذكر موطيء قدميه يوم غضبه.  
ناخت في الأرض أبوابها.  
أهلك وحطم عوارضها.  
أنباؤها أيضاً لا يجدون رؤيا من قبل الرب.  
تحني عذارى اورشليم رؤوسهن الى الأرض.  
كَلَّت من الدموع عيناى. غلَّت أحشائي.

انسكبت على الأرض كبدي . على سحوق بنت شعبي لأجل غشيان الأطفال  
والرضع في ساحات القرية .

يقولون لأمهاتهم أين الحنطة والخمر ، يغشى عليهم كجريح في ساحات المدينة  
اذ تسكب نفوسهم في أحضان أمهاتهم .

يا سور بنت صهيون اسكبي الدمع كثير نهاراً وليلاً .  
اضطجعت على الأرض في الشوارع الصبيان والشيخ .  
عذاراي وشبابي سقطوا بالسيف .

قد قتلت في يوم غضبك . ذبحت ولم تشفق .

الذين حضنتهم ورببتهم افناهم عدوي .

لصق لسان الراضع بحنكه من العطش .

الاطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم .

الذين كانوا يأكلون المآكل الفاخرة قد هلكوا في الشوارع .

الذين كانوا يتربون على القرمز احتضنوا المزابل .

وقد صار عقاب بنت شعبي أعظم من قصاص خطبة سدوم التي انقلبت كأنه  
في لحظة ولم تلق عليها أباد . كان نذرهما انقى من الثلج وأكثر بياضاً من اللبن .  
واجسامهم أشد حمرة من المرجان .

جرزهم كالباقوت الأزرق .

صارت صورتهم أشد ظلاماً من السواد .

لم يُعرفوا في الشوارع . لصق جلدُهم بعضهم . صار يابساً كالخشب .

كان قتل السيف خيراً من قتل الجوع لأن هؤلاء يدوبون مطعونين لعدم اثمار

الحقل .

أيادي النساء الحنائن طبخت أولادهن .

صاروا طعاماً لهن في سحق بنت شعبي .

أتم الرب غيظهُ .

سكب حمو غضبه واشعل ناراً في صهيون فأكلت أسسها .

من أجل خطايا انبيائها وآثام كهنتها السافكين في وسطها دم الصديقين .



تَاهُوا كَعَمِي فِي الشَّوَارِعِ وَتَلَطَّخُوا بِالدَّمِ حَتَّى لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَمَسَّ  
مَلَابِسَهُمْ .

قُرْبَتْ نَهَائِنَا . كَمَلَّتْ أَيَامُنَا . لِأَنَّ نَهَائِنَا قَدْ آتَتْ .  
قَدْ صَارَ مِيرَاثُنَا لِلْغُرَبَاءِ .

آبَاؤُنَا أَخْطَأُوا وَلَبِسُوا بِمَوْجُودِينَ وَنَحْنُ نَحْمَلُ آثَامَهُمْ .  
جَلُودُنَا اسْوَدَّتْ كَتَنُورٍ مِنْ جِرَاءِ نِيرَانِ الْجُوعِ .

أَذَلُّوا النِّسَاءَ فِي صَهْيُونَ . الْعِذَارَى فِي مَدِينِ يَهُوذَا .  
أَخَذُوا الشَّبَانَ لِلطَّحْنِ وَالصَّبِيَانَ عَثَرُوا تَحْتَ الْحَطَبِ .  
مَضَى فَرَحُ قَلْبِنَا . صَارَ رَقْصُنَا نَوْحًا .

سَقَطَ أَكْلِيلُ رَأْسِنَا .

وَيْلٌ لَنَا لِأَنَّنا قَدْ أَخْطَأْنَا .

مِنْ أَجْلِ هَذَا حَزَنَ قَلْبُنَا .

«الكتاب المقدس اصحاح ١ و٢ و٤ و٥» .

ملحق (٢)

## للحزن وقت وللرعد وقت

- ١ -

مَنْ يَعِيدُ الْفَرَحَ لِلذِّينِ غَمَرَهُمْ حُزْنٌ  
مَنْ يُلْحَمُ الْأَجْزَاءَ الَّتِي مَزَقَهَا الرِّصَاصُ وَالرِّيحُ  
مَنْ يُطْعَمُ الْخَبَازِينَ خَبَزَهُمُ الْمَعْجُونُ بِحَرَارَةِ دَمِهِمْ؟  
مَنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا  
جَسَتْ الْمَدِينَةُ.

الشوارعَ والمخادعَ والمحطَّاتِ  
عَصُورَ الصَّعَالِكِ

وعصُورَ الْفَتْحِ

العرافينَ وأزمنةَ الْحِكْمَةِ،

سَأَلْتُ: كَيْفَ حَدَثَ التَّحَوُّلُ؟

الليلَ والنَّهَارَ

الجفافَ والبرقَ

جلدَ الْأَرْضِ الْمَشْقُوقِ وَالْمَطَرِ

سَأَلْتُهَا: لِمَاذَا؟

الصَّمْتُ مَدِينَةٌ عَرَبِيَّةٌ مَغْلَقَةٌ

وَالْأَرْضُ ضَمَائِدٌ فَوْقَ جُرْحٍ يَنْزُ

وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

زَهْرَةٌ بِرَاعِمِهَا بِالْقَتْلِ تَنْفُتُ،

يَا لَهَا مِنْ أَجْوِبَةٍ مُوسِيقَاهَا

رعافةً بالحزن  
في زمنِ العربِ الآفلِ.

- ٢ -

مرتجةٌ تبدو المسامُ  
والعطبُ شراعُ مبحرِ.  
ملوكُ الزمنِ الغابرِ  
سفينةٌ مصدعةٌ  
والبرُّ بعيدُ  
آه. من يوقفُ هذه الريحَ العمياءَ.  
دوارُ البحرِ أصابَ البحارةَ  
والموجُ هاجمُ كهضابِ متحركةِ.  
المرافقُ غمرها الضبابُ وضوضاءُ البحرِ،  
وما هي الأقراشُ النهمةُ تلوح بين تلالِ الماءِ.  
لو أن المدنَ تصفي  
لو أن الضجيجَ أقلُّ  
لو الرغبةُ تجدُ دربها داخلَ المسامِ  
لو ذلك المأخوذُ يطفئُ نهمي بالبصرِ  
لقلتُ.....  
لكني وحدي خارجَ حلقاتِ الذكرِ،  
خارجَ الدوارِ  
والضوضاءِ تنامي.  
الرغبةُ المخصيةُ أنا  
والمأخوذُ فارسُ أعمى  
يدورُ  
وظلامُ الإرثِ القديمِ ملكُ  
يحترقُ عتقَ الحريةِ في وضوحِ النهارِ.

عندما عشقتُ قراءة التاريخ  
نسيتُ نفسي  
بطارقَ والمتني زهوتُ بين الناسِ ،  
قلتُ : أبا ذرَّ سيّدَ العدلِ المنفي  
وحمزة فتى الفتيان .  
قلبتُ الصفحات من محمدَ حتى الحجّاج  
وتلوتُها عن ظهرِ قلب  
فأعطاني المعلمُ بطاقةً تشجيع ،  
يا لله ما كان أعظمَ كتبَ التاريخ  
آه . كم كان فرحي القديمُ عظيماً .  
أيتها الابداحُ المتألقة كجرح  
أيتها الامبراطورية التي ما كانت تغيبُ الشمسُ عنها  
يا ظلالَ الأسلافِ المنسين ،  
هل ترينَ جيداً أجدادَ اليوم  
وهل تميزينَ تماماً لونَ هذا الزمن ؟

لماذا جلدي موشومٌ كأفعى  
ولماذا أبوابي ضاعتُ مفاتيحُها ؟  
من الذي كسرَ رُحمي ودفنهُ في الرمل  
ولماذا أقول : اليومَ خمرٌ وغداً خمرٌ ؟ .  
صوتي هل هو صوتي  
وهل حربي هي الحربُ إياها  
الا ما الذي دهاها القبيلة  
ولماذا ربيعة بن مكدّم عاد فزاعةً طيورٍ

لا حياً ولا ميتاً يخيف؟  
كل ذلك الزمن المتألق :  
العشقُ والتراتيلُ والفتوحُ ،  
الشعرُ والشجاعةُ والسَّخاءُ ،  
هزائمُ كِسرَى وقبصرَ وريشارد قلب الأسد ،  
تطفو الآن على سطحِ النيلِ والأردنِ والفراتِ  
زوارقَ أطفالٍ في نهارٍ محتلّ .  
الآن ما لون هذا الزمن  
الآن ما لون العربيّ ؟



غيرَ الصدى لا أسمع  
مبحوحاً داخلَ الأوردة  
غيرَ الظلال لا أرى ،  
شموسنا انكسفتُ  
جياح ومقرورون عبر صحارى الثلج  
وما عاد للإنسان بيت .  
تبه والعربي بلا مُدن  
وطنُ دامسٌ ولا نجم  
زمانٌ موجشٌ ولا أنس  
صحراء... صحراء . والرياحُ عَفَتُ آثارَ الإبل ،  
ألا من يتزعُّ من عروقِ القلبِ هذا المِبْضَعُ المسنونُ؟!  
لو ان الأرض تدور  
لأشرقت الشمس .  
لو أن الشمسَ تظهرُ وتختفي  
لأطلَّ القمرُ ،

لو ان هنا انساناً

لاجتاحه غضب .

الأرض لا تدور

الشمس لا تشرق

القمر لا يطل

الانسان لا يغضب

ففي أي أوقيانوس نحن

وما اسم هذه القارة؟

- ٦ -

عوني هنا ولترحل كل القوافل

فأنا لا قبيلة لي

وثقوني عارياً إلى هذه الصخرة

امضوا في مهرجان الريح .

خذوا أكفانكم وكل مجد الاسلاف

خذوا الرايات وكتب التاريخ والحقائق

وامضوا ،

سموني الميت الحي

وامضوا ،

انحدروا صوب المنجى

واتركوا لي رائحتكم

وحفنة من رماد المدن المحترقة .

خذوا غالي الثمن خفيف الحمل

ودعوا لي الأرض ولعب الأطفال ،

المصاحف والأناجيل خذوها أيضاً

واتركوا لي رائحة النساء في أثواب العرس

خلوا لي الموسيقى .

على هذه الصخرة باقٍ  
في مهبّ ربح الغزو باقٍ  
عني ممدود

ووجهي للموت مُشْرَع ،  
عيناي بحرٌ تودّعانِ شمسكم الآفلة  
وقلي حامةٌ خضراء ،  
تنتظرُ الطلقة .

- ٧ -

ها همّ قادمون ،  
أعرفهم من نشيد «الها تكفاه»  
نحت آباطهم سيفٌ وكتاب  
وفي عيونهم ومبضّ القتل .  
من ضفافِ المسيسي والرّابن  
طلائعُ بعثة روتشيلد تفتحُ ثغورَ الفقراء  
تحت راية صليبٍ جديد .  
ها هي الأسطورة القديمة تُبعث  
تصيرُ مجداً مُخضباً بالغزو .  
بحرٍ من أوردّة الأطفال  
يُسجّل التاريخ  
والحقّ الذي عفا عليه الزمنُ  
يطلعُ من سطورِ التوراة  
رصاصاً ومستعمرات .

ها همّ يقتربون  
أصواتهم رعدٌ : «أنا احاربُ إذن أنا موجود»  
وأنا هنا موثق ... موثق .  
لقد وصلَ الغُرباءُ ، المنفيون ، القتلة .



- ٨ -

كعذراءٍ تحت جسدٍ مُقتَصَبٍ ساديٍّ  
تهوي أرضُ السلامِ والشمسِ ،  
فوق سهوبِ المدينةِ المأسورةِ الفقيرةِ ، الخضراءِ ،  
المدينةِ التي لم تكنْ تملكُ حتى الأكفانِ لموتها ،  
يتشرُّ جرادُ ،

محنةٌ أخرى تدقُّ أبوابَ العربِ  
ظلامٍ جديدٍ يخيمُ على البلادِ الحزينةِ .

- ٩ -

في وطنِ الغاباتِ  
القاتلُ هو السيدُ ،  
في زمنِ النسيانِ  
النصرُ للذاكرةِ ،  
وفي زمنِ السجودِ الخانعِ  
الظهورُ للعقلِ .  
في ذلكِ الزمنِ المُختَلِّ  
والرصاصِ يُدخِرُ في المستودعاتِ السريةِ  
والبنادقُ من ما وراءِ الحار تُحشى  
داخلِ صناديقِ الزهورِ  
وبين قمصانِ الأطفالِ ،  
كانت مدنُ العربِ تهتزُّ في حلقاتِ الدراويشِ  
وفي سرِّ النساءِ المُستَحِمَّاتِ  
بالحليبِ والويسكيِ .  
في ذلكِ الزمنِ الضائعِ الاسمِ  
كانت شمسُ الصحراءِ النبويةِ  
معقولةً على هامِ أميرِ

يحمسُ الوطنَ والنبيَّ ،  
وفي ذلك الزمنِ الخائنِ  
بيع اللهُ والوطنُ  
بثلاثينَ استرليني .  
مغلوبةٌ كانت المدنُ  
والفقراءُ مهانونُ  
مُغلقاً كانَ المستقبلُ  
والمفتاحُ في رأسِ ميناخيمِ بيغن  
المتوقدِ الذاكرة  
ليلُ خريفِيّ كانَ يولي  
وصباحُ أحمرُ كانَ ينبلجُ :  
- واذلآه  
من كانَ فاتحاً بالأمسِ  
هوذا يُفتحُ الآنَ .

- ١٠ -

على الحجارةِ وأينا مرؤا  
رسموا وشمهم ،  
المطرَ والعشبَ وتقاويمَ الفصولِ  
حتى الريحَ ، سمموها .  
صادوا الفرَحَ من حناجرِ الأطفالِ ،  
وبين أفضاخِ الفتياتِ الحرائرِ  
زرعوا العارَ ،  
في الأطمعةِ دسوا الحزنَ  
وبدل الملاجيمِ صيروا الأشعارَ  
مراثي ؛  
في الحلمِ هبطوا

حولوا الرغبة إلى كابوس ؛  
بين الفتى وعروسه  
انتصبوا كالرمح  
وكرامٍ لا يخطيء طعنوا رعشة الجنس .  
بين العربي وجذره  
وقفوا .

سدوا سريان النسغ  
وضوء الشمس حجبه  
لقد بدأ فصدُّ الدم من النيل إلى الفرات  
في ذلك اليوم الجارح .

- ١١ -

يا أطفالَ المدنِ العريقة  
يا مَنْ كَانَ مِنْ نَسْلِكُمْ رِجَالًا أَشِدَّاءُ فِي مَاضِي الأَزْمَنَةِ ،  
لا تَسُوا الدَّمَ الَّذِي سَاحَ عِبْرَ آلاَفِ الأَعْوَامِ ،  
الدَّمَ الَّذِي غَارَ فِي الأَرْضِ  
وَسَقَى النُّسُوعَ ،  
الدَّمَ الَّذِي سَرَى مَعَ الجَدَاوِلِ  
فَاحِيَا الزَّرْعَ وَلَوْنَ الأَرْضِي ،  
دَمَ الفَلاحِينَ ، والغَزْوِ ، والثَّارَاتِ ،  
وتذَكَّرُوا أَكْثَرَ دَمِ التَّارِيخِ الحَدِيثِ  
الَّذِي أَهْرَقَ صَبَاحَ الخَامِسِ مِنْ حَزِيرَانِ .  
فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ المِشمِشِ  
غَارَ دَمٌ كَثِيرٌ عِبْرَ شُقُوقِ الأَرْضِ .  
عَلَى القَتْلِ لَمْ تُتْلِ آيَةٌ  
قَرَبَ الأَفْوَاهِ المِشَقَّقَةِ مِنَ الظَّمَا  
سُفِّحَ المَاءُ .

الأرضُ ارتوتُ

لكنَّ الجرحى - وا أسفاه - نفقوا

بالعطش .

في ذلك الصباحِ الشمسِ انكسرَ رمحُ العربي

وكبًا جوادٌ آخر،

لقد بدأ الاغتصابُ

في الظهيرة هذه المرة .

- ١٢ -

المضيُّ موتٌ والبقاءُ موت

وأنا آخرُ الصَّقور

عناداً أنا باقٍ هنا

وليسَ من أجلِ النصر

يسألني الغزاةُ : أينَ قومك ؟

أقول : بالرملِ والريحِ امتزجوا

صاروا البحر .

- ولمْ بقاؤك وحدك ؟

أقولُ : أنا والصحراءُ شمسٌ وأشعة .

- ما عادَ لكم زمن .

أقول : زمني يجيءُ بعد الموتِ ،

من الرعدِ يولد ومن البحر .

من الشمسِ يأتي ومن الصدى .

الحياةُ في الموت

والموت هو المهدي .

- وصيتك ؟

- أنْ أشاهدَ المدينةَ المُجتاحة

- وبعدها؟

- احرقوني ثم ذروا رمادي في الصحراء.

- ١٣ -

في الظهيرة عبرتُ المدينة،  
سرتُ تحتَ وشاحيها الغسقي  
هبطتُ حزنها،  
تحتَ الاغتصابِ كانت ممددة  
وساؤها الجداد،  
وهادئة بدتُ وكالبحرِ صامته  
لكن عينها كانتا تلمعانِ  
مثلَ حدِّ السيف.  
على جبينها قرأتُ وشمَّ المغول،  
وفي خطوطِ الجبين سمعتُ نغاءَ الأطفال،  
الذين قطعَت أياديهم وأرجلهم ورُمُوا في الآبار.

بين الثديين انتصبَ مشوهو النابالم  
الرجالُ الذين قتلهمُ الظمأ  
استحالوا مائدةً شهيةً للنسور والكلاب.  
تحتَ أظافرِ أرصفتيها المُقتلعة  
سمعتُ أنينَ الأمواتِ - الأحياء  
الذين حملتهمُ شاحناتُ اشترين والهأغانا  
إلى ساحاتِ الاعدام.  
على أسلاكِ الكهرباء  
كان كلُّ الوطن  
مدلىً.

أوغلتُ،  
دخلتُ باطنها البعيد

مفتشاً عن بقاياهم .  
دلوني على رجل ملامحه غريبة  
يقف في ساحة ويصرخ ،  
يده ترتعش بين مقبض السيف  
ومقبض الخزان  
يبع ويشترى ،  
يشمل ثم ينام ملء جفونه .  
ممسوس هذا الرجل  
وضجر  
يغني وهو يبكي  
ويضحك وهو يتزف  
وإذ يملأ العابه  
يتنضي سيفه الخشي  
ويتشجر .

- ١٤ -

حزينة كانت المدينة  
وفي خاصرتها جرح .  
سألت الجرح : أهذا زمان السبي ، زمان التيه ؟  
هل عصر العربي يولي ، وهل آذنت  
شمسه على الأفول ؟  
طويل هذا الليل طويل  
والفصول بطيئة .. بطيئة  
فهل احتل الزمن أيضاً ؟  
ضيقة مفارق الدروب  
والغضب ضاق  
ناس الآن ضاقوا .

الأحياء بالأمواتِ تساووا ،  
والخطواتُ بالخطواتِ تتعثر ،  
العينُ من العينِ تَخْجَلُ  
والوجهُ في الوجهِ تُهَمَّةُ  
حتى القهْرُ لم يعدْ يجدُ دَرْبَهُ  
داخِلُ المسامِّ المرْتَجَّةُ  
حزينا وعميقاً أتاني صدى الجُرحِ :  
للحزنِ وقت  
وللرعدِ وقت .

ملحق (٣)



## من مذكرات منى

« في برودة مفاصلي عري لا حدود له . ممرغ جسدي على اجمل الدروب ونور محتق أحسه في الهواء وفي مفاصلي . تسلقت أعماقي الملوثة بالسادة والفقراء ، وظللت نفسي بفرسان لا وجود لهم . بحثت عن نفسي في الشوارع والمحطات في البشر والام فا لقيت في طريقي غير الزمن الخائن . وجدت طفلاً يرقص كهلوان ، ويهزج . عيناه برّاقتان وعميقتان كما البحار تماماً . توقف عن الرقص وتوقفت عن الغور في أعماقي ومشينا . كانت حدود أرصفتنا دماء وغباراً ورملاً . آه . ما أروعنا في هذا المضي السريع . ما أعظم ان نلتقط معاً موسيقى الشرايين ونحطم العتمة ونمشي متسلقين قرون الحكمة ، متمرغين بدماء القدر الضبابية لنجد أبداع ما نريد ونحن لا نريد شيئاً حقاً .

تمسكتُ بمعصمه وشددتُ ، وتمسكَ بشناشيلِ قدمي المثقوبتين وارتقى معي درجَ الزمان . هذا الصبيّ المعقود الأصابع توقفَ عن الغناء عندما توقفتُ عن البحث . التصق بي كالموت والتصقت به كالأفكار وخرجنا من سهادنا البالي من أجل ولادة مغتسلة بالثلج والشمس . انا نعم بالراحة ونوشي أجسادنا بالفضة والنجوم ، ونظهر أمام بصر العالم حبتين من رمل فوق شطآن عارية ساخنة . نشيحُ بوجهينا عن العالم والزمن ونقرأ معاً الكلمات المتدفقة من الغصون ، وكأننا ضباب عذب يمضي بجسد الحياة .

١٠/٢٧ الساعة الثالثة بعد الظهر

« أين أنت أيها الشاعرُ الرقيق فأنا بحاجة اليك أكثر من ذي قبل . بحاجة لأن تضميني إلى صدرك . بحاجة إلى أن أبكي فوق عنقك أكثر من بكاء كل أطفال العالم لأشعر بعدها بالراحة والفرح ، لا تقل شيئاً أيها الشاعر فأنا ما زلتُ سكرى بجبك الأبيض . أين أنت الآن . في أي مكان ؟ سكين الفصام تكوي نفسي ، ومدية الرحيل والمسافات تطعن جسدي . لماذا أنا وأنت غريان؟! »

«فراغ.. فراغ. ظلمة موحشة كالقبر تخيم على روحي. ارتعاشاتُ الدم في مفاصلي تهز الجراح التي انفجرت منذ الازل.  
سأحفرُ كهفاً في هذه الأرض المطعونة. سأحفره في جدار العقم الحاضر علَّ مستقبلاً يطل بعد ليالي الأم».

«صامتة، كاتمة أسراري، أجوبُ العالم. ليس من أحد يدركُ حقيقتي. لكنك قد تعلمين وأعلم أنا. وربما لا تعلمين ولا أعلم أنا. لماذا أهبُّ من أحلى ساعات نومي لأرصدَ وأتابع الصمتَ والاختيالة التي تتراكم على شاشة الذاكرة! بامكاني في هذه اللحظة معانقة أية طفلة أصادفها وأناديها: ابنتي. اذ ذاك ستبارك النجومُ المتلألئة فوق رأسي صدقَ مشاعري. أي حلوتي! ما الليل؟ ما الموت؟ ما الحب؟ ما الخطيئة؟ ما الخوف؟ ان فرحي بعودتك يساوي لقاء المحاربِ العائدِ لبيته القديم».

«عندما يرتفع الجدار بيني وبينك يشتعلُ حزني. لا أستطيع ان أفصح لك ولهذا لا أجدُ لي ملجأً إلا الهربَ منك. كم أودُّ وأنا جالسة الآن في هذه الباحة ان تمرَّ في شارعِي علَّك ترى وجهي الموشى بالكآبة، وقلبي الذي يرتعش بجبك بشكل خاص.

قافلةٌ من الدموع تنهرُ في قلبي، وآلامي تشعُّ كالأضواء الذهبية. أواه ما أوسع الكون وما أضيق فرحي. لا أريد أن أترك خلقي أي شيء وانا اهاجر. الليل تلاشى والنهار مغطى بأقنعة رمادية وأنا أندفع رويداً رويداً في طريق الموت. الموت جليلٌ وكريه بدرجة واحدة. أريد أن أموت في أي مكان. في أي شارع. ولا أريد أن يعرفَ ذلك من تحبه نفسي.

نفسي حزينة وعلى روحي يخيم ضبابٌ عميق. أخاف السفر إلى البلاد النائية ومع ذلك فهذا حلم جميل عذب.

في لحظات يأسِي أرى رؤى جديدة. رؤى عن البدء الاول. أنا وأنت آدم وحواء في جنة مات كل من فيها. ونحن نعيدُ صياغةَ العالم من جديد. آه. العالم

القديم كم أشعر بالحزن عليه وبالشفقة. انني أكفنه بالرحمة وهذا أقصى الحب. أسير بزهو في تلك الجنة. أبحث عن منابع الفلّ ورائحة الأطفال. أتمرغ فوق العشب. العشب الذي يشبه في طراوته وحنانه ذراع رجل أحببته. إن قلبي ضائع إلى ما لا نهاية. أبه. شابك يديك بيدي واضغط خفيفاً ودع أعماقي تهتر بالحزن المبدع. فعماً قريب سنفترق.

## سقوط

مُتعبة هي الشمس فوق مدينتي. انها تسير بترهل يثني بالموت. قلبي امرهق وعيناي تبحثان عن عينيك في صحارى مجهولة المدى. انظر إلى النجوم هذه الحقيقة القديمة التي نعرفها جيداً. لنسها قليلاً ونزن إلى الأرض علنا نكتشف مكان الخلل في نفوسنا. النفوس التي اعتكرت بطمي الزمن. آه. انظر أيها العاشق الوحيد كيف يتشكل الحزن عبر أيامنا كما يتشكل الطحلب على جدران القلاع العتيقة. ان ذلك يمزق القلب ويقهر العقل. ترى أحياتنا مجرد سقوط متواصل؟

## جملة

زحزح هذه الصخرة القاسية عن قلبي، فلن أكون بعد ذلك عنيدة ولا مبالية. سأكون لك وحدك في ذلك الوقت.

## هزيمة

«ما دام الموت يهزمننا في أي مكان فلا بأس أن نعيش حياتنا كما نريد».

## بلا تاريخ

«النسيان، مجرد وهم. قبر لأفكاري ومستقبلي. انني غارقة في قرار سحيق والحب الممتنع يغريني من الداخل. أحلم بأزهار وعشب وريح ملونة لأن الموت هو الحقيقة النهائية. قبل أن تأخذني الى كهف بعيد وترميني على التراب، أريد أن أكتب قصيدة طويلة مُصاغة من أشعة خالدة ربما تضمد جروح الآخرين. وتذكركم بأن عليهم أن ينعموا بحياتهم إلى أن يأتي زمن الاحتضار».

## فَمَنْ الذِّكْرِيَاتُ

«من يشتري مني ذكرياتي بحبّ أبيض وشوقٍ أحمرٍ ولهفةٍ سوداءٍ ورعشاتٍ رماديةٍ. أنا هنا على رصيف الحياة أمشي تحت أبط الزمن وكأني في صدر حبيبي. من منكم يشتري؟ الأسعارُ متهاودةٌ والذكريات كثيرةٌ وأنا أعيش في زمن مفاجيءٍ أبيعُ أملاكي قبل الرحيل. أنا على قارعة الطريق شجرةً بلا حارس. أنشر ذكرياتي كما ينشر الباعة المتجولون بضائعَ عَرَبَاتِهِمْ».

١٢/١٣

بصخب الريح العاصفة أمشي اليك. بولعٍ أودُّ لو اقسامُك عواطفك أيها الصديق. الشوارع التي عبرنا تعبق برائحتنا، وكلماتنا القليلة امتصتها الأشجار والحدران في ذلك الشتاء الحزين. سلالتك في دمي. فجأة قررت ان اعطيك طفلاً وأنا أعرف ثمن ذلك. إنني مشتتة في هذه الأيام لكن فكرة انتقال دمك إلى صُلبي تملؤني بزهو يقاربُ احتفال الموت. رحلة مباحثة كسبتُ منها الكثير. البحرُ والبراري حيث أوغلنا. أعطيتك في لحظةٍ كالبرق جسدي ونفسي. من زمن بعيد وأنت ترغب ذلك وأنا أقول لك لا جدوى من هذا الالحاح، لكن حزنك العميق يومذاك اجتاحتني حتى الحمل.

كل شيءٍ لديّ ملونٌ ومنعش. كل شيءٍ مضيءٌ الآن. آه لو تستطيع الآن أن تحضّرَ لنفسي سريعاً سريعاً خارج هذه المدينة المسمومة. خارج هذا الزمن الخائق. ثمة أفكار قديمة. ذكريات مصبوغة بالدم تحاول أن تطلّ عليّ في هذه اللحظة وأنا أحاول إبعادها. العالم الجديد الذي تحدثنا عنه يهبّ في نفسي. بعيداً. بعيداً. قرب خلجان مغسولةٍ بالموج والشمس. جبال نائية وأدغال وموسيقى تنبثق من العشب والفرح الجديد. آه. أيّ شيءٍ أبدعُ من هذا. ان نعيدَ حكاية الكون من جديد.

## استطراد

بيني وبينك برزخٌ وأنا عاجزةٌ عن العبورِ إليك.

١/١

لقد تعفّن الفرح في هذا الزمن الضيق. وكل الألوان استحالَتْ إلى لون

القار. الصوت منحوق على حواف الحنجرة. والجميع أصبحوا عشاقاً يحملون مرايا، وكلُّ يقول في غرفته الخاصة: يا رب نفسي. لقد امتلأ العالم بالخونة والسفاحين وباعة جرائم الشرف المنتهك. لا أحد يجرؤ أن يقول: لا. الشوارعُ معبأةٌ بمكسوري الظهور. العيون خبا وميضها. صارت كهوفاً للذلِّ من كثرة ما مارستُ غضَّ الطرف. العفنُ في كل مكان. في النفوس والاجساد. في الكلمات والمواقف. الشجر والحجارة والريح تضجُّ بروائح قدرة لا تُطاق. وقلب الانسان هنا يُقايض من أجل زوجته. آه. الوطن معتلٌ فهل من يغسلُ الهواء؟

## اعترافٌ

عندما تنتظرنني ولا آتي، أستطيعُ أن احدثَ بأحزانك القمرية. أنا لن آتي. تاريخنا المشروخُ يقول ذلك، والعينان المتألفتان في عصر العيون المطفأة تقول ذلك. وأنا أعرف ذلك، ولهذا أهفو اليك بصمتٍ دون أن أفصح. ان نسلك يستلني في بحار دمي. نسلُك الشقيُّ المنسي من الله والزمن. من ألوف الأعوام أعرف مدى حزنك وهفتك لاعتناقني. لكن حبنا البائس ليس أكثر من صيحة مذعور في وادٍ خالٍ. آه أنت مقيم وأنا مسافرة. سأهجركم جميعاً تاركةً لكم الندم. لقد أحببتك وكرهتك بدرجة واحدة. هل تستطيع أن تحلَّ هذه المعادلة؟

## هروبٌ

ربما كنتُ أنتمي بجسدي فقط إلى هذا العالم. هل هذا يفسر انشطار الانسان هنا بين الحاضر والمستقبل؟

## يوم خاص

الحزن يعمُّ الأرض. الآلام تعرَّت كما الشمس، والأطفال حزاني في مخابثهم السرية حيث يتوسدون أرض الموت والحياة. أين طفلي الذي أكله العنكبوت والبنسلين. طفلي الذي مزقته المشارطُ.

قبل لحظات كنتُ أتوسدُ منضدة العمليات في غرفة محشوة بالسكاكين ورائحة الكلوروفورم. أوثقوني بالأحزمة وفتحوا ساقِي. أيها الطبيب الجزار: قف قليلاً قبل أن تحرك آلاتك الحادة. هناك بعض لحظات أريد أن اكتشفها. فجأة اقتربت امرأة متشحةً بالسواد ووضعت المخدرُ على أنفي. امرأة قاسية الملامح لا تعرف كيف

تبتسم. وهذا الرجل الانساني الذي يعرف بمهارة كيف يمزق الرحمَ ويشترطُ  
الأطفال دون أن يرفَّ له جفن. ببرود يدسّ رزمة من النقود في جيب زوجته.  
هل سيففر لي العالم ما حدث. لا بد من ذلك يا صديقي لا بد.

ارتقيت درج المشرحة وتوسدتُ بهدوء. اقترب المخدر ممدوداً كالنطع بين يدي  
المرأة القاسية الملامح. ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦... الغيبوبة. نصف غيبوبة. شيء  
حاد كالسيف يخترقني فيسري الألمُ من الرحم إلى القلب. دوارٌ مسكون بالفولاذ  
يسحقُ جسدي الذي أحببت. كوايسُس ونعوشُ محمولة نحو مقابرَ بعيدة مظلمة.  
صوتُ طفلنا الذي سيولد مشوهاً يصبحُ فلا يُسمعُ صوته. ما الفائدة؟ لن تكبر ولن  
تنمو. مثلك مثلُ أطفال بلادي الذين لا يَنُمُونَ. لن تقرأ أشعاراً وترى وشمَ الدم  
على جباهِ الملايين الذين قضوا وهم أحياء. لن تدخنَ وتثملَ وتطارِدَ الفتيات، ولن  
تكون لك أحصنةٌ وسيفٌ من خشب.

انني أستيقظ بعد أن انتهى كل شيء، كما ينتهي الربيع وأيام الآحاد العذبة.  
لقد انتهت المذبحة، والطفل الذي وُلِدَ الآن مرميً في صينية بيضاء. كتلة من اللحم  
والدم الممزق لا علاقة لها بالآدميين. لقد ولدتِ الأرضُ المطعونة طفلاً عليلَ الجسدِ  
عليلَ النفس.

